تاسيس كتابة جديدة

أدّى عملنا سويّةً في مجلة « شعر »، يوسف الخال وأنا ، بالتعاون مع الأصدقاء الآخرين الذين كوّنوا هيئة تحريرها ، القريبة العاملة والبعيدة المتعاطفة ، أدّى عملنا الى ترسيخ مناخ التجديد ، نظرياً وفنياً ، بحيث أصبحت خارج الشعر ، كل محاولة لتحديد الشعر كما كان يحدده النظريون القدامى . وفي أواخر عملنا المشترك اخذ يتضح لي ان هذا الذي حققناه ، وهو مهمّ جداً ، لا يكفي . خصوصاً ان معظم هؤلاء العاملين وقفوا عند حدود تغيير **الطريقة الموروثة** واكتفوا بهذا التغيير . وقد اكدت التجربة ان البقاء في حدود تغيير الطريقة يندرج في النهاية ضمن اطار الثقافة الموروثة ، ويصبح نوعاً من التلاؤم والتكيّف . وهذا ما حدث لمجلة « شعر » . لذلك لم استغرب من الذين استمروا قائمين عليها ، بعد ان تخليت عنها ، أن يجهلوا اعمق التجارب الشعرية واقصاها ، او ان يسيئوا فهمها . حتى ان المجلة اخذت تنكر ما بدأته . واخذ التغيّر الذي احدثته حركتها في البداية يظهر كأنه تغير في **الدرجة** لا في **النوع**. ومن هنا كان موتها ، كما قلت مرة ، ضرورة ذاتية في المقام الاول ،

وذلك من اجل الاحتفاظ بما بدأته ، والإبقاء عليه ناصعاً ، نقياً ، حياً .

II

ما نحاوله ، اليوم ، في «مواقف» يتجاوز ما بدأته «شعر» وبكمله في آن . فلم تعد المسألة ان نغير في الدرجة ، اي في الطريقة ، بل أصبحت المسألة هي ان نغيّر في النوع ، اي في المعنى . لم تعد المسألة ، اليوم ، مسألة **القصيدة** ، بل مسألة **الكتابة** . كنت في «شعر» اطمح الى تأسيس **قصيدة** جديدة ، لكنني في «مواقف» اطمح الى تأسيس **كتابة** جديدة .

III

احدد ملامح هذه الكتابة الجديدة فيما يلي :

١ - **افكر فيما أعرفه وأكتب حول ما أعرفه** ، هذا هو جوهر نظريتنا الموروثة الى التفكير والى الكتابة . فالعربي يفكر فيما يتضح له من ذاته ، لا فيما يغمض . يفكر فيما كُتب من قبل لا فيما لم يكتب ، بعد . لكن حين لا نفكر الا فيما نعرفه ولا نكتب الا حول ما نعرفه ، فنحن لا نفكر في الواقع ولا نكتب . الابداع دخول في المجهول لا في المعلوم . فان نبدع اذن ، اي ان نكتب ، هو ان نخرج مما كتبناه ــ من مسافة لحظةٍ مضت ، لكي ندخل في مسافة لحظةٍ تأتي . المفكر ، الكاتب لا يفكر اذن ولا يكتب الا اذا كتب وفكر **بشكل مغاير** لما يعرفه ، بحيث تكون كتابته وفكره نقطة لقاء بين نفي المعلوم وايجاب المجهول . هكذا يتحول ايجاب المجهول الى ما يشبه موجاً يغوينا لكي نغرق فيه : انه شيء غريب عنا لكنه هو نحن في الوقت ذاته . في حين ان المعلوم شيء غريب

عنا وهو ليس منا في الوقت ذاته . وبينما كان الاسلاف الشعراء يفضلون ، بوحي النظرة الموروثة ، ما « هم » على ما « يفعلون » فان على الاحفاد اليوم أن يفضلوا ما «يفعلون» على ما «هم» .

٢ ـ يجب ان تتغيّر الكتابة **تغيّراً نوعياً** ، فالحدود التي كانت تقسم الكتابة الى **انواع** ، يجب ان تزول ، لكي يكون هناك نوع واحد هو **الكتابة** . لا نعود نلتمس معيار التمييز في نوعية المكتوب : هل هو قصيدة ام قصة ؟ مسرحية ام رواية ؟ وانما نلتمسه في **درجة حضوره الابداعي**. ولئن كانت الكتابة ، في الماضي ، خريطة رسمت عليها حدود الأنواع ، وعيّنت رفوفها وادراجها، وكان على كل من يدخل اليها ان يدخل زائراً، مقدماً اوراق اعتماده النوعية الخاصة ، فان هذه الخريطة اليوم بيضاء دون ادراج ولا رفوف ، والداخل اليها هو ، وحده ، الغازي المخلخِل الذي رمى علامة الزيارة ورفع علامة الغزو .

٣ ـ لم يعد كافياً ، ان نخلق زمناً شعرياً متحركاً ، وانما يجب ان نخلق زمناً ثقافياً متحركاً . وفي هذا تتغيَّر العلاقة في فعل الإبداع : لا تعود بين الخلاق وتراث سابق، بل تصبح بين الخلاق وحركة الخلق . وذلك يتضمن ثلاث حقائق :

الاولى : ليس التراث ما يصنعك ، بل ما تصنعه . التراث هو ما يولد بين شفتيك ويتحرك بين يديك . التراث لا يُنقل بل يُخلق .

الثانية : ليس الماضي كلّ ما مضى . الماضي نقطة مضيئة في مساحة معتمة شاسعة . فان ترتبط ، كمبدع ، بالماضي هو ان تبحث عن هذه النقطة المضيئة . الوفاء لغير هذا البحث وفاء لسقوطٍ مسبق .

الثالثة : جوهر القصيدة في **اختلافها** لا في **ائتلافها** . انه في الفرق الذي يعدّد العالم ويكثّره . واذا كان الجوهر في

الفرق ، اي الاختلاف ، فلا شيء يعوض عن الشعر او يحلّ محله . المادة هي **الواحدة** ، اما **الكثير** فهو الانسان .

٣ - **الفعل المُنتِج اكثر اهمية من المُنتَج**، يجب ان نكتب ونقرأ ، لا بروح التوكيد على **النتاج** بحد ذاته ، بل بروح التوكيد على **فعل الخلق** . ففعل الخلق اكثر اهمية مما نخلق. **بدل** ان نعجب بنجاح القصيدة ، اي بكمالها ، ونلتذ بها كشيء مكتمل ، يجب ان نوجه النظر الى الحركة الخلاقة التي انتجت هذه القصيدة ، الى **الطاقة الابداعية** الكامنة وراءها . فالنتاج الاول للمبدع ليس ان ينتج **نتاجه** ، بل ان **ينتج ذاته.**

٤ - **ليست الثقافة استعادةً وانما هي ابتكار** . يجب ان نكتب ونقرأ فيما نعي وعياً اصيلا ان الثقافة ليست في الشيء القائم المؤسَّس ، وانما هي فيما يتحرك ويحرّك ،ويؤسِّس.لا تعود الثقافة مجموعة الآثار والقيم والمقاييس والمنجزات **المتحققة** ، بل تصبح الحركة التي هي في طريق التأسّس ، تصبح **الابداع متحركاً** في اتجاه المستقبل .وهذه هي الثقافة الفعالة التي تبدع الانسان فيما يبدعها ، وتؤسّسه فيما يؤسسها . فليست الثقافة ما ابتكرناه ، وانما هي ما نبتكره .

٥ - **البداية المطلقة مستحيلة** . لكن ثمة **خصوصية** تظهر في مظهر البداية حين **نغيّر وجهة الانطلاق**.هذه الوجهة كانت في الشعر ، مثلاً ، كما يلي : **الكتابة هي نتاج المعنى** . كان الشاعر ، بتعبير آخر ، يكتب المعاني (التي يعرفها) . وجهة الانطلاق اليوم هي: **المعنى هو نتاج الكتابة**. **هذا** يعني ان القصيدة ليست جواباً ، بل هي سؤال ضمن السؤال او سؤال يتجاوز السؤال . ليس المهم ، اذن ، في قراءتها ، ان نبحث عن الجواب بل ان نحدّد مناطق **الغامض وغير اليقيني** من اجل ان نتقن طرح الاسئلة الجديدة . ومن هنا يجب ان نكتب الشعر ونقرأه

فيما نستبدل مقولة **الفهم** بمقولة **التأمل** . لا اعود اقول ، كقارىء ، امام القصيدة : لم افهمها ، ما هو معناها ؟ بل اقرأ واسأل واحاول ان اكتشف مزيداً من الأسئلة . كانت مقولة الفهم **غاية** ، في الماضي ، واليوم يجب ان تتحول الى **وسيلة** .

الشعر لا يبدأ هنا وينتهي هناك . ليس للشعر تخوم . لذلك ليست المسألة ان نفهمه ، بل ان نتأمل في ابعاده . ليست ان نستوعبه ، بل ان نواكبه . وهكذا لم يعد جائزاً ان نقرأ القصيدة خيطياً – سطراً سطراً ، وانما يجب ان نقرأها كأننا نقرأ **فضاء** .

٦ – بعد الإعصار الذي يمحو حدود الانواع من على خريطة الكتابة ، يجيء الهدوء . ثمة حاجة الى الدخول في تحديد جديد لكتابة جديدة * . وثمة نماذج من هذه تغري بهذا الدخول .

أدونيس

بيروت ، ١٥ حزيران ١٩٧١

---

* تعمل « مواقف » على اصدار عدد خاص ، قد يكون العدد المقبل ، يتناول هذا التحديد والمشكلات التي يثيرها .

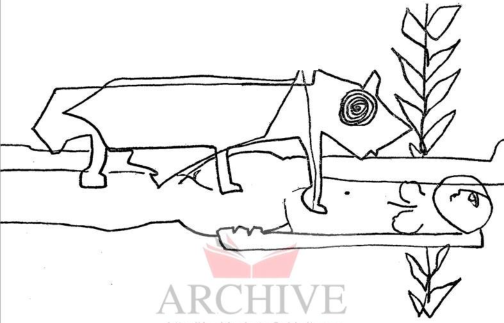
قبر من أجل نيويورك

I

حتى الآن ، تُرسم الأرضُ إجاصـةً
أعـني ثدياً
لكن ، ليس بين الثدي والشاهدة إلا حيلةٌ هندسية :
نيويورك ،
حضارةٌ بأربعة أرجل ؛ كلّ جهةٍ قتلٌ وطريقٌ إلى القتل ، وفي المسافـات
أنين الغرقى .

نيويورك ،
امرأةٌ ــ تمثال امرأةٍ
في يدٍ ترفع خِرْقةً يسمّيها الحريةَ ورقٌ نسميه التاريـخ
وفي يدٍ تخنق طفلةً اسمها الأرض .

نيويورك ،
جسدٌ بلون الإسفلت . حول خاصرتها زنّارٌ رطب ، وجهها شبّاك مغلق ...
قلت : يفتحه وولت ويتمان ــ « أقول كلمـة السر الأصلية » ــ لكن لم
يسمعها غير إلهٍ لم يعد في مكانه . السجناء ، العبيد ، اليائسون ، اللصوص ،
المرضى يتدفقون من حنجرته ، ولا فتحـة ، لا طريق . وقلت :
جسر بروكلين ! لكنه الجسر الذي يصل بين ويتمان و وول ستريت ، بين
الورقة ــ العشب والورقة ــ الدولار ...



نيويورك ـ هارلم ،

منِ الآتي في مقصلةِ حريرٍ ، مَن الذاهب في قبرٍ بطول **الهدسون** ؟ انفجرْ يا طقس الدمع ، تلاحمي يا أشياء التعب . زرقةٌ ، صفرةٌ ، وردٌ ، ياسمينٌ والضوء يسنّ دبابيسه ، وفي الوخز تولدُ الشمس . هل اشتعلتَ أيها الجرح المختبىء بين الفخذ والفخذ ؟ هل جاءك طائر الموت وسمعت آخر الحشرجة؟ حبلٌ ، والعنقُ يجدل الكآبة وفي الدم سويداء الساعة ...

نيويورك ـ ماديسون ـ بارك أفينيو ـ هارلم ،

كسلٌ يشبه العمل ، عملٌ يشبه الكســـل . القلوب محشوةٌ إسفنجاً والأيدي منفوخةٌ قصباً . ومن أكداس القذارة وأقنعة **الامبايرستيت** ، يعلو التاريخ روائح تتدلّى صفائحَ صفائح :

ليس البصر أعمى بـــل الرأس ،
ليس الكلام أجردَ بل اللسان .

نيويورك - وول ستريت - الشارع ١٢٥ - الشارع الخامس ،

شبحٌ ميدوزيٌ يرتفع بين الكتف والكتف . سوق العبيد من كل جنس . بشرٌ يحيون كالنباتات في الحدائق الزجاجية . بائسون غير منظورين يتغلغلون كالغبار في نسيـج الفضاء ـ ضحايا لولبية ،

الشمس مأتمٌ
والنهار طبلٌ أسود .

II

هـــنا ،
في الجهة الطحلبيّة من صخرة العالم ، لا يراني إلا زنجيٌ يكاد أن يقتل أو عصفورٌ يكاد أن يموت ، فكـّرت :
نبتةٌ تسكن في أصيص أحمر كانت تتحول وأنا أبتعد عن العتبة ، وقرأتُ :
عن فئران في بيروت وغيرها ترفل في حرير بيت أبيض ، تتسلـــح بالورق وتقرض البشر ،
عن بقايا خنازير في بستان الأبجدية تدوس الشعر ،

ورأيت :
أينا كنت ـ بتسبورغ (أنتيرناشينال بويتري فورم) ، جون هوبكـــنز (واشنطن) ، هارفــــارد (كامبردج ، بوسطن) ، آن آربر (ميشيغن ، ديترويت) ، نادي الصحافة الاجنبية ، النـــادي العربي في مقر الامم المتحدة (نيويورك) ، برنستون ، تمبل (فيلادلفيا) ،

رأيتُ
الخريطة العربيـة فرَساً تجرجر خطواتها والزمن يتهدّل كالخرْج ، نحو القبر أو نحو الظل الأكثر عتمة ، نحو النار المنطفئة أو نحو نار تنطفىء ؛ تكتشف كيمياء البعـــد الآخر في **كركوك الظهران** وما تبقّى من هذه القلاع في **أفراسيا العربية** . وها هو العالم ينضج بين أيدينـــا . هَهْ ! نهيّء الحرب

الثالثة ، ونقيم المكاتب الأولى والثانية والثالثة والرابعة لنتأكد :

١ ـ في تلك الناحية حفلة جاز ،
٢ ـ في هذا البيت شخص لا يملك غير الحبر ،
٣ ـ في هذه الشجرة عصفور يغـــني ،

ولنعلـــن :

١ ـ الفضـــاء يقاس بالقفص أو بالجدار ،
٢ ـ الزّمن يُقاس بالحبل أو بالســـوط ،
٣ ـ النظام الذي يبني العالم هو الذي يبدأ بقتل الأخ ،
٤ ـ القمر والشمس درهمان يلمعان تحت كرسي السلطان ،

ورأيتُ

أسماء عربية في سعة الأرض أكثر حنوّاً من العين، تُضيء لكن كما يضيء كوكبٌ مشرّد « لا أسلاف له وفي خطواته جذوره ... »

هنـــا ،

في الجهة الطحلبيّة من صخرة العالم أعرف أعترف . أذكر نبتةً أسميها الحياة أو بلادي، الموتَ أو بلادي ـ ريحاً تجمد كالملاءة، وجهاً يقتل اللعب ، عيناً تطرد الضوء ، وأبتكر ضدّكِ يا بـــلادي ،

أهبط في جحيمكِ وأصرخ :
أقطّر لكِ إكسيراً سامـــاً
وأحييكِ ،

وأعترف : **نيويورك** ، لكِ في بلادي الرّواق والسرير ، الكرسي والرأس . وكل شيءٍ للبيـــع : النهار والليل ، حجر مكّـة وماء دجـــلة . وأعلن : مع ذلك تلهثين ـ تسابقين في **فلسطين** ، في **هانوي** ، في الشـــمال والجنوب ، الشرق والغرب ، أشخاصاً لا تاريخ لهم غير النار ،

وأقول : منذ **يوحنا المعمدان** ، يحمل كل منا رأســه المقطوعَ في صحن وينتظر الولادة الثانية .

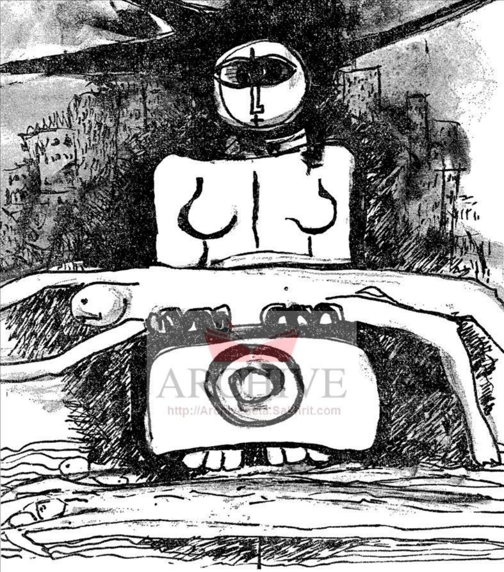
III

تفتّتي يا تماثيلَ الحرية ، أيتها المسامير المغروسة في الصدور بحكمةٍ تقلّد حكمة الورد . الريح تهبّ ثانية من الشرق ، تقتلع الخيام وناطحات السحاب .
وثمة جناحان يكتبان :
أبجديّةٌ ثانية تطلعُ في تضاريس الغرب ،
والشمسُ ابنةُ شجرةٍ في بستان القدس .
هكذا أضرمُ لهبي . أبدأ من جديدٍ ، أشكّل وأحدّد :

نيويورك ،
امرأةٌ من القشّ والسرير يتأرجحُ بين الفراغ والفراغ ،
وها هو السقف يهترىء : كل كلمةٍ إشارةُ سقوطٍ ،
كل حركةٍ رفشٌ أو فأس . وفي اليمين واليسار
أجسادٌ تحب أن تغير الحبَّ النظرَ السمع الشمَّ
اللمس والتغيير – تفتح الزمن كبوّابةٍ تكسرها
وترتجل الساعات الباقية
الجنسَ الشعرَ الأخلاقَ العطشَ القولَ الصّمت
وتنفي الاقفال .

وأغري بيروت وأخواتها العواصم ،
تقفز من سريرها وتغلق خلفها أبواب الذكرى . تدنو ،
تتعلق بقصائدي ، وتتدلّى . الفأس للرتاج والزهر للنافذة ،
واحترقْ يا تاريخ الأقفال .

قلت : أغري بيروت ،
ـ « ابحثْ عن الفعل . ماتت الكلمة » ، يقول آخرون .
الكلمة ماتت لأن ألسنتكم تركت عادة الكلام إلى عادة المومأة . الكلمة ؟ تريدون أن تكتشفوا نارها ؟ إذن ، اكتبوا . أقول اكتبوا ، ولا أقول مومِئوا ، ولا أقول انسخوا . اكتبوا ـ من المحيط الى الخليج لا أسمع لساناً ، لا أقرأ كلمة . أسمع تصويتاً . لذلك لا ألمح من يلقي ناراً .
الكلمة أخفّ شيءٍ وتحمل كل شيء . الفعل جهةٌ ولحظةٌ ، والكلمة الجهات



كلها الوقتُ كله . الكلمة ـ اليد ، اليد ـ الحلم :
أكتشفكِ أيتها النار يا عاصمتي ،
أكتشفكَ أيها الشعر ،

وأغري بيروت . تلبسني وألبسها . نشرد كالشعاع ونسـأل : من يقرأ ،

من يرى ؟ **الفانتوم** لدايان **والنفـــط** يجري الى مستقرّه . صدق الله ، ولم يخطىء **ماو** : « السلاح عامِـــلٌ مهمٌ جداً في الحرب ،
لكنه غير حاسم . الإنسانُ ، لا السلاح ،
هو العامل الحاسم » . وليس هنـــاك
نصرٌ نهائيّ ولا هزيمة نهائية .

ردّدتُ هذه الأمثال والحِكَم ، كما يفعل العربي ، في **وول ستريت** ، حيث تصبّ أنهار الذهب من كل لونٍ آتيةً من الينابيـع . ورأيت بينها الأنهار العربية تحمل ملايين الاشلاء ضحايا وتقدمات إلى **الوثن السيد** . وبين الضحيـــة والضحية يقهقه البحارة فيما يتدحرجون من **كريزلر بيلدنغ** ، ليعودوا إلى الينابيـع .

هكذا أضرم لهبي ،
نسكن في الصخب الاسود لتمتلىء رئاتنا بهواء التاريخ ،
نطلع في العيون السوداء المسيّجة كالمقابر لنغلب الكسوف ،
نسافر في الرأس الاسود لنواكب الشمس الآتية .

IV

نيويورك ، أيتها المرأة الجالسة في قوس الريـــح ،
شكلاً أبعدَ من الذرّة ،
نقطة تهرول في فضاء الارقام ،
فخذاً في السماء وفخذاً في المـــاء ،

قولي أين نجمُكِ ؟ المعركة آتيةٌ بين العشب والادمغـــة الالكترونية . العصر كله معلقٌ على جدارٍ ، وها هو النزيف . في الاعلى رأسٌ يجمع بين القطب والقطب ، في الوسط **آسيا** ، وفي الأسفل قدمان لجسدٍ غير منظور . أعرفكِ أيتها الجثة السابحة في مِسكِ الخشخاش ، أعرفك يا لعبـة الثدي والثدي . أنظر إليكِ وأحلم بالثلج ، أنظر إليكِ وأنتظر الخريف .

ثلجكِ يحمل الليل ، ليلك يحمل الناس كالخفافيش الميتة . كل جدارٍ فيـــكِ مقبرة . كل نهارٍ حفّارٌ أسود ،

يحمل رغيفاً ، أسودَ صحناً أسود
ويخطّط بها تاريخ **البيت الابيض :**

أ ـ
ثمة كلابٌ تترابط كالقيد . ثمة قططٌ تلد خوذاً وسلاسل . وفي الازقّة المتسلقة على ظهور الجرذان ، يتناسل الحرس الابيض كالفطر .

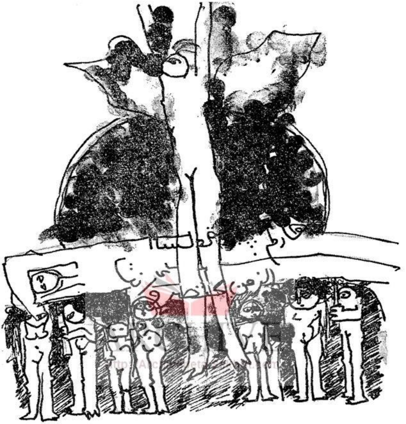
ب ـ
امرأةٌ تتقدم وراء كلبها المسرج كالحصان . للكلب خطوات الملك ، وحوله تزحف المدينة جيشاً من الدمع . وحيث يتكدس الاطفال والشيوخ الذين يغطيهم الجلد الاسود ، تنمو براءة الرصاص كالزرع ، ويضرب الهلعُ صدر المدينة .

ج ـ
هارلم ـ بدفورد ستويفنسنت: رملٌ من البشر يتكاثف بروجاً بروجاً . وجوه تنسج الازمنة . النفايات ولائم للأطفال ، الاطفال ولائم للجرذان ... في العيد الدائم لثالوث آخر : الجابي ، الشرطي ، القاضي ـ سلطة الفتك ، سيف الابادة .

د ـ
هارلم (الاسود يكره اليهودي) ،
هارلم (الاسود لا يحب العربي حين يذكر تجارة الرقيق) ،
هارلم ـ برودواي (البشر يدخلون كالرخويات في أنابيق الكحول والمخدرات)
برودواي ـ هارلم ، مهرجان سلاسل وعصيّ ، والشرطة جرثومة الزمن . طلقةٌ واحدة ، عشر حمامات . العيون صناديق تتموّج بثلج أحمر ، والزمن عكاز يعرج . الى التعب أيها الزنجيّ الشيخ ، الزنجي الطفل . الى التعب أيضاً وأيضاً .

V

هارلم ،
لستُ آتياً من الخارج : أعرف حقدك ، أعرف خبزه الطيّب . ليس للمجاعة غير الرعد المفاجىء ، ليس للسجون غير صاعقة العنف . ألمح نارك تتقدم



تحت الإسفلت في خراطيم وأقنعة ، في أكداس من النفايات يحضنها عرش الهواء البارد ، في خطوات منبوذة تَنتَعِل تاريخ الريح .

هارلم ،

الزمن يُحتَضر وأنتَ الساعة :

أسمع دموعاً تهدر كالبراكين ،
ألمح أشداقاً تأكل البشر كما تأكل الخبز .
أنتَ الممحاة لتمحو وجه نيويورك ،
أنتَ العاصفُ لتأخذها كالورقة وترميها.

نيويورك = I. B. M. + SUBWAY آتياً من الوحل والجريمة ، ذاهباً إلى الوحل والجريمة .

نيويورك = ثقباً في الغلاف الأرضي ينبجس منه الجنون أنهاراً أنهاراً .
هارلم ، نيويورك تحتضر وأنتَ الساعة .



VI

بين هارلم ولنكولن سنتر ،

أتقدم رقماً تائهاً في صحراء تغطيها أسنان فجرٍ أسود . لم يكن ثلج ، لم تكن ريح . كنت كمن يتبع شبحاً (ليس الوجه وجهاً بل جرح أو دمع ، ليست القامة قامة بل وردة يابسة) ، شبحاً ـ (هل هو امرأة ؟ رجل ؟ هل هو

امرأة ـ رجل ؟) يحمل في صدره أقواساً ويكن للفضـــاء . مرّت غزالة ناداها الأرض ، وظهر عصفور ناداه القمر . وعرفت أنه يركض ليشهد بعث **الهندي الاحمر** ... في **فلسطين** وأخواتها ،

والفضاء شريط رصاص ،
والأرض شاشة قتلى .

وشعرت أنني ذرةٌ تتموج في كتلةٍ تتموج نحـــو الأفق الأفق الافق . وهبطت ودياناً تتطاول وتتوازى ، وخطر لي أن أشكّ في استدارة الأرض . .

وفي البيت كانت يارا ،

يارا طرف أرضٍ ثانية **ونينار** طرفٌ آخر . وضعتُ **نيويورك** بين قوسين وسرت في مدينة موازية . قدماي تمتلئـــان بالشوارع ، والسماء بحيرةٌ تسبح فيها أسماك العين والظنّ وحيوانات الغيم . وكان **الهدسون** يرفرف كغرابٍ يلبسُ جسد البلبل . وتقدّم نحوي الفجر طفلاً يتأوه ويشير إلى جراحه . وناديت الليل فلم يجب . حمل سريره واستسلم للرصيف.ثم رأيته يتغطى بريح لم أحد أرقّ منها غير الجدران والأعمدة ... صرخة ، صرختان ، ثلاث ... وأجفلت **نيويورك** كضفدع نصف جامد يقفز في حوض بلا ماء .

لنكولن ،

تلك هي **نيويورك** : تتكىء على عكاز الشيخوخة وتتنزه في حدائق الذاكرة ، والأشياء كلها تميل الى الزهر المصنوع . وفيما أنظر إليـــكَ ، بين المرمر في واشنطن ، وأرى من يشبهك في هارلم ، أفكر : متى تحين ثورتك الآتية ؟ ويعلو صوتي : حرّروا **لنكولن** من بيـــاض المرمر ، من **نيكسون** ، وكلاب الحراسة والصيد . اتركوا له ان يقرأ بعين جديدة **صاحب الزنج علي ابن محمد** ، وأن يقرأ الأفق الذي قرأه **ماركس ولينين وماوتسي تونغ**

والنّفّري ، ذلك المجنون

السماويّ الذي أنحلَ الأرض وسمح لها أن تسكن بين الكلمة والإشـــارة. وأن يقرأ ما كانَ يودّ أن يقرأه **هوشي منه**،**عروةَ ابن الورد** : « أقسم

جسمي في جسوم كثيرة ... » . ولم يعرف عروة **بغداد** ، وربما رفض أن يزور دمشق . بقي حيث الصحراء كتفٌ ثانية تشاركه حمل الموت . وترك لمن يحب المستقبل جزءاً من الشمس منقوعاً في دم غزالة كان يناديها : حبيبتي ! واتفق مع الأفق ليكون بيته الأخير .

لنكولن ،

تلك هي **نيويورك** : مرآة لا تعكس إلا واشنطن . وهذه واشنطن : مرآةٌ تعكس وجهين ـ نيكسون وبكاء العالم. ادخلْ في رقصة البكاء ، انهضْ. ما يزال ثمة مكان ، ما يزال دور ... أعشق رقصة البكاء الذي يتحول الى حمامة تتحول الى طوفان .«الأرض للطوفان محتاجةٌ ... »

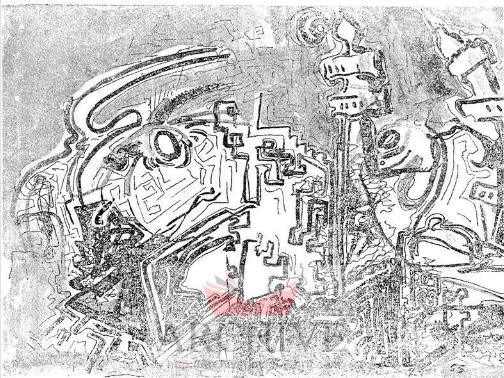
قلت البكاء وعنيت الغضب . عنيت كذلك الأسئلة : كيف أقنع **المعرّة بأبي العلاء** ؟ سهولَ الفرات بالفرات؟ كيف أستبدل الخوذة بالسنبلة؟ (لا بدّ من الجرأة لطرح أسئلة أخرى على النبي والمصحف) ؛أقول وألمح غيمة تتقلد النار ؛ أقول وألمح بشراً يسيلون كالدمع .

VII

نيويورك ،

أحصركِ بين الكلمة والكلمة . أقبض عليكِ ، أدحرجكِ ؛ أكتبكِ وأمحوكِ . حارّة باردة ، بين بين. مستيقظة ، نائمة ، بين بين .أجلس فوقكِ وأتنهّد . أتقدّمك وأعلّمك السير ورائي .سحقتكِ بعينيّ أنتِ المسحوقة بالرعب . حاولت أن آمرَ شوارعك : استلقي بين فخذيّ لأمنحك مدى آخر ؛ وأشياءكِ : اغتسلي لأعطيك أسماء جديدة .

كنت لا اجد فرقاً بين جسد برأس يحمل أغصاناً نسميه شجرة ، وجسد برأس يحمل خيوطاً رفيعة نسميه انساناً . واختلطت علي الحجرة والسيارة ، وبدا الحذاء في الواجهات خوذة شرطي والرغيف صفيحة توتياء . مع ذلك ، ليست **نيويورك** لغواً بل كلمة . لكن حين أكتب : **دمشق** ، لا أكتب كلمة بل أقلد لغواً . دال ميم شين قاف ... ما تزال صوتاً ، أعني



شيئاً من الريح . خرجت مرةٌ من الحبر ولم تعدْ . الزمن واقف حارساً على العتبة يسأل : متى تعود ، متى تدخل ؟ كذلك بيروت القاهرة بغـداد لغوٌ شاملٌ كهباء الشمس ...

شمس ، شمسان ، ثلاث ، مئـة ...
(استيقظ **فلانٌ** وفي عينيه اطمئنانٌ

يمتزج بالقلق . يترك زوجاته وأبناءه ويخرج حامـلا بندقيته . شمس ، شمسان ، ثلاث ، مئة ... ها هو يعود كالخيط مهزوماً ينزوي تحت نفسه . يجلس في المقهى . المقهى يمتلىء بحجارةٍ ودُمى نسميها رجالاً ، بضفـادع تتقيأ الكلام وتوسـخ المقاعد . كيف يستطيع **فلانٌ** ان يثور وعقله مليء

بدمه ، ودمه مليء بالسلاسل ؟)

أسألكَ ، أنت من تقول لي :
أجهل العلم وأتخصَّص بكيمياء العرب .

VIII

السيدة بروينج ، يونانية في **نيويورك** . بيتها صفحة من كتاب المتوسط ـ الشرق . **ميرين** ،**نعمة الله** ، **إيف بونفوا** ...وأنا كمن يضيع ويقول اشياء لا تقال . كانت **القاهرة** تتناثر بيننا ورداً يجهل الأزمنة ، وكانت **الاسكندرية** تختلط بصوت **كفافي وسيفيريس** . « هذه أيقونة بيزنطية ... » قالت والزمن يلتصق على شفتيها عطراً أحمر . كان الوقت يحدودب والثلج يتكيء ، (منتصف ليلة ٦ نيسان ١٩٧١) —

ونهضت في الصباح صارخـــاً

قبيل ساعة العودة : **نيويورك** !

تمزجـــين الأطفال بالثلج وتصنعين كعكة العصر . صوتك إكسيدٌ ، سمٌ مما بعد الكيمياء ، واسمكِ الأرق والاختناق .

سنترال بارك تولم لضحاياها ، وتحت الشجر أشباح جثث وخناجر . ليس للريح غير الأغصان العارية ، ليس للمسافر إلا طريق مسدود .

ونهضت في الصباح صارخاً : **نيكسون** ، كم طفلاً قتلت اليوم ؟

ـ « لا أهمية لهـــذه المسألة ! » (**كالي**)

ـ « صحيح أن هذه مشكلة . لكن اليس صحيحاً كذلك أن هذا ينقص عدد العدو ؟ » (جنرال أميركي)

كيف أعطي لقلب **نيويورك** حجماً آخر ؟ هل القلب هو كذلك يوسّـــع حدوده ؟

نيويورك = **جنرال موتورز** الموت ،

« سنستبدل الرجال بالنار ! » (**مكنمارا**) ـ يجففون البحر الذي يسبح فيـــه



الثوار ، و« حيث يجعلون من الارض صحراء ، يسمون ذلك سلاماً ! »
(تاسيت) .

ونهضت قبل الصباح ، وأيقظت **ويـتمان** .

IX

وولت ويتان ،
ألمح رسائل إليك تتطاير في شوارع **منهاتن** . كل رسالةٍ عربَةٌ ملأى بالقطـط
والكلاب . للقطط والكلاب القرن الواحد والعشرون ، وللبشر الإبادة :

هذا هو العصر الأميركي !

ويتمان ،

لم أرك في منهاتن ورأيتُ كل شيء . القمر قشرة تقذف من النوافذ ، والشمس برتقالة كهربائية . وحين قفز من هارلم طريق أسود في استدارة قمر يتوكأ على أهدابه ، كان وراء الطريق ضوء يتبعثر على مدى الاسفلت ، ويغـور كالزرع بعد ان يصل الى غرينيش فيليج ، ذلك الحي اللاتيني الآخر ،أعني الكلمة التي تصل إليها بعد ان تأخذ كلمة ُحبّ وتضع نقطة تحت الحـاء . (اذكر انني كتبت ذلك في مطعم فايسروي بلندن ، ولم يكن معي غير الحبر . وكان الليل ينمو كزغب العصافير) .

ويتمان ،

« الساعة تعلن الوقت » (نيويورك ــ المرأة قمامة ، والقمامة زمنٌ يتجـه إلى الرماد)

« الساعة تعلن الوقت » (نيويورك ــ النظام بافلوف ، والنـاس كلاب التجـارب ... حيث الحرب الحرب !)

« الساعة تعلن الوقت » (رسالة آتية من الشرق . طفـل كتبها بشريانه . اقرأها :الدمية لم تعد حمامة . الدمية مدفع ، رشاش، بندقية ... جثثٌ في طرقات من الضوء تصـل بين هانوي والقدس ، بين القدس والنيل).

ويتمان ،

« الساعة تعلن الوقت » وأنا

« أرى ما لم تره وأعرف ما لم تعرفه »،

أتحرك في مساحة شاسعـة من
علبٍ تتجاور كسراطين صفراء في محيطٍ من ملايين
الجزر ــ الأشخاص ؛ كل واحدة عمود بيدين وقدمـين
ورأس مكسور . وانتَ

« أيها المجرم ، المنفيّ ، المهاجر »

لم تعد إلا قبّعةً تلبسها عصافير لا تعرفها
سماء اميركا !

ويتمان ، ليكنْ دورُنا الآن . أصنع من نظراتي سلّماً . انسج من خطواتي وسادةً ، وسوف ننتظر . الإنسان يموت ، لكنه أبقى من القبر . ليكن دورنا ، الآن . انتظر ان يجري **الفولغا** بين **منهاتن وكوينز** . انتظر ان يصب **هوانغ هو** حيث يصب **الهدسون** . تستغرب ؟ ألم يكن **العاصي** يصبّ في **التيبر** ؟ ليكن دورنا، الآن . أسمع رجّةً وقصفاً . **وول ستريت وهارلم** يلتقيان – يلتقي الورق والرعد ، الغبار والعصف . ليكن دورنا ، الآن . المحار يبني أعشاشه في موج التاريخ . الشجرة تعرف اسمها . وثمة ثقوبٌ في جلد العالم ، شمسٌ تغيّر القناع والنهاية وتنتحب في عين سوداء . ليكن دورنا ، الآن . نقدر ان ندور اسرع من الدولاب ، ان نحطّم الذرة ونسبح في دماغ إلكتروني ، باهت او متلألىء ، فارغ او مليء ، وان نتخذ من العصفور وطناً . ليكن دورنا ، الآن . ثمة كتاب احمر صغير يصعد . لا الخشبةَ التي اهترأت تحت الكلمات بل هذه التي تتسع وتنمو ، خشبة الجنون الحكيم ، والمطر الذي يصحو لكي يرث الشمس. ليكن دورنا ، الآن . **نيويورك** صخرة تتدحرج فوق جبين العالم . صوتها في ثيابكَ وثيابي ؛ فحمها يصبغ اطرافك واطرافي ... استطيع ان ارى النهاية ، لكن كيف اقنع الزمن لكي يبقيني حتى أرى ؟ ليكن دورنا ، لنرفع الفأس ، الآن . وليسبح الزمن في ماء هذه المعادلة :

نيويورك + **نيويورك** = القبر او أي شيء يجيء من القبر ،
نيويورك – **نيويورك** = الشمس .

X

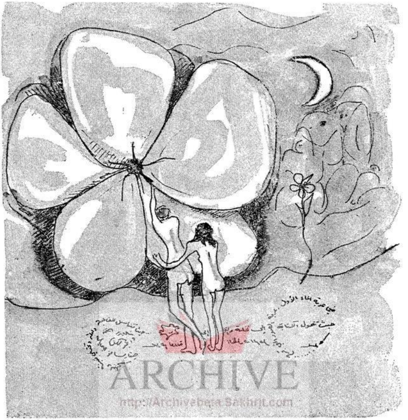
في الثمانين أبدأ الثامنة عشرة . قلت هذا أقول وأكرر ولم تسمع بيروت .
جثةٌ هذه التي توحّد بين البشَرة والثوب
جثة هذه المستلقية كتاباً لا حبراً

جثة هذه التي لا تسكن في صرف الجسد ونحـــوهِ
جثة هذه التي تقرأ الأرض حجراً لا نهراً
(نعم احب الامثال والحكمة ، احيانـــاً :
ان لم تكن مهيّمـــاً ، تكن جثة !)

اقول واكرر ،
شعري شجرة وليس بين الغصن والغصن ، الورقة والورقة الا امومةُ الجذع .
اقول واكرر ،
الشعر وردة الرياح . لا الريح ، بل المهبّ ، لا الدورة بل المدار . هكذا ابطل **القاعدة** ، واقيم لكل لحظة قاعدة . هكذا اقترب ولا اخرج . اخرج ولا اعود . واتجه نحو ايلول والموج .

هكـــذا ،
احمل **كوبا** على كتفيّ وأسأل في **نيويورك** : متى يصل **كاسترو** ؟
وبـــين **القاهرة ودمشق** انتظر على الطريق المؤدي . . .
. . . التقى غيفارا بالحرية . تغلغل معهـا
في فراش الزمن وناما . وحـــين
استيقـــظ لم يجدها . ترك النوم
ودخل في الحلم ،
في بيركيلي ، في **بيروت** وبقية الخلايا ، حيث يتهيأ كل شيء ليصير كل شيء .

هكـــذا ،
بين وجه يميل الى **الماريجوانا** تحمله شاشة الليـــل ،
ووجه يميـــل الى **الآي بي إم** تحمله شمس باردة ،
أجريت **لبنان** نهراً من الغضب ، وطلع **جبران** في ضفـــة وطلع **ادونيس** في الضفة الثانية . وخرجت من **نيويورك** ، كما اخرج من سرير :
المرأة نجمة مطفأة والسرير ينكسر ،
اشجاراً بلا فضاء ،
هواءً يعرج ،



صليباً لا يتذكر الشـوك .

والآن ،

في عربة الماء الاول ، عربة الصور التي تجرح **ارسطو وديكارت** ، اتوزع بـين **الاشرفية ومكتبة رأس بيروت** ، بين **زهرة الاحسان** ومطبعة **حايك وكال** ،

حيث تتحول الكتابة الى نخلة والنخلة الى يمامة

حيث تتناســـــل الف ليلة وليلة وتختفي **بثينة وليلى**

حيث يسافر **جميل** بين الحجر والحجر ، وما من احد يحظى **بقيس** .

لكن ،

سلامٌ لوردة الظلام والرمل

سلامٌ **لبيروت** .

أدونيس

(نيويورك ٢٠ آذار – بكفيا ١٥ ايار ١٩٧١)

(الرسوم لمنى السعودي)

بولس نويّا

تجريد الدين عن الاسطورية

(خواطر حول كتاب « نقــد الفكر الديني »)

بعد أن هدت الضجة السياسية التي أثيرت حول كتاب « نقد الفكر الديني » لصادق جلال العظم يمكن ان نستخلص دلالته بالنسبة الى مرحلتنا الراهنة وذلك بعيداً عن روح المجادلة وفي ضوء بعض الفلسفات الحديثة التي ألقت على الفكر الأسطوري اضواء جديدة تساعد على تقييمه بالنسبة الى الدين والعلم معاً .

رأى كثيرون ان كتاب صادق جــلال العظم سطحي واستغربوا ما سببه من ردود الأفعال ؛ وقرأه آخرون بذعر وهاجموه بعنف معتبرين اياه نوعاً من التهديد لوجودهم الديني . ولقد حاولنا فهم هذين الموقفين فوجدنا في الكتاب نفسه ما يفسّرهما ، لأن الكتاب يمكن أخــذه كشهادة انسانية ويمكن أيضاً اعتباره نهجاً فكرياً . وحسبما أخذته ، تشعر بالسخط او بالاهتمام ، وتعتبره سطحياً او كتاباً هاماً . وهذا ما أود معالجته .

I

الكتاب « كشهادة انسانية » وثيقة ثمينة في صراحته القاسية التي تسمي الاشياء باسمائهـــا ، ومن الواجب قراءته باحترام وتعاطف . فالواقع انه يعكس مأساة الوعي عند الانسان العربي الحديث الذي ينشد الحرية والاصالة في مجتمع متحرر هو كذلك من جميع الاغترابات ومن أنقاض الماضي كلها . هذا الانسان العربي يمارس تطلعه الى الحرية في شكل انفصال عميق يمزق وعيــه . ان المثقف العربي ، كما يبدو من خلال شهادة صــادق العظم الشخصية ، انسان ممزق بين ثقافة يأخذها من الغرب وثقافة يرثها من شرق منغرس في عمق أعماقه . لذا ففي وعيه تتعارض عقليتان ، أولاهما تبدو له منفتحة على المستقبل ويسميها صــادق العظم « الذهنية العلميــة » ، والأخرى منغلقة على الماضي ويسميها « الذهنية الدينية » . وبما ان المثقف العربي لم يكتسب هذه الذهنيــة العلمية ضمن مجتمع حقق ثورته العلمية وضمن ثقافة وطنيــة من طراز علمي أصيل - بل اكتسبها من عالم ليس عالمه فهي ، إذن غريبة عنه - فانه يجد نفســه حائراً ، مرغماً على القيام باختيار جذري . ان دخوله الى عالم الثقافة العلمية ليس في الواقع دخول تحرر أصيل ؛ لذا ينتج صراعاً ضد ما هو في شخصيته اكثر ثباتاً ومقاومة ، اعني ذهنيته الدينية .

تبدو له هذه الذهنية الدينية في ضوء العلم المأخوذ من الغرب ، ذهنية كريهة ، بل انها تتحول

في نظره الى عالم هو عالم الاغتراب بالدرجة الاولى : فهو العقبة أمام كل تقدم وهو علة جميع الشرور التي يكابدها المجتمع العربي . وبما ان هذا الاغتراب قائم كذلك في اعماق وعيه الشخصي، فانه مرغم على رفض الدين رفضاً جذرياً ليسلم العلم وتسلم إلزامات وعيه الخاص الذي يبحث عن وحدته وأصالته. ان المشكلة التي تتردد باستمرار في كتاب صادق جلال العظم والتي تعطي لنقده نبرة شخصية هي في هذا السؤال : « هل يحق لي ان استمر في قبول هذه المعتقدات الموروثة عندما لا تكون منسجمة مع القناعات التي توصلت اليها ، دون ان أخون مبدأ الأمانة الفكرية، ودون ان اضحّي بوحْدة وتماسك افكاري بعضها مع بعض » (ص ١٨٠) . ولئن كانت المشكلة تطرح بهذا الشكل ، فلأن صادق العظم وصل الى النتيجة القائلة بان هناك تعارضاً اساسياً بين الروح العلمي والروح الديني ، بين الذهنية المقتبسة من الثقافة العلمية الغربية والذهنية التي تخلقها المعتقدات الموروثة عن مجتمع يسوده الدين . وهو لا يتجاوز هذا التعارض او لا يتخلص منه الا برفض العالم الديني كعالم مغترب ، في حين انه يلاحظ ان كثيرين من الطلاب الجامعيين ، تلامذته ، يمزقهم هذا التعارض دون ان يتوصلوا الى التوفيق بين العلم والدين او او اختيار الواحد ورفض الآخر ، كما فعل هو نفسه باسم مبدأ الامانة الفكرية.

مهما كانت الحجج الفكرية التي يتولد منها هذا الصراع الذي يعانيه هؤلاء المثقفون ، سطحية، فمن الخطورة ان لا ينظر اليه المفكرون المسلمون او المسؤولون عن الفكر الاسلامي بعين الجد ، او ان لا يأبهوا له الا لكي يصدروا الاحكام لدحض البدعة او ادانتها . ان صادق العظم وامثاله يطرحون على الاسلام ، من الزاوية الوجودية ، السؤال الذي تحتمه الثقافة العلمية الحديثة: ماذا تعني اللغة الدينية حين لا تعود ، بالنسبة الي انا انسان القرن العشرين ، تعني أي شيء ؟ اذ «هل بامكاني ان اجد عزاء في إله جلّ ما اعرف عنه هو انه مهما خطر في بالي من افكار وصفات فهو يختلف عنها اختلافاً مطلقاً ؟ ان وجود مثل هذا الإله ، وعدم وجوده سيان بالنسبة الي » كما يقول مؤلف « نقد الفكر الديني » (٧٢) ؛ ذلك ان لغتي فارغة في الواقع من اي محتوى حين أتحدث عن الله .

طبيعي انني لا أتبنى هذه التساؤلات وسأبيّن علاقتها بالمصادر الغربية وتبلبل اللغة الدينية فيها . لكنني اشير الى خطورة إهمالها ، بالنسبة الى الاسلام او معالجتها بالطرق السلبية بدعوى انها صيغت بطريقة تبسيطية وانطلاقاً من حجج سطحية ليس لها العمق الفلسفي المطلوب .

II

لا شك ان في كتاب « نقد الفكر الديني » تهافتاً في الآراء وكثيراً من السطحية . وهنا أصل الى النقطة الثانية ، اي النظر الى هذا الكتاب من حيث هو نهج فكري . وثمة ، من هذه الزاوية ، تفكك كثير في تفكير الكاتب .

حين نقرأ مقدمته ، نجد انفسنا ازاء تحليل ماركسي لِبُنى المجتمع العربي وهو تحليل يؤكد ضرورة النقد الجذري للبُنى الفوقية التي يفرضها الاسلام على المجتمع كاغتراب يجب التحرر منه . وهكذا ، استناداً الى فلسفة المقدمة ، نتوقع ان نجد ، في الكتاب نفسه ، نقداً ماركسياً للدين. لكننا منذ الأسطر الأولى نواجه مقولات ليس فيها شيء من الماركسية الصحيحة . فالكاتب يميز، في الدين ، بين ما يسميه «ظاهرة روحية نقية وخالصة على نحو ما نجدها في حياة قلة ضئيلة من الناس كالقديسين والمتصوفين وبعض الفلاسفة » (ص، ١٧) من ناحية ، والدين من حيث هو « قوة هائلة تدخل في صميم حياتنا وتؤثر في جوهر بنياننا الفكري والنفسي » (ص ، ١٧) ، من ناحية ثانية ويريد العظم ان ينقد هذا الشكل الثاني من الدين اي الدين من حيث انه يتضمن، كما يقول ، « مجموعة من المعتقدات والتشريعات والشعائر والطقوس والمؤسسات التي تحيط بحياة الانسان في اوضاع معينة ، احاطة شبه تامة ...» بالاضافة الى « القصص والاساطير والروايات والآراء عن نشوء الكون وبنيانه ، وعن الانسان وأصله ومصيره » (ص ، ١٧) .

هل يعني هذا ان العظم يقبل الدين كما عاشته وتعيشه « قلة ضئيلة من الناس كالقديسين والمتصوفين وبعض الفلاسفة » ؟ كلا ! ذلك ان التجربة الصوفية كما ظهرت في جميع الاديان لا تبرهن ، في نظره ، على شيء ، لان الصوفية يتناقضون وتناقضهم يجعل النتائج التي استنتجها الفيلسوف برغسون واهية : « ان تناقض الشهادات الصوفية حول وجود حقيقة روحية تسمى الله وحول طبيعتها واوصافها يجعلني اشك كثيراً في مدى صلاحيتها كأدلة مقنعة وكافية على وجوده » (ص ، ٧١) . الواقع ان ما يسميه العظم تناقضاً ليس الا اختلافاً في التعبير . ولو قارن بين الحلاج والقديس يوحنا الصليبي لعلم ان جوهر التجربة الصوفية واحد من حيث الشهادة حول الكائن المطلق المتجلي لمن يدين « بدين الحب » (ابن عربي) لأن «الحب واحد» كما يقول الحلاج، وما هناك « وجد » الا لانه يصادف « الوجود » . ولئن تجاهل العظم هذه الوقائع فما ذلك الا لأنّ فكرة « الله » مستحيلة في نظر العلم كما تبناه المؤلف. اذ فضلاً عن ان الله لا يجدي نفعاً في التفسير العلمي للعالم ،فإن الايمان بوجوده يؤدي بانسان القرن العشرين الى قبول جميع الخرافات والأساطير التي خلقها الدين ليفسّر نشوء الكون . ولو سُمح لنا بتشبيه للتعبير عن وجهة نظر العظم ، لقلنا انه يفكر على القياس التالي : اذا قبلت بأن حواء أكلت تفاحة في الجنة ، فعلي ان اقبل بما تبقى من الدين كله ، ومن ضمنه وجود الله ؛ كما أنني اذا اعتبرت ان قصة التفاحة والفردوس خرافة ،فان عليّ ان اعتبر جميع المعتقدات الدينية ، ومن بينها الله ، معتقدات خرافية تنتمي الى عالم الاغتراب الذي وضع العلم الحديث حداً لوجوده .

ان في مثل هذا التفكير ، تبسيطاً وسطحية لا يجوزان في حق فكر فلسفي . فالدعوى التي تريد ان تقلّص اللغة الأصيلة غير المغتربة بكاملها في نمط اللغة العلمية ، دعوى لا تقوم على أساس ، وقد نبذها العلماء الحقيقيون انفسهم منذ أمد طويل . ان صادق جلال العظم في تبسيطه هذا ، رهين النزعة العلمية كما عاشها القرن التاسع عشر .وهو اذ يحاول ان يبني عليها نقده للدين، لا يتخطى ما سنسميه مع الاستاذ بول ريكور (Ricœur) المستوى الأول لتجريد الدين عن الاسطورية (Démythologisation) ، اي المستوى الاكثر سطحية لأنه يظل خارج الوقائع .

أضف الى ذلك ان صادق جلال العظم لا ينتقد الفكر الاسطوري او الخرافية الا بانقياده الى خرافة اخرى : خرافة علم يعرف كل شيء ولا يخطىء في أي شيء . ان مفهوماً للعلم كهذا هو مما قبل الفلسفة (Pré-philsophique) ويعوزه الفكر النقدي . فالعلم ، بالمعنى الحديث ، هو طريقة للوصول الى واقع الأشياء ؛ لكنه ليس الطريقة الوحيدة الممكنة ولا هو الطريقة الأكثر عمقاً . ومن يعتبر العلم الطريقة الوحيدة المطلقة للتوصل الى المعرفة الأصيلة ، فانما يخلق عالماً اسطورياً جديداً ويرجع الى الذهنية الخرافية التي هي دون العتبة الفلسفية : تلك الذهنية التي اراد التحرر منها عندما اخذ ينتقد الدين .

لكن مهما تكن القيمة الذاتية للنقد الذي يوجهه صادق العظم للدين ، فان كتابه يفرض على الاسلام ان يجابه بجدّ مشكلات تجريد لغة الدين عن الاسطورية . وهذا ما لم يفهمه أولئك الذين كفّروه باسم الدين . ضمن اي نطاق يستطيع الاسلام ان يسلك سبل هذا التجريد ، لكي يكيّف لغته مع مقتضيات الذهنية العلمية الحديثة ؟ ذلك هو السؤال الذي يتوجب على مفكري الاسلام ومتكلميه المعاصرين ان يجيبوا عنه اذا ارادوا ان يكونوا بالحقيقة معاصرين .

والسؤال ، وان تجددت عباراته ، فهو في مقوماته ، قديم بالنسبة الى الإسلام . فأول ما ظهر الفكر الاسلامي ، ظهر في شكل تفسير وتأويل ، لأن مشكلات تأويل اللغة القرآنية وفهمها كانت في أساس الانهماكات العقلية التي ولدت التفكير الجديد عند العرب . وقد عرف الاسلام ، في الماضي ، التنزيه والتعطيل والتشبيه ، وهي كلها مساع تأويلية للغة . وقد عرف ايضاً نوعاً من التجريد عن اللغة الاسطورية بفضل ما يسمى بالحركة الصوفية . اذ نقد الصوفية لغة القرآن النشورية عندما رفضوا جنة النعيم الجسدي التي يصفها القرآن وصفاً مفصلاً واضحاً . وكان نقدهم مرتكزاً على التمييز بين معنى النص ودلالته الوجودية بالنسبة الى الصوفي . فالمعنى اللفظي القرآني يؤكد بوضوح وجود جنة جسدية . ولكن هذا المعنى الظاهر يصبح « خدعة » في نظر

البسطـامي ويفقد دلالته المباشرة في نظر الصوفي الذي يكتشف ، فيما وراء الجنة الجسدية - «سوق الصور من الرجال والنساء» كما يقول ايضاً البسطـامي - سعـادة روحية هي الفرح برؤية الله . ثمة اذن تأويل يستنـد الى قراءة وجودية للقرآن ، وهي قراءة من المستوى الذي سندعوه مع بول ريكور بالمستوى الثاني من تجريد او نزع اللغة الأسطورية . لنعد الى مثلنا السابق : أن تكون التفاحة التي اكلتها حواء تاريخية او خرافية - فذلك أمر لا أهمية له في نظر الصوفي ، لانه في الحالتين ، لا تتبدل الدلالة الوجودية للقصة . وهذه الدلالة هي ان الانسان لا يتوصل الى معرفة الخير والشر الا باختيار يضع حريته في خطر . وهي دلالة تقوم فيـما وراء الحدود التي تتعارض فيها الاسطورة والتاريخ ، وتبلغ منطقة تصبح فيها الاسطورة اعمق واصدق تعبير عن التاريخ ، تاريخ الحرية الانسانية .

III

ان ملاحظاتنا حول «نقد الفكر الديني» لم تقدنا الى الصوفية والى ضرورة خلق لغة جديدة تلتقي فيهـا الاسطورة والتاريـخ فيما وراء التناقضات الـتي اشكلت على صادق العظم إلا لاننا شعرنا ان ما يحدث بين الاسلام ومثقفيه يتصل بنوع او آخر مع ما حدث في العـالم المسيحي الغربي ، نتيجة لموقف رودولف بولتمن (Bultmann) من التوراة والانجيل .

يمارس بولتمن اليوم تأثيراً واسعاً في الاوساط المسيحية الغربيـة ، كاثوليكية كانت او بروتستنتية ، ولعل تأثيره أخذ يطغى على كل من له صلة بالثقافة الفلسفية الغربية ، لانه خلـق طريقاً جديداً للتفكير الديني كاد أن يكون عالمياً .

اختصر بولتمن فلسفته الدينية في كلمة بربرية اصبحت شعاراً لمدرسته ، وهي كلمـة Entmythologisierung التي ترجمناها « بتجريـد الدين عن الاسطورية » أو ازالة الطابـع الخرافي عن لغة الدين . ماذا يقصد بولتمن بذلك ؟ لا بد ، للاجابة عن هذا السؤال ، من الاشارة الى ان نتاج بولتمن اللاهوتي - الفلسفي يوجه ويسيطر عليـه « هم » واحد يعبّر عنه كما يلي : « ما هي دلالة بشارة المسيح والعهد الجديد كله بالنسبة الى الانسان الحديث ؟ »

السؤال قريب من الاسئلة التي يطرحها صادق العظم وهو السؤال نفسه الذي يقلق اللاهوتيين القائلين « بموت الله » في الحضارة الغربيـة . لكن ، في حين ان الانسان الحديث ، في نظر هؤلاء اللاهوتيين ، لم يعد في امكانه ان يتبنى الانجيل الذي ينتمي الى ثقافة عالم غير عالمنا ، فان بولتمن ، من جهته ، مقتنع بان رسالة الانجيل ما تزال حديثة ، شريطة أن تجرد لغتهـا من الاسطورية ، اي شريطـة ان تفسر بحيث تتجلى ، فيما وراء اللغة الخرافية وعبر التصورات الاسطورية ، دلالة اكثر عمقاً يشعر فيها الانسان الحديث ان كلام الله موجه اليه توجيهاً شخصياً . يقول بولتمن : « هذا النهج في تفسير العهد الجديد الذي يحاول ان يكتشف الدلالة الاكثـر عمقاً ، الكامنة وراء التصورات الأسطورية ، أسميه بتجريد الاسطورية (او ازالة الخرافية) ، وان كانت هذه العبارة غير مرضية ، بالتأكيد ، ارضاء كافياً » (يسوع ، ص ١٩٢)

وهكذا يبدو تجريد الاسطورية ، للوهلة الاولى ، موسوماً بطابـع سلبي محض : اذ تقوم العملية على تعرية كلام الله من ردائه الاسطوري ، اعني من كل ما يمت ، في الانجيل ، بصلة الى ثقافـة قديمة كانت تعبر عن الآخرة بتصورات دنيوية : « الاسطورة تضع السماء في موضوعية الارض » كما يقول بولتمن (يسوع ، ص ١٩٣) . اي اننا مثلاً ، حين نتكـلم على « الصعود الى السماء والهبوط الى الجحيم » فاننا نتكلم لغة خرافية ، اسطورية لم يعد الفكر العلمي الحديث يسمح بها .

هل يعني ذلك ان علينا ان نرفض من الانجيل كل ما لا يقبله الفكر الحديث ؟ ان كثيرين لم يفهموا موقف بولتمن الا بهذا المعنى . ولهذا انتقدوه بشدة كما فعـل كارل بارت K. Barth الذي هاجم بعنف آراء زميله الهدامة ، آخذاً عليه اخضاعه كلام الله لذوق الانسان الحديث ، هذا الذوق العابر الخادع .

والحق أن مناهضة هؤلاء اللاهوتيين لبولتمن نجمت ، كما يلاحظ ذلك بعمق الفيلسوف بول ريكور ، من عدم فهمهم ان تجريد الاسطورية عملية تفعل على مستويات ثلاثة من العمق ، ومن انهم اخطأوا في تفسير مقاصده حين لم يعرفوا ان يميزوا في كلامه ، ما يتصل بكل واحد من هذه المستويات . وقد سبقت الاشارة الى هذه المستويات الثلاثة ، ولو تأملها مؤلف « نقد الفكر الديني » لأعطت لفكره عمقاً ايجابياً وساعدته على التخلص من النزعة العلمية كما عرفها القرن التاسع عشر ، فما هي هذه المستويات الثلاثة ؟

١ ـ على المستوى الاول المتسم بالسطحية لأنه لا يمس الاشياء الا من الخارج ، تتم عملية تجريد الاسطورية باسم الانسان الحديث ، اعني حسب مقتضيات الروح العلمي والتقني الحديث . ففي هذا المستوى يعتبر من باب الاسطورة ويرفض كلما يتعلق، في لغة الانجيل، بالتصور الكوسمولوجي للعالم . يقول ريكور : « ان تصور عالم منقسم الى سماء وأرض وجحيم ومسكون بقوى غيبية تهبط من عالم آخر الى الدنيا ، تصور ألغاه العلم والتقنية الحديثان إلغاء تاماً باعتباره تصوراً لا طائل تحته » . ذلك ان الاسطورة تلعب في هذا التصور وعلى هذا المستوى دور تفسير علمي للحوادث ليس هو من العلم بشيء ولم يعد يصدقه انسان القرن العشرين . فلم يعد أحد يؤمن بان كسوف الشمس نتيجة تدخل ارواح شريرة. فعلى هذا المستوى يتحقق تجريد الاسطورية بان نحل التفسير العلمي محل الخرافة كتفسير كوسمولوجي قبل ـ علمي . ولو عاد القارىء الى كتاب صادق جلال العظم لوجد ان نقده للدين لا يتعدى هذا المستوى الاول وان التناقضات التي يكتشفها بين الدين والعلم هي بالحقيقة تناقضات بين علم ـ لا ـ علمي دخل على الدين ، وعلم صحيح . ولو عاد ايضاً القارىء الى الكثير من اسباب النقد التي أثارت الغضب على صاحب « نقد الفكر الديني » لوجد ان مصدرها الالتباس بين لغة العلم ولغة الاسطورة واحلال هذه محل تلك : الشيء الذي كان قد نبّه اليه ، قبل قرون ، العالم الفيلسوف ابو الريحان البيروني اذ يتكلم على « كثير من الناس ممن يعير علم الله ما جهلوه من علم الطبيعيات » .

٢ ـ وفي المستوى الثاني تنعكس الحال ، فتظهر الاسطورة حاملة معنى هو أكثر اهمية لفهم الوجود الانساني من المعنى الذي يعطيه التفسير العلمي . في هذا المستوى، لا تقوم عملية تجريد الاسطورية على رفض الاسطورة كنتاج للتصور ما ـ قبل ـ العلمي ، بل على تفسيرها ، اعني ان نكتشف في التصورات الموضوعية للاسطورة دلالتها الوجودية المؤدية الى فهم وجود الانسان فهماً صحيحاً . يقول بولتمن : « ان ما يجب أن ندرسه في ميتولوجية العهد الجديد ، ليس المحتوى الموضوعي للتصورات ، منظوراً اليه بحد ذاته ، بل المفهوم الوجودي الذي يتجلى فيها » . هكذا تعمل مدرسة فرويد (Freud) في تفسير الاساطير التي اتت الى الوجود كأول تعبير للتجربة الوجودية التي وعاها الانسان ، وهكذا يجب ان يعمل أهل الدين اذا ارادوا ان يرفعوا لغة كتبهم الاسطورية الى مستوى تظهر فيه الاسطورة حاملة معنى وجودياً اقرب الى العمق من لغة العلم . فمثلاً ، في ظاهرة ظهور الملاك جبريل وبشارته العذراء مريم ، ليست العناصر الموضوعية هي المهمة لأن هذه العناصر لا يمكن الا أن تكون خرافية في نظر الروح العلمي الحديث . انما المهم ، حسب بولتمن ، هو دلالتها الوجودية بالنسبة الى انسان اليوم ، تلك الدلالة التي تظهر في موقف مريم إزاء نداء الله . ان العلم لا يقدر ان يشكك في هذه الظاهرة من حيث علاقتها بالوجود : ذلك ان العلم ينحصر في الإطار الذي تحدده الاسباب والمسببات الطبيعية الفيزيائية ، ولا يقدر ان يكشف لي اي شيء يتصل بالهم الجوهري لوجودي وبالمعنى الأخير لهذا الوجود . ان للعلم خداعاً ينقلب فيه الى خرافية يجب ان نفضحها كذلك ، بغية الوصول الى فهم فلسفي للرسالة التي تحملها الاساطير الدينية . هذا ما لم ينتبه اليه صاحب « نقد الفكر الديني » وما لم يفهمه كثيرون ممن نقدوا بولتمن .

٣ ـ وهناك مستوى ثالث لتجريد الاسطورية فيه تبدو ازالة الخرافية ، في نتاج بولتمن ، مستندة الى لغة التوراة ، بل تبدو وكأنها منبثقة من هذه اللغة ذاتها . فلئن كانت لغة التوراة ، بالنسبة الى بولتمن ، خرافية في جزء كبير منها ، فانها كذلك ، في نواتها الاساسية ، لغة تجريد الاسطورية. اذا قارنا ، مثلاً، التوراة بالتراث الديني السومري ـ البابلي ، نجد ان ازالة الخرافة تبدأ في الصفحة الاولى من التوراة ، في قصة خلق العالم، حيث يتجلى فعل اله شخصي يخلق من العدم عالماً منفصلا

عنه انفصالاً جذرياً . ويمكن القول ان شهادة التوراة بوحدانية الله تنزع بشكل جذري صبغة الخرافة عن تصورات الالوهة في العالم القديم . كذلك الامر في العهد الجديد : فهو يزيل الصبغة الخرافية عن عقيدة النشور اليهودية . ذلك ان الأزمنة الآتية ليست ، في نظر القديس بولس ، قائمة في مستقبل هو موضوع تصورات مستقبلية فحسب ،فإن هذه الازمنة قد بدأت في الحاضر ، في الآن الراهن للمسيح . العالم المقبل هو ملكوت الله « الموجود بينكم » كما ورد في الانجيل ، فهو ليس اذن ملكوت «الغيب» بل ملكوت الحاضر المتجلي فيه مستقبل الانسانية .

هذا يعني ان الكتب الدينية قد وضعت الاسس التي تسمح للفكر المعاصر ان يقتحم عملية تجريد الاسطورية في لغة الدين دون المساس بجوهر الدين الحقيقي. ومن هذا المنطلق جاء حل بولتمن لأزمة اللغة الدينية في الغرب ـ هذه الازمة التي ولدها البعد الحضاري بين عالم الانجيل وعالمنا الحديث ـ حلا وسطاً بين المحافظين والمبشرين « بموت الله ».

ولعل في موقف الصوفية من الاسلام شيئاً يشابه موقف بولتمن ، على الاقل فيما يخص المستوى الثاني من التجريد اي التفسير الوجودي للغة الدين الاسطورية . الفرق بين التفسير الوجودي والتفسير المادي ـ كما مارسه الاسلام حتى الآن ـ هو بالواقع وبالمعنى الاعمق ، الفرق بين اللغة الرمزية واللغة الخرافية . اللغة الرمزية ترتكز على التمييز بين المعنى والدلالة او تقتضي ذهنية لا ترى الاشياء او تقرأ النصوص على مستوى سطحي واحد ، بل ترى لها اعماقاً وراء اعماق ، ومعاني وراء معان ، بحيث تنتقل من مستوى الى مستوى آخر حسب مقتضيات الزمن الوجودي الذي يحياه المفسر . اما اللغة الخرافية ـ التي لم تخضع للتجريد ـ فهي اللغة التي تخلط بين الدين والعلم فتجعل علماً ما هو دين وديناً ما هو علم . او بعبارة أعم ، هي اللغة التي تحصر كل اللغات في المعنى المادي للغة الدين فلا ترى امكانية الخروج من التفسير الحرفي للكتب الدينية .

ان الاسلام قد رفض الصوفية في الماضي وانكر عليهم جهدهم في تجريد لغة الدين من الاسطورية اي جهدهم في خلق لغة رمزية تساعدهم على فهم القرآن فهماً وجودياً .

فماذا ، يا ترى ، سيكون موقفه ازاء المحاولات المعاصرة لازالة الخرافية التي تحتمها ثقافتنا الحديثة وكما أخذ بعض المثقفين العرب يطرحونها ؟ ليس لغير المسلم ان يجيب عن هذا السؤال ولكن التاريخ يفهمنا ان الحوار مع اللاهوتيين المسيحيين يمكنهما ان ينتهي الى ما يفيدالاسلام المعاصر . ان غنى الفكر الاسلامي الديني فيعصور الاسلام الاولى كان وليد انفتاحه على العالم المحيط به وحصيلة ما عرف ان يستخلصه من لقائه مع مسيحيي دمشق وبغداد . واليوم كذلك يستطيع الاسلام ، بفضل انفتاح مماثل ، ان يحيي فكره الديني الذي توقف كلياً عن العطاء الخلاق . ان الاسلام يجابه المشكلات ذاتها التي تجابهها المسيحية الغربية ، بقدر ما توشك الثقافة العلمية الغربية ان تصبح ثقافة العالم الشاملة،وبقدر ما تشطحالفلسفات الغربية على عالمنا الشرقي. وليس المستقبل في رفض هذه الثقافة وهذه الفلسفات ، بل في الحوار معها على مثال الحوار الذي قام بين الفكر المسيحي وفلسفة هيدجر الوجودية فكانت نتيجتها الطريقة الجديدة في التفكير الديني التي خلقها بولتمن .

لقد حاول صادق جلال العظم نوعاً من هذا الحوار بين العلم والدين على صعيد فلسفي،ولكن عدم نجاحه يبرهن على ان الاسلام في وضع اصعب من المسيحية ازاء الثقافة الغربية. فبينما ينتمي، في الغرب ، العلم والفلسفة واللاهوت الى ثقافة واحدة هي الثقافة الاوروبية ، نجد انفسنا ، في الشرق ، ازاء ثقافة علمية ـ فلسفية دخيلة ، تحمل في ذاتها جميع التناقضات وجميع الصراعات التي يولدها بشكل عام نقل الثقافة من وسط الى آخر *.

بولس نويّا

(بيروت)

* الاب بولس نويّا اليسوعي ، دكتوراه في الفلسفة ، استاذ في جامعة القديس يوسف ، بيروت . مقاله ، هنا ، خلاصة محاضرة ألقيت بالفرنسية في « دار الفن والادب ».

ريمون طحان

الثوابت في اللغة والفكر :
بحث في العلاقة بين اللغة العربية والفكر العربي

اللغة من أعرق مظاهر الحضارة الإنسانية وقد سبقت الى الوجود عصر الحجر والنار وبما أنها حلقة في سلسلة النشاط الانساني وجزء من السلوك البشري فهي تصنف مع العلوم الانتروبولوجيه التي تعالج أشكال البشر وأعراقهم وأجناسهم وسبل عيشهم . إن اللغة ظاهرة عامة تتجلى في كافة المجتمعات الانسانية وهي تبين كلاً من تلك المجتمعات على حقيقته وهي تصلح كمعيار لتحديد خصائص جماعة معينة فتكون العلامة التي بها تعرف والسمة التي بها تميز .

تحدد أسباب تاريخية واجتماعية وجمالية وغيرها نوعية اللغة وتسهل دراستها، كما أن الأسباب المنطقية والفلسفية الخفية تجعل من اللغة مبحثاً يهتم ببنيانية الفكر structuralisme ويتعرف على كيفية تحركه وعمله وخضوعه لأنظمة خاصة وقوالب معينة وإن كانت العوامل التاريخية والاجتماعية والجمالية تتصرف في أساليب اللغة فهناك عوامل منطقية وذهنية وفكرية وعقلية تدفع الفرد الى الخضوع لبنيانية اللغة وتصبح القوالب الفكرية الخفية قوالب لغوية بارزة ، وتصبح اللغة مظهراً من مظاهر الفكر المعبر،والبنى اللغوية من ثوابت التفكير، فتستقر اللغة في ذهن الذي يتكلم بها على وجه يجعلها ملكة أو ما يشبه الملكة ، وترسخ بناها وهياكلها في ذهنه وكأنها احدى السجايا الفطرية ويجري فكره على سننها الثابت وأسسها العامة وقواعدها الكلية .

كشفت الابحاث العلمية الحديثة عن صلة اللغة بعقلية الأقوام ومنطقها وبيّنت أن اللغة أساس مختلف أنواع النشاطات الثقافية وخير دليل يهتدي به الباحث الى ثوابت الفكر والتفكير. لا يرى المرء الكون إلا بواسطة اللغة ولا يفهمه إلا بالنظرة التي تحددها له لغته فيعبر عنه بقوالب لغوية معينة – تتألف اللغة من بنى تنفرد بها وتميزها عن سواها وتفرض هذه البنى على المرء هياكل فكرية تتيح له تحليل ما يحيط به وفق الخطوط التي ترسمها له لغته فهو يحتفظ بظاهرة قد تتغاضى عنها لغة ما أو يهمل ظاهرة قد توليها لغة أخرى أهمية كبرى. يشرّح المرء الوجود ويقسمه بموجب مقولات أو زمر أو فئات خاصة تبعاً لبنى فكره وقوالب منطقه التي تحول تجاربه العملية الى رموز فكرية وذهنية تخضع لنواميس ثابتة فتتكيف في صيغ معينة وتنتظم في بنى مألوفة. لا شك في ان عمليات الفكر المجرد تتم في بنى عميقة ولكن هذه لا تظهر إلا بواسطة البنى السطحية التي تقوم بدفع بنى الوجدان العميقة الى السطح فتصبح هذه البنى محسوسة فتتحول اللغة في الآن نفسه الى تنظيم قائم في أفكار المنتفعين به وذاكرتهم والى نظام قائم بحد ذاته أو بنيان صرف.

ونحن الآن أمام المجموعة العربية التي تجلّت فيها ظاهرة لغوية معينة ونريد موضوعياً دراسة تلك القوالب او الهياكل المشتركة القائمة كالثوابت في اللغة والتفكير العربيين لنبين أن التعرف على البنى اللغوية يؤدي حتماً الى التعرف على بنى الفكر والتفكير وأن تطابقاً وتماثلاً تاماً يحدث بين هياكل اللغة وهياكل الذهن.

البنيانية

اعتبرت البنيانية اللغة كتنظيم يخضع لقوانين الشمول والانسجام والاقتصاد. فاللغة تنظيم وهيكل وبناء وجسم متعضٍ. يتكون الجسم المتعضي من وحدة كاملة الاجزاء يقوم كل جزء منها بوظيفة حيوية تسهم في بقائه وحفظه واستمرار عمله. وتتكون اللغة هي ايضاً من جسم متعض أو من هيكل يتضمن بنى معينة متراصة ومتكاملة لولاها لما استطاعت أن تصبح تنظيماً بل لكانت عناصر متفرقة ومتنافرة. تخضع اللغة الى نظام خاص تقوم الوصفية باظهار مجموعة عناصره التي تتعامل وتتفاعل بشكل ذاتي وتلقائي دون اللجوء الى عناصر

غريبة . تتألف كل لغة من تنظيم فونولوجي اي من كمية من الفنيمات تجتمع وفق نسق معين لتصبح كلمات ،ومن بنى صرفية وتصريفية ونحوية، ومن انظمة جملية تؤدي المعنى المقصود. لا لغة إلا ببنيانية خاصة،وما يميز لغة عن أخرى هو نوعية هذه البنيانية فدراسة شكل تنظيم اللغة العربية او بنيانيتها يظهر المميزات الخاصة التي تحدد كيانها ووجودها .

ما هي المعايير والمقاييس التي سوف نعتمدها عندما نحاول تحديد المميزات التي تفصل المتماثل عن المتخالف، والشبيه عن المغاير،والمتوافق عن المتناقض؟ نعتمد لمقارنة كميتين وحدة مشتركة تظهر العلاقة الرياضية القائمة بينهما وتحدد هذه الوحدة التماثل والتخالف ودرجتهما ومقدارهما ،فتكون هناك عتبة هي بمثابة حد يفصل الشبيه عن نقيضه . ان تلك العتبة ضرورية لوضع أسس نظام يمنح الاشياء هويتها ويحدد حيزها المكاني والعلاقات التي تربطها بغيرها، فتصبح عملية ضبط هوية شيء معين ميسورة، إذ نستطيع إما أن نصنفه بالنسبة لمجموعة معينة وإما أن نحلله الى عناصره فيظهر على جليته وحقيقته . وبما أن اللغة وحدة قائمة بذاتها تتألف من أجزاء متباينة تؤلف بناء متجانساً وجب اللجوء الى العلوم اللغوية فقط لتحديد مبدأ التخالف والتشابه ولتعريف المميزات التي تحتفظ بها اللغة والتي تصبح علامات فارقة تفصل مثلاً المذكر عن المؤنث والمفرد عن الجمع والمعرفة عن النكرة الخ ...

ترتبط المميزات بوظائف معينة وكلما قامت الوظيفة بدور هام حاسم جازم، ظهرت متواترة . وتعود أهمية التواتر إلى دور الوظيفة الرئيسي وهو شبه اقرار بسيطرة الوظيفة وشمولها وفعاليتها . وقد لعبت الوظيفة دوراً هاماً في البنيانية وأخذت بها اكثر المدارس البنيانية التي قرنت المميز بعمله الوظيفي. لا مميز دون وجود وظيفة معينة له ولا وظيفة دون وجود هيكل يتألف من أعضاء وعناصر مختصة ومسؤولة عن تأمين الأعمال وفق اختصاصاتها .

قد تكون الاعضاء ظاهرة وقد يسهل تفحصها والنظر في وظائفها كما أنه قد تكون الأعضاء ووظائفها خفية فيصعب تفحصها ومشاهدتها ففي هذه الحال يجب استنباط ما يحدث في الخفاء واستقراء ما يجري في الستر فليست المميزات اللغوية مثلاً صوراً فوتوغرافية عن الواقع بل هي رموز لجأت اليها اللغة لتعبر

عن مفاهيم معينة يتحسسها المتكلم أو عن أنظمة جامعة شاملة لا يعيها إذ يعمل فيها ما فوق الضمير مقارنة وموازنة ومماثلة .

يسعى العلم الصحيح الى العام والشامل ، ويبتعد عن الخاص والعارض ، ولا تصنف الأشياء إلا باكتشاف عناصرها البسيطة وقد لا تظهر هذه العناصر ما تنطوي عليه من تشابه وتباين وتماثل وتخالف ،ولذا يجب في هذه الحالة اللجوء الى التحليل والتركيب بغية الوصول الى قواعد ثابتة مطردة تؤدي الى تصنيف تتسلسل اجزاؤه في شبكة كاملة أو لوحة شاملة ، نستقرىء منها المميزات التي فصلت المتشابه عن المتخالف والمتجانس عن المتباعد . ان مراقبة الظواهر المعقدة ولربما المضطربة تتيح لنا ، عندما نتقيد بواقع الأشياء ونستقصي أحوالها وننظر بامعان في أوصافها ، التوصل الى عملية تعميم تبتعد عن الخاص وتهتم بالشامل . ولئن كانت اللغة تظهر لأول وهلة وكأنها تستعين بتنظيمات متعددة لاحصر لها فانها في الواقع تسلك طرقاً مألوفة وتخضع لقوانين عامة ولسنن ثابتة. قد تختفي ثوابت اللغة العربية في طيّات التفكير ولكن الدراسة المستوعبة تصنف خصائصها وتحدد قوالبها وتعرف بناها الأساسية بغية الوصول الى هياكل الفكر وثوابته . يصوغ المنطق العربي مثلاً قوالبه على شكل مثلثي يظهر بصورة رتيبة في علوم الأصوات والمفاهيم والصرف والنحو . فالتوزيع الثلاثي خاصية تلقائية وأساسية تهيمن على اللغة العربية .

الثوابت (les constantes)

الثوابت الصوتية : تتألف اللغة من أصوات تجتمع لتعبر عن الأشياء الحسية والأفكار المجردة . ويتبين لنا من استقراء وحدات اللغة العربية الصوتية أنه لا يزيد عددها عن الثلاثين وهي تعالج على ضوء علمي الصوت (phonétique) والفونولوجيا (Phonologie) .

يصف علم الصوت الآلة المصوتة ووقائع الأحداث الصوتية ، اي مخارج الحروف وكيفية التلفظ بها وانتقالها من المتكلم الى السامع . ويظهر جلياً من دراسة اللغات السامية أن معظم اصواتها الصامتة تنتظم في مثلثات ستة تتكون رؤوسها من صوت مهموس ومجهور ومطبق . احتفظت اللغة العربية بكثير من

عناصر السامية الأصلية الصوتية وقد أسهم علم الصوت التطوري في بيـــان التغيرات التي تطرأ على تنظيم صوتي معين والتي تؤدي الى ازدياد أو نقصان يقـع في عناصره، ولكنه أقر بوجود مثلثـــات لا تظهر فقط في توزيـع الحروف

مهموس		ت		ث		س		ك
مجهور	مطبق	د	ط	ذ	ظ	ز	ض	g (français)	ق

الصامتة العربية مثلاً بل تظهر ايضاً في توزيـع الحروف المصوتة .

يبدو أن اللغة السامية الأم اعتمدت تنظيماً مصوتاً بسيطاً يتألف من ثلاثة أصوات قصيرة أو ممدودة . وقد ورثت اللغة العربية هذا التنظيم البسيـــط وحافظت عليـــه وأطلقت اسم الحركة على المصوتات القصيرة، واسم المد على

ضم ا

المصوتات الطويلة ويظهر هنا ايضاً التوزيـع الثلاثي

فتح كسر و ي

كغريزة متأصلة في التفكير العربي .

اعتبرت الفونولوجيا ان التنظيم الصوتي يؤلف وحدةمتعضية متكاملة ترتبط اجزاؤها بعلاقات مشتركة ووشائج معينـة، وحددت عدد الأصوات وكيفية توزيعها على التنظيم وفق وظائفها الدلالية . لا تلجأ اللغة إلا الى عدد محدود من الفنيات (phonème) ولا تستعين إلا بوحدات صوتية صغرى تتحلى بمزايا فريدة . أولت الفونولوجيا اهتماماً خاصاً لمفهوم المتطابقـات والمتخالفات ولتوزيعها على التنظيم، ولجأت الى الوصفية الصرفة لتحديد دور التوافـق والتخالف اللذين يحصلان على مستوى المحتوى والتعبير او المعنى والمبنى . ان ادنى طارىء يطرأ على أحدهما يؤثر على الآخر فالفنيات تحدد الشكل أو المبنى الذي بـــدوره يؤدي الى معنى معين وهكذا تعيّن الفونولوجيا الدور الذي تلعبه الفنيات لدى قيامها بأعمال وظيفية وضبط عدد المتطابقات والمتخالفات وتحديد امكانيـة تنوع المعاني وفق خصائص ومميزات صوتية .

لن نبين في التفصيل تنظيم اللغة العربية الفونولوجي، بل سنكتفي بذكـر خصائصها . فهي تتعامل بواسطة تنظيم يضم ٢٦ فنيماً، تعود الى مواضع صوتية، (وهي تختلف عن مفهوم مخارج الحرف الشائع في علم الصوت) وترتبط ببعضهـا بعضاً وفق ثلاث علاقات : علاقة ضغط يبدو أنها تتوفر مع وجـود المجهودات

وعلاقة اطباق وتفخيم وعلاقة غُنّة انفية[١] . وتظهر بالاضافة الى هذه العلاقات الفونولوجية علاقات أخرى تعود الى العلم عينه وتنتظم في مثلثات نذكر منها مثلث الحروف المصوتة القصيرة والممدودة (عاد – عود – عيد) والمدّ والشدّ وفك الشد (مال – ملّ – مللَ) . ويجمل القول ان التلاعب بمثلثات الفنيات يؤدي الى اختلاف في انتقاء الأصوات وبناء هيكل المفردات ومادتها الأصلية فينتج حينئذ اختلاف في معانيها .

ولئن كان علما الصوت والفونولوجيا يشكلان مادتين صوتيتين مختلفتين بعض الشيء فهما بالفعل تتكاملان . جاء علم الفونولوجيا فجدد الدراسات الصوتية واستغنى عن الالتواء والتعقيد وكان علم الصوت قد ابتعد عن الابانة وعن ايضاح الحقائق العلمية ، والتزم مبادىء قد عاش عليها واستثمرها العلم التقليدي. فأعادت الفونولوجيا الاعتبار الى علم الصوت وطبقته على العلوم الألسنية فأحرزت نتائج ملموسة . بيّن علما الصوت والفونولوجيا ان الانسان يميل بالفطرة الى تمييز الوحدات الصوتية والى تنظيمها في مفردات وكلمات يحورها فنيم واحد (بال ، خال ، جال ، صال ، دال ، عال الخ ..) إن وراء الأوضاع الحالية اللاشعورية تنظيماً داخلياً قاهراً ودافعاً خفياً يكشفان الغطاء عن عقلية مفطورة تتقيد بشكل لاشعوري ببنيانية فريدة وخاصة .

الثوابت المفهومية : إن اللغة العربية أداة طيعة وحقل دراسات ناجح للنظريات البنيانية فهي لغة الأحرف التي تخضع لنظام رياضي متكامل . تتيح البنيانية دراسة الوحدات الصوتية التي تتداخل لتؤلف المفردات . فالبحث في بنية الكلمة يؤدي الى النظرة في الفنيات والمقاطع الضرورية للمفردة الواحدة والى تحديد عددها ودرجة تواترها . ان المعنى لا يرتبط بالمبنى بمفهومه التقليدي إلا بشكل اعتباطي . انتزعت البنيانية الأدران والشوائب التي لحقت المفردات من جراء الربط المباشر بين الاسم والمسمى والدال والمدلول واستعاضت عنها بحقيقة علمية بينت ان التنظيم سبق الى الوجود الاحساسات والحركات والكلمات والمفردات والتعبير فان النواميس والقوانين السائدة على العقلية هي التي أوجدت ثوابت اللغة .

---

١) لطلب الاستزادة انظر :
Etudes de lingnistique arabe, Mémorial Jean Cantineau, Paris 1960 - 299 p.p.

يظهر من استعراض حقل المفاهيم العربية ان هـذه تتألف من ثلاثة حروف صامتة، تحصل بتجمعها على فكرة عامة حسية . ويتخذ الهيكل الثلاثي الحروف الأصلي أجساداً وأشكالاً وصيغاً تعود رغم اختلاف معناها الى الفكرة الأساسية المشتركة . وتتحقق المعاني الجديدة في مفردات تتبـع في صوغها قواعد معينـة جامعة شاملة .

عرفت العربية مفاهيم تعود الى أصول غير ثلاثية ولكن البنى العربيـة ترتكز غالباً على أصول ثلاثية تعدل ما هو غير ثلاثي وتدخله في صميم التركيب المورفولوجي العربي السائد والشائع . تنطلق معظم الكلمات العربية الشائعة او الكامنة من مرتكز بنياني أساسي هو الأصل الثلاثي . لا تتعامل اللغة العربية بالعدد الهائل من الأصول الكامن فيها وقد يحد من فعالية المفاهيم المثلثة الأحرف مبدأ الشيوع والاستعمال، وذلك كاستنباط أصل ثلاثي من (ع ض خ) عضـخ (يتألف هـــذا من حروف لا تتنافر وقد استعملت في خضع ولكنّ عضخ لم تعرف حتى الآن الشيوع والاستعمال) كما أنه يحد من فعالية الأصول الثلاثيـة مبـــدأ التنافر الصوتي . وقد أشار ابن فارس الى هذه الظاهرة وطرح بصورة عرضية وقبل ألف عام مشكلة عدم تآلف أحرف الشفة في المفـــردة

الواحدة اي ب . م . ف وقال : « الباء من حروف الشفة ، ولذلك لا تأتلف مع الفاء والميم — أما الفاء فلا تقارنها باء متقدمة ولا متأخرة — وأما الميم فلا تتقدم على الباء ملاصقة لها بوجه ومتأخرة... » (**الصاحبي** — صفحة ١٠٤ ، طبعة بدران بيروت ١٩٦٤). وقد تكتفي اللغة العربية بعدد صغير من الجذور (٣٠٠٠) تقريباً يتم بموجبها وضع معظم الكلمات العربيـــة التي تتولد غالباً من أصول ثلاثية في إحداثيتين ثابتتين ، هما احداثية مزيدات أفعال الجذر الثلاثي، واحداثية المشتقات الخاصة بالاسماء والصفات . وكلما تقاطعت الخطوط المنبثقة عـن الاحداثيتين تولدت مفردة ، ان معظم الكلمات في اللغة العربية ينشأ إذاً عـن أصول ثلاثية (ثلاثة حروف صامتة وغير مصوتة) هي حجر الزاوية في بنيانية العربية . وهكذا تضحي بنيانية المفردات التي كانت وسيلة بسيطـة لدراسة تنظيم ميكانيكي آلي أداة لتفحص قوالب الفكر والمفاهيم وللوصول الى خصائص ذهنية متأصلة في العرب .

الثوابت الصرفية النحوية : تحدث في الأفعال والأسماء تحولات حركيـة

أو أحرفية تعود دراستها الى علمي الصرف والنحو وتظهر هـذه التحولات بواسطة مميزات رتيبة تخضع لتنظيمات معينة . تلحق هذه المميزات عادة الأفعال والأسماء العربية على حد سواء ويتم توزعها على شكل تنظيمات ثلاثية :

بعض مثلثات الصرف :

اسم مفرد قريب ماضٍ متكلم

فعل حرف مثنى جمع متوسط بعيد مضارع أمر مخاطب غائب

بعض مثلثات النحو :

رفع ضم رفع ضم

نصب جر أو خفض فتح كسر نصب جزم فتح تسكين

ا

وجود حذف

و ي

يقوم المميز بدور مزدوج تعود دراسته الى علمي الصرف والنحو . وقد تشتبك في المميز الدلالات الصرفية والنحوية. وقد يكون من الأفضل وصف المميز بأنه صرفي ـ نحوي (morpho - syntaxique) . كما أن تكرار المميز في أواخر الكلمات يجمع شملها ويظهر الوشائج والعلاقات التي تقوم بينها عندما تتآلف في جملة مفيدة . وتبين دراسة المميز اشتباك الظواهر الصرفية ـ النحوية بالظواهر الدلالية ويؤمن المميز وظائف صرفية ـ نحوية ووظائف دلالية بحتة وقد تظهر وظيفته الدلالية على شكل رموز جبرية (مؤمن ، مؤمن + ان = ٢ ، مؤمن + ون = ٣ أو أكثر ، هنا + **ك** = متوسط ، هنا + **لك** = بعيد ، كتاب + **ي** = متكلم ، كتاب + **ك** = مخاطب ، كتاب + **ه** = غائب) . وقد تظهر وظيفته البنيانية على شكل رموز توزع الكلمات وتعيدها الى اصحابها الذين يشتركون في المجموعات الجملية .

تكرار المميز وكشف هوية الكلمة : إن تكرار المميز عملية ضرورية لكشف هوية الكلمة التي قد تحجب عنا بفعل عطالة التنظيم الألسني (سافرت اليوم هند تبحث عن ... ؛ أخذ الجواري يغنين ...) فالمميز الذي اختفى في سافر وأخذ، وظهر في تبحث ويغنين، والذي سيتكرر في اغلب مفردات النص العائدة الى هند والجواري ، يساعد على تحديد هوية الكلمة .

تتجلى ظاهرة المميز الدلالية في اللغة المكتوبة أكثر مما تتجلى في اللغة المحكية ولذا يرتفع عدد المميزات في اللغة المكتوبة ويفوق عدداً ما هو عليه في اللغة المحكية (المعلمين (مثنى) اجو ؛ النسوان اجو ؛ الرجال اجو)

تظهر بعض الخلافات بين مميزات الأفعال ومميزات الاسماء ولكنها تبدو طفيفة اذا قورنت بتلك التي تشترك في هذين النوعين من الكلمة (وجود التاء المدودة في الفعل الماضي أخذت مثلا على غرار بنت وأخت ، ووجود تاء التأنيث في أول المضارع ؛ فروق طفيفة ؛ جاء المشتكيان يلتمسان ... أخذ المجتهدون يطالعون : مطابقة تامة) ولذا نستطيع ان نجزم ان الفرق طفيف بين مميزات الاسماء والأفعال في اللغة العربية وان هذه المميزات تكون مشتركة وتصلح للاسم والفعل معاً وقد تتضاءل الشقة بين الفعل والاسم في الدراسات البنيانية الصائبة التي تأخذ بعين الاعتبار الاسماء العاملة عمل الفعل (المصادر ، الاسماء الفاعلة ، الاسماء المفعولة الخ...) التي تكون الحلقة المفقودة التي تربط الاسم بالفعل بواسطة سلسلة غير منقطعة .

المميز وترابط أجزاء الجملة : يقوم المميز أولا بوظيفة كشف هوية الكلمة ، ويقوم ثانياً بربط اجزاء الجملة وبضمها في نسق متساوق .

تؤدي عودة المميز في أواخر الكلمات الى تبعية نلاحظها بشكل جلي ومحسوس عندما يطابق النعت منعوته في التذكير والتأنيث والتعريف والتنكير والأفراد والتثنية والجمع وحركات الاعراب ، وتلعب هذه المطابقة دوراً رئيسياً في توثيق عرى الجملة وفي جمع اجزائها فيؤلف المميز اللحمة البنيانية أو الرابط التنظيمي الذي يؤمن متانة التركيب ويبعده عن كل لبس (دراسة لحمة التذكير ومميزاته في « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوات ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون» **سورة البقرة** – مقارنة لحمة ما سبق بما يلحق وتعيين دور مميزات التأنيث في « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً » – **سورة التحريم**

بعض المميزات الصرفية ـ النحوية :

يعود مفهوم العدد والتعداد الى عقلية المجتمع وتقوم اللغة العملية تحديد النظر في الكميات . تقسم اللغة الفرنسية مثلا الوحدات المجتمعة في كمية حسب

تنظيم ثنائي (مفرد وجمع) فالمفرد هو في اللغة الفرنسية ما يدل على الواحد، والجمع هو ما يدل على أكثر من واحد وهناك لغات تتبع انظمة رباعية (مفرد ، مثنى ، مثلث ، جمع) أو خماسية وغيرها . انعكست في اللغة العربية الظاهرة التثليثية (مفرد ، مثنى ،جمع) واصبحت من ثوابت الفكر والتفكير وأخذت مميزات خاصة تلحق المثنى والجمع وقد حدث قديماً وحتى في القرآن الكريم تردد في حكم لواحق المثنى اذ جرى تعريف الجمع بأنه يدل على اكثر من واحد فدخلت من جراء ذلك لواحق بعض الكلمات المثناة في حكم الجمع ، وقد تحوم العقلية العربية حول نظرية التثليث وتجد لها قوالب قد تختلف عن الافراد والتثنية والجمع فتبعثها من صميمها معتمدة على مثلث ايضاً تشغل زواياه مفاهيم المفرد وجمع القلة وجمع الكثرة ، وقد كتب البقاء لمثلث المفرد والمثنى والجمع ، وتلاشى مفهوم القلة والكثرة وأخذت الكلمات المثناة والمجموعة جمعاً سالماً تخضع لقواعد مطردة أظهرت بوضوح وجلاء مميزات المثنى والجموع السالمة ، تلك المميزات التي تطرق السماع وتنبهه بعلامة مادية تميز المثنى والجمع ولا تتحقق في المفرد . وليس اختلاف المفرد عن المثنى أو الجمع السالم او المكسر الذي يتميز بواسطة صيغته إلا اختلاف كلمة غير مميزة عن أخرى مميزة .

لا يجوز تقسيم الحيز المكاني بشكل يختلف عن الحيز الزماني وقد عرف العرب تقسيماً مثلثاً للحيز المكاني مبنياً على المبدأ التالي : كل زيادة في الأحرف تؤدي الى زيادة في المعنى ، او يحصل الاختصاص في المعنى بفعل الزيادة في الأحرف. ويطبق هذا المبدأ على اسماء الإشارة الخاضعة لبنيانية صارمة والمختصة بالمكان (هنا للمكان القريب ؛ هناك للمتوسط ؛ هنالك للبعيد) . لا تجري الأمور بهذه السهولة في تقسيم الحيز الزماني . فاستعمال المصطلحات الثلاثة الماضي والمضارع والأمر وإطلاقها على الحيز الزماني يؤديان الى اخطاء شائعة : تدل كلمة الماضي على مفهوم زماني ولكن رصيفتيها اي كلمتي المضارع والأمر لا تصلحان للدلالة على الزمن وقد نتغاضى عن كلمة المضارع التي تطلق أصلا على الفعل الذي يضارع الاسم بالحركة وتجاوزاً على مفهوم الحال والاستقبال ولكن لا نستطيع أن نعتبر كلمة الأمر التي تدل على مفهوم الصيغة من المفردات التي تدخل في حقل الزمن .

هل دل الفعل في العقلية العربية القديمة على الهيئة ، وهل دخل مفهوم الزمن حديثاً الى اللغة العربية؟ أخذ الفعل العربي في الوقت الحاضر يعرب عن الزمان،

لأن هذا الأمر حادث في كثـــير من اللغات ولان المناقشات الحادة التي قامت حول دلالة الفعل على الزمان او الهيئة لم تؤدّ الى حلول جذرية ولأن الفكر العربي يميل الى تقسيم الزمان بشكل يوازي لما يحدث للمكان فالمفاهيم المكانية ـ الزمانية مشتركة ، ووجود القريب والمتوسط والبعيد سيؤدي حتمـاً الى الأخذ بتقسم زماني مثلث اي ماض وحال واستقبال .

إن مميزات الشخص تبرز هي ايضاً نوعاً معيناً من العقلية فهناك لغــات تأخـــذ بالتوزيــع الثلاثي (المتكلم ، المخاطب ، الغائب) المألوف في العربية والفرنسية وبعضها الآخر يأخذ بتوزيــع رباعي ويعتمد شخصاً رابعـــاً يسمى المشترك . يظهر مميز الشخص في اللغة العربية بوضوح مع اكثر المفردات العربية ـ يخضع الشخص في الفعل لقواعد بنيانيـــة واضحة ـ لا يظهر مميز الغائب في الفعل ويتميز المخاطب في الماضي بالتاء المتحركةالتي تلحق آخره، وفي المضارع بالتاء الواقعة في أوله وفي الامر بواسطة الصيغة ويتميز المتكلم في الماضي بوجود التاء المضمومة و(نا)،وفي المضارع بوجود ضمير مجزوء يتصدر الصيغة الفعلية (أ) للمفرد و(ن) للمثنى والجمع. وقد ادعى بعض النحاة أن ضمير المتـكلم يستتر في أفعل ونفعل، وأشاعوا آراء مغلوطة: تتألف هاتان الصيغتان الفعليتانمن ضمائر مجزوءة ولكنها ظاهرة . وليس اختلاف الغائب في الأفعـــال عن المخاطب والمتـكلم إلا اختلاف شخص غـــير مميز عن آخر مميز . أما فصائل الضمائر المنصوبة والمجرورة المتصلة والمرفوعة والمنصوبة المنفصلة فهي تتوزع ايضاًتوزيعاً مثلثياً وتتميز جميعها بعلامات فارقة تبعد عنها اللبس .

الإعراب صفة من صفات العربية وسمة من أقدم سماتها اللغوية وهو يظهر بأمانة دقائق المعنى وهو لا يصيب إلا الحرف الاخير من الـكلمة . تتغير بنية الـكلمة وفق المعنى بموجب تحولات صرفية أو تصريفية ، ويتمتع الحرف الأخير منها بقوة تؤهله حمل أعباء معينة تعود الى الاعراب . وتتجلى هذه الظاهرة هنا ايضاً حسب مثلثات تشغل زواياها في الاسم مفاهـــيم الرفع والنصب والجر أو الخفض ويقابل كلاً من هذه الحالات الضم والفتح والكسر أو في الفعل مفاهيم الرفع والنصب والجزم ويقابلها الضم والفتـح والتسكين وقد تصبـح المميزات الاعرابية اثنتين في حالات خاصة (المثنى ، الجمـــوع السالمة المذكرة والمؤنثـــة ، الاسماء غير المنصرفة) وقد تظهر على شكل مثلث احرفي في الاسماء الخمسة ...

خروج اللغة عن التنظيم

تبين لنا مما تقدم ان قوالب التفكير العربي تلتزم مثلثات يعتمدها العربي بصورة شعورية أو لا شعورية ليعبر عن احساسه وعن مفاهيمه العامة للكون. ولكن العربية تحتوي على تنظيمات ثنائية ، ولذا يحق لنا أن نتساءل: لماذا لم تلتزم اللغة العربية دوماً بالتنظيمات الثلاثية وتبنت أحياناً تنظيمات تخالف النواميس العامة التي تقيدت بها ؟

هناك عوامل تعود الى تاريخ بعيد تحول دون تحقيق التنظيمات الثلاثية في اللغة العربية . إن هذه من الوجهة التاريخية هي أقرب اللهجات السامية الى اللغة الام : إنها احتفظت بكثير من عناصر قديمة قد انزوت في بقعة جغرافية أتاحت لها الانطواء على ذاتها والتشبث بالاصول القديمة وأخيراً جاءت لغة التنزيل وثبتت في نص مكتوب ميولاً نحو التثليث لم تتحقق آنذاك ولذا تظهر في اللغة العربية تنظيمات غامضة ملتبسة يصعب تحليلها والوقوف على حقيقتها كتنظيم الجنس وتنظيم التعريف والتنكير مثلا .

قد يؤدي تصنيف الاسماء حسب جنسها الى مثلث تشغل زواياه مفاهيم التذكير والتأنيث والحياد الجنسي وقد يوافق تنظيم كهذا ما عرفناه عن البنيانية المثلثية العربية ولكن اللغات السامية والعربية في فجرها لم تهتم بهذه المفاهيم وقصرت جهودها على التفريق بين القوي والضعيف والسامي والوضيع وميزت هذا الأخير بواسطة علامة التأنيث (شميسة وأذينة ونعيلة تصغر بوجود التاء ، هذرة وسخرة وحمزة تحقر بوجود التاء ؛ ثمرة وبقرة تدل بوجود التاء على وحدات هي أقل من الكل أو من المجموعة ؛ سيئة تجرد بوجود التاء ،ولا تهتم العقول البدائية بالمجرد وتولي جل اهتمامها للحسي) ثم تأثرت مقولات ما نسميه الآن الجنس بعوامل خارجية فأخذت اللغة العربية تتقيد بمفهومه وتميز المؤنث بعلامات فارقة . لم يتحقق الجنس في العربية على شكله الثلاثي المرتقب حتى ولا على شكله الثنائي فهناك مفردات تتأرجح بين التذكير والتأنيث وتستعمل مؤنثة أو مذكرة (حال ، طريق ، روح) وهناك مفردات تحافظ على صيغة مشتركة في حالتي التذكير والتأنيث (صيغ بعض الصفات) وهناك مفردات كجموع التكسير تفرض على أفعالها وصفاتها أحكاماً خاصة .

لم تفلح العربية في تفريق المعرفة عن النكرة بمميزات ثابتة لا لبس فيها . ان التنوين أو وجود النون هو علامة تنكير (كاتب ، كاتبان ، مؤمنون) ولكن اللغات السامية القديمة لم تقيّد الميم التي تحولت الى نون في العربية بمفهوم التنكير ، فكانت الميم تدخل على كافة الاسماء المعرفة والمنكرة على حد سواء . حاول النحاة تمييز المعرفة من النكرة في اللغة العربية ولكنهم لم يستطيعوا ان يقفوا على حقيقة الامر . ولذا يصعب شرح مشكلة التعريف والتنكير وبسطها اعتماداً على ما جاء في كتبهم التي لا تحقق الغرض العلمي الذي تصبو اليه الدراسات اللغوية الحديثة . ولذا على الباحث أن يمعن النظر في هذا الامر ويسجل الظاهرة اللغوية ويحللها ويتقصاها : ان التنوين والنون صنوان متلازمان احدهما نون تلفظ ولا تكتب (كاتب) وثانيهما نون تلفظ وتكتب (كاتبان) وقد تظهر النون المكتوبة في الافعال المضارعة المثناة والمجموعة جمعاً مذكراً سالماً وقد تظهر النون في الاسماء المعرفة (الكاتبان ، المؤلفون) فدراسة التنوين والنون منهجياً ستعود على العربية وفقهها بأجزل الفائدة ...

ثوابت الفكر في التنظيم

اللغة من العوامل التي توطد أركان الروح الجماعية فهي تفرض نفسها على مجموعة الافراد الذين يتعاملون بها وهي تقوم بموجب عقد ضمني تم بموافقة الطرفين المعنيين اي بين هيكلية اللغة وكل الذين يستعملونها ، ولذا تخرج اللغة عن إرادة الفرد وتخضع للروح الجماعية وقد يتأثر المجتمع بالبيئة والوسط والمجتمعات المجاورة ومن الطبيعي أن تتعرض اللغة للتأثر فتتسرب اليها كلمات أعجمية وأساليب غريبة ، ولكن البنى تقاوم التجديد وتحافظ على صورها التقليدية وقوالبها الثابتة . وقد نستطيع ان نحلل العربية على ضوء واقعها البنياني وأن ندرس كيفية انسجامها في قوالب معينة أبت أن تحيد عنها . انسجمت العربية في قوالب صوتية وفي بنى صرفية ونحوية مثلثة الاطراف ظهرت في علم صوت العربية وفي فونولوجيتها وفي مورفولوجية الاصول الثلاثية التي تولد أغلب المفردات العربية وفي مميزات صرفية نحوية مكنّت أهل العربية من مزاولتها مزاولة عملية مستمرة وقد قامت هذه البنى المثلثة الاطراف بدور تثبيت طرق استعمال العربية ووحدت وسائل شيوعها وفرضتها على الناشىء وكأنها

إحدى غرائزه الاصلية .

لن نبحث عن ثوابت الفكر والتفكير خارج البنى اللغوية وعندما نوفق في تحديد قوانين اللغة ونواميسها يتاح لنا ربط اللغـة بعقلية الشعب أو القوم الذي يتـكلمها . قد تبقى اللغة لغة، اي نظاماً يتحلى بميزات عامـة تنطبق على كافة اللغات مهما كان نوعها وقد تبقى اللغه لغة مهما اختلفت مظاهرها وقد يحدد البعض الخصائص الاساسية التي تتركب منها اللغات وقد يحاول هؤلاء وضع كتب قواعد عامة ناجحة ولكننا نحن لا نهتم في هذا المقام بدراسة الصيغ العامة التي تظهر في كافة اللغات بل نهتم فقط بالصيـغ والبنى والقوالب الخاصة بالعربية . يؤدي تنظيم اللغة العربية الى تفحص مختلف عناصرهـا والنظر في وظائفها وعلاقاتها المتبادلة والوقوف على ميكانيكيتها .

يقوم تنظيم اللغة العربية على قواعـد ثابتة مترابطة تحدد كيفية استعمال أصوات اللغة وصرفها ونحوها ولكل من هذه العناصر وظائف معينة تبـين هوية اللغة . إن مراقبة هيـكلية العربية تكشف ما يطرأ عليها من تغيرات وخلافات ومتطابقات تحصل في حدود مضبوطة ثابتة القواعد محدودة الاشكال تؤلف عبقرية العربية ،اي مجموعة الخصائص التي تميزها عن غيرها وتجعلها تنفرد في عالم لا تشترك فيه مع غيرها وتتبلور في عقلية صورت الوجود بشكل معـين وصاغته في بنى من صفاتها الثبوت المدعوم بالإحصـاء . ان وصف خصائص العربية يفرض العودة الى الإحصاء فمعنى المفردات مثلا التي وردت في المعاجم وكيفية استعمال المميزات الصرفية النحوية هو معدل ما يجري فعلياً في اللغـة العربية التي تنتقي ما يناسبها وتدع ما لا يناسبها . ان معالجة تواتر الـكلمات والبنى والصيـغ تقود الى التحري عن الحقيقة اللغوية والبلوغ الى الثوابت اللغوية والمنطقية فاللسان وسيلة لتصوير الفكر . تقوم الإشارات الصوتيـة بالرمز الى الاشياء المحسوسة والمجردة وهكذا تصبح الإشارات شكلا متعضياً فتوضع فيه المحتويات التي نريد أن نعبر عنها وتضحي اللغة الطريق الوحيد للولوج الى الفكر المعبر والى عقليـة شعب والظاهرة الفريدة التي تؤدي الى ربط ثوابت اللغة بصميم التفكير . على العلم الحديث أن يتقيد بالموضوعية والبنيانية والاحصاء . إذا باءت هذه المعايير بالفشـل فما على الباحث إلا أن يقوم بدراسة اللغة على شكل ايحائي ولكن عندما تنجح المعايير الحديثة وتؤتي أكلها فما عليه إلا أن

يبتعد عن الايحائية التي لا تسعفه ولا تفيده وان يلتزم الطرق العلمية الحديثة التي تظهر أهم قوالب الفكر العربي ومفاهيم المنطق الشعورية وما فوق الشعورية التي تنبعث من صميم حياتنا والتي تخضع لسيطرتها . قد تفرض المباحث العربية الحديثة دستوراً مشتركاً في الأصول والفروع بعيداً عن الخليط والفوضى والتناقض .

التنظيم اللغوي والنظر الى الكون

اللغة رمز الحياة الاجتماعية المشتركة وضرب من النشاط الانساني يستطيع الفرد أن يستعين به ليرتب مفهومه للعالم وللكون . تعبر اللغة عن نظرة معينة يلقيها الانسان على الكون وهو لا يرى منه إلا المظاهر التي تبرزها له لغته وعندما يفكر يجد أن لغته تكيفه وتفرض قوالبها عليه وتصوغ محتوى فكره حسب صيغها وعندما يحلل تجاربه وخبراته يجد أنه يفسرها ويشرحها وفق بناها وهيكلها . قد يغيب التنظيم اللغوي عن العين المجردة وقد تختفي مميزاته وقد يتفاعل مع الزمن والوسط والبيئة الجغرافية فاللغة تتطور وتتجدد حسب العصور المتعاقبة وترتبط بالحيز المكاني والزماني وقد يتوارى التنظيم في ثنايا العديد من الأنظمة الممكنة التي تتجاذبه ولكن الدراسة العلمية للغة معينة تتيح لنا الوصول الى تحديد أسس التنظيم الثابتة والقواعد الكلية التي تصلح كنظام شامل ، جائع ، مجرد ، هو بمثابة ناموس علمي صرف ودستور قد يتعدى حقل اللغة ليجد له تطبيقات مثمرة في كافة النشاطات الانسانية .

نحن نحبس الفكر الانساني ونصوغه في قوالب ثابتة هي تحدد نظرنا للعالم والكون وتسلك كل لغة في عملها هذا طرقاً معينة فهذه بنى الشعر الصيني تربط بين فصول السنة والجهات الأربع والحواس وعناصر الكون والجرس والموسيقى واجزاء جسم الانسان والأعداد والشواهد الأدبية وما تستوجبه من تضمين وتشابيه الخ ... فهيكل الشعر الصيني مرآة عقل الصينيين وتفكيرهم وشكل اللغة العربية يوحي الينا بدوره بمنطق معين . تقيدت به اللغة العربية وقيّدت بواسطته نظرها الى الكون . فثوابت الفكر العربي مثلثة الأطراف تظهر في فجر تاريخ العرب كما أنها تظهر في حياتهم العصرية ، يتألف الكون من ثالوث السماء والأرض والجحيم وتسكنه مخلوقات تتوزع على ثلاث زمر أنس

وجن وملائكة . تصور الساميون ومن جاء بعدهم من العرب الإله من خـلال ثالوث فلـكي يتألف من آب وأم وابن فالإله الآب هو القمر والام هي الشمس والابن هو النجم الثاقب (الزهراء أو الزهرة) وهناك ثالثة أخرى هي اللات والعزى والمناة وهي لم تكن في نظر الجاهليين إلا بنـات الإله يعبدونهن زلفى اليه . عرف الإســلام فكرة الوحدانية التي انبثقت من صميم الواقع العربي وعرفها من خلال اليهودية والنصرانية التي صورت الإله على شكـل مثلث متساوي الاضلاع والزوايا يمثل الاقانيم الثلاثة اي الآب والابن والروح القدس. وحد الإسلام الجوهر دون ان يتخلى عن قالب ثابت في تفكيره انعكس في اللغة والتعبير (باسم الله الرحمن الرحيم) . إن القاسم المشترك بين العقائـد واللغة ينبيءعن أصالة الصيـغ المثلثة العربية وعن رسوخها في الاذهان . والتثليث صورة جلية لتفكير معين قد يتجلى في اللغة وقد يتجلى في مظاهر أخرى حضارية وما الغاية من انتقائنا دراسة اللغة العربية والعودة الى خصائصها إلا كشف صفات وسمات ثابتة ثبوت الدهر ، ثبوت المنطق والفكر والتفكـير والثقافة والتراث .

ريمون طحان
(بيروت)

جاك بيرك

ديالكتيكية الذات والطبيعة

(قراءة في شعر السياب وأدونيس)

ان كان صحيحا ان العمل شيء يجري بين الانسان والطبيعة ، فماذا نقول عن الشعر ؟ هل نقول انه شيء لا يجري ، او لا يوجد ثانية ، ام انه في الانسان وفي الطبيعة معا ؟ ولعل هذا اكثر صحة بالنسبة الى بعض اللغات كاللغة العربية حيث يتمتع الشعر بنوع من المشاركة الجوهرية لان هذه اللغة ، اولا ، آتية مباشرة من عراقة لا بداية لها ، وهي لغة تأسيسية بمعنى ما ، بالمعنى الذي يعطيه الرومنطيقيون لهذه الكلمة والتي تجرف معها بسبب من هذا عددا من الروابط الاساسية بين التداعيات الاولية ، ضمن الروابط الاولية بين الانسان والطبيعة · ولان هذه اللغة ، ثانيا ، تحمل معها مراحل قديمة يمكن ان نصفها بما قبل تاريخية ، اسطورية ان شئتم ، فهي تحمل بالاضافة الى ذلك الميتولوجية ، وذلك من الصحة بحيث ان الشاعرين اللذين سندرسهما الليلة هما شاعران اسطوريان · ومن ناحية ثالثة ، وهذا اكثر عمومية ، ذلك انه يختص بجميع اللغات ، وبالشعر بجميع اللغات ، ومن هنا تتضمن كل لغة محتوى اعلاميا ، فان لهذه اللغة حدودا وهذه الحدود تخلق نوعا من الفراغ وهذا الفراغ يخلق نداء · ونحن نعرف اليوم جيدا ان الشعر رغم ان الشعراء ، او على الاقل الشعراء الكبار يمارسونه باستمرار ، وهو الذي يسكن ، عبر محتوى من الاعلام والتواصل وفيما وراء هذا المحتوى ، يسكن ، ان صح التعبير ، الفراغ الذي خلقه وحدده عجز اللغة المقصود · نستطيع اذن ان نقول بوجود شعر غياب ، يتمثل بوضوح في شعر مالارميه · لكن ان كان لا ينبغي ان نبحث بعيدا لكي نرى الجوانب الشعرية في اغلب القصائد ، فلأن هذه الجوانب تتمثل في ما لم يقل ، في ما اعلن واشير اليه في ما يسكن الفراغ الذي خلقته (فجوات) اللغة او صلواتها واسمحوا لي بهذا اللعب اللفظي ·

اريد ان اتحدث اليوم * ، ضمن دراستي للطبيعة في الثقافة والمجتمعات

* محاضرة القاها جاك بيرك في الكوليج دوفرانس ـ السوربون ضمن سلسلة محاضرات عن الثقافة والطبيعة في الحضارة العربية .

العربية ، عن الطريقة التي يمكن ان ينظر بها الى هذا الموضوع انطلاقا من شاعرين كبيرين معاصرين ، رغم ان احدهما مات ، وياللاسف ، وهما بدر شاكر السياب وادونيس ٠

اتحدث اولا عن بدر شاكر السياب من خلال مجموعته الكبيرة « انشودة المطر » ٠ تقسم المجموعة الى عدة اقسام : « غريب على الخليب » هو القسم الذي يتحدث عن مرحلة كان الشاعر فيها منفيا في الكويت ٠ وكـان يحس احساسا قاسيا لبعده عن وطنه الام ، لكن هذا المنفى هو بشكل اعم **الغربة** ، اي النفي منذ الولادة لكل شاعر جديد بهذا الاسم ، بالنسبة الى كل اطـار زمني ٠ وللقسم الثاني اسم ذو دلالة : « قافلة الضياع » ، وقد اوضحنا في المحاضرة السابقة الصلة بين الضياع او الاستلاب وموضوع الاغتراب ، وفقدان الشخصية ٠ واوضحنا كذلك حقائق اخرى كثيرة عاطفية واخلاقية خاصة بتاريخ المشرق ٠ والقسم الثالث « جيكور والمدينة » ٠ وجيكور اسم قرية الشاعر في جنوبي العراق ، وهو يكتب عنها بنبرة شديدة الحـــزن ٠ واخيرا « انشودة المطر » وهو القسم الذي اعطى اسمه للمجموعة بكاملها ٠

اول ما يبدو في موضوعات هذه المجموعة هو موضوع المنفى ، الابتعاد ، موضوع الانفصال عن القرية ٠ ان لمن ولد سنة ١٩٢٦ في جنوبي العـــراق الوقت لمشاهدة فوضى الثلاثينيات ، ورؤية الصراع بين الاقطاعيين واضطهاد القبائل والقمع الذي مارسته الحكومة التي سيطرت عليها آنذاك سياســـة بريطانية ٠ لكن بقيت جيكور بالنسبة الى شاعرنا اشبه بجنة ضائعة وهي جنة يوحدها قليلا او كثيرا بأمه ٠ اذ انه فقد امه وهو حدث ٠ انه انسان منفي جوهريا ، لم يعزه شيء عن ولادته ٠ يقارن مثلا بين القرية والمدينة حين يصل الى بغداد ، في قصيدته « جيكور والمدينة » فيقول :

والدروب او الشوارع هي المتاهة التي تنقض على المهاجر كالشبكة ٠ وسرعان ما يجيء التشبيه :

وتلتف حولي دروب المدينه :
حبالا من الطين يمضغن قلبي

ويعطين ، عن جمرة فيه ، طينه ،
حبالا من النار يجلدن عري الحقول الحزينه
ويحرقن جيكور في قاع روحي
ويزرعن فيها رماد الضغينه ٠

ولا شك انكم اعجبتم بجمال هذه النبرة وببساطتها المتناهية ٠ نحن هنا بازاء موضوع القرية ، هذا الموضوع الذي يلتهب ، بعد وصف المدينة ، كما في اناشيد النصر ٠ و « جيكور خضراء / مس الاصيل / ذرى النخل فيها / بشمس حزينه » فجيكور ولادة وشروق ٠ وفكرة الشروق او الاشراق تقترن دوما عند السياب بفكرة البعث ، وهذا ينسجم تماما مع الميثولوجيـــــــا المتوسطية ٠ اما المدينة ، فهي بالمقابل ، مدينة السندباد ، مدينة السراب ، المدينة التي هجرها المطر ، مدينة بابل ، او هي ايضا قافلة الضياع بالنسبة الى المنفي الآتي من الفراديس المفقودة ، سواء منها فردوس جنوبي العراق او فردوس طوباوية سياسية ٠

على الشاعر اذن ان يقيم سورا بينه وبين المدينة ٠ هكذا يحتمي بمنفاه ذاته ، بغرابته ، بفرادته ، او بحسب تعبيره بصحاراه الثلجية ٠ ماذا يفعل كي يعود الى الاتصال بالينابيع ؟ يغرق في عنصر محي ، في عنصر رحمي ، هو طبعا ذكرى القرية ، ولكنه ايضا الواقع البدئي او العناصري على حد قول

السيميائيين القدامى ، اي التراب والماء ، او النهر او المطر وهي عناصر العودة الى الاصلي • هناك اذن توحد بالارض ، وكما يقول ادونيس في مقالة رائعة يقدم بها مختارات من شعر بدر شاكر السياب ، هناك نرجسية ، فالعودة الى النهر نرجسية كونية ، عودة الى الكوسموس ، وهي عودة تتضمن عذابات عديدة ، يتمثل هذا في موضوعات اسطورية منها مثلا موضوع الفينيق • اذ يصبح على الشاعر كي يولد من جديد ان **« يحرق ظلماء طينه »** كما يقول السياب • آنذاك ، وبفضل هذه العناصر المخلصة يرجع الىفصول اخرى ، الى المستقبل (فنحن بازاء شاعر تقدمي) • فالبذور او الاتصال مجددا بالمنابع ليس رجوعا الى الوراء ، ليس في العودة الى القرية ، بل في تحقيق نظرية اجتماعية وسياسية • هذا بالضبط مفهوم شاعرنا •

هناك اذن مرحلة احتراق او موت ، كما تبين اسطورة «تموز» الفينيقية • **والسياب ليس الوحيد الذي استلهم هذه الاسطورة** : فهناك عدد من الشعراء الذين كتبوا في مجلة « شعر » في اواخر الخمسينات ومطلع الستينات ، وهي المجلة التي شارك ادونيس في توجيهها ، ومن بين هؤلاء الشعراء خليل حاوي ويوسف الخال وادونيس نفسه حيث تتداخل موضوعات الحنين والامل والنظر السياسي والحس الكوني تداخلا على درجة عالية من التحول •

ويتلون موضوع « ادونيس » او « تموز » احيانا بالوان مسيحية • ففي هذا الشرق الادنى الحافل بالمذاهب ، حيث يتدرج كل من الديانات التوحيدية الكبرى في فروقات عديدة ، يمارس انسان كهذا نوعا من التوفيقية ، على الاقل ، على صعيد الاستلهام • هكذا لا نفاجأ اذا رأينا له عدة قصائد عن المسيح • هناك مثلا قصيدته « المسيح بعد الصلب » وهي قصيدة تمتاز بمأساوية مدهشة :

« بعدما انزلوني ، سمعت الرياح / في نواح طويل تسف النخيل /

والخطى وهي تنأى ، اذن فالجراح / والصليب الذي سمروني عليه طوال الاصيل/لم تمتني ••• »

اما الاسلام فيرى انه « شبه لهم » اي ان جلادي المسيح قاموا بعمل وهمي • ومهما يكن ففي قصيدة السياب يستيقظ المسيح في القبر :

« •• وانصت : كان العويل / يعبر السهل بيني وبين المدينه
مثل حبل يشد السفينه / وهي تهوي الى القاع ، كان النواح/
مثل خيط من النور بين الصباح / والدجى ، في سماء الشتاء الحزينه/
ثم تغفو على ما تحس المدينه • »

وهكذا ، كما في قصيدة « جيكور والمدينة » نحس ولادة الربيع كالحان صنوج مرحة :

« حينما يزهر التوت والبرتقال / حين تمتد « جيكور » حتى حدود الخيال / حين تخضر عشبا يغني شذاها / والشموس التي ارضعتها سناها/ حين يخضر حتى دجاها ، / يلمس الدفء قلبي ، فيجري دمي في ثراها •

قلبي الشمس اذ تنبض الشمس نورا ،
قلبي الارض ، تنبض قمحا ، وزهرا ، وماء نميرا ،

قلبي الماء ، قلبي هو السنبل / موته البعث : يحيا بمن يأكل ·
في العجين الذي يستدير / ويدحى كنهد صغير ، كثدي الحياة ···

لا اعرف ان كان هذا الشعر العظيم يحتفظ بجماله في الفرنسية ، اعتقد ذلك ، وارجوه · على اية حال بامكاننا ان نقول كما يقول ادونيس في تقديمه لبدر السياب بعد موته ، ان الحنين للرجوع الى رحم الام ، انما هو حنين تآلف اخير بينه وبين الآخر ، بين الروح والعالم ، بين السماء والارض ، بين الجلي والمجهول ، بين الزمان والابدية ، وهو عودة الى الحضور الكوني ، وتأليف بين الطبيعة والتاريخ يتغلغل في حساسية معينة ، في تجربة شخصية·

نجد في هذه القصيدة * المشجية اثار الشعر القديم ، حتى ان شعـــراء الطليعة يأخذون ذلك على السياب · فالسياب من المعجبين بامرىء القيس · كما اعطى ابنه اسم ذي الرمة اي غيلان · ونلاحظ ان القصيدة ، وان كانت تعتمد التفعيلة الحرة ، تبدأ على غرار « القصيدة » القديمــــة ، بالنسيب بتمجيد جمال المرأة ، وجمال العيون التي ليست الا رحيلا صوب العتمـات الوسيطة التي يلجأ اليها السياب لجوءه الى سديم يريد ان ينتزع منه تهجئة القصيدة او تهجئة الامل ، وان شئتم ، تهجئة الايديولوجيا · نلمس هــذا في القسم الاخير من القصيدة · ففي البداية تتكون منطقة من الغموض او اللاتمايز ، ذلك الضياء الذي ليس ضياء ، ذلك الصمت لارتجاج المجذاف قبيل الفجر: ينتظرون الفجر ، اي فجر؟ انه فجر يوقظ الاقمار والنجوم الخبيئة ، ولهذا فان « العينين » منذ المقطع الثاني تغوران ، تغرقان ، في « ضباب مـن اسى شغيف » · و « اسى » الجذر الذي اشتقت منه التراجيديا « المأساة »، بدليل ان اصدقاءنا اللبنانيين ، لكي يترجموا مصطلح « تراجيدي » وهــو مصطلح ضروري لتحليلاتنا الشعرية اليوم ، يعتمدون كلمة « مأساوي » ، بينما يعتمد الفيلسوف عبد الرحمن بدوي كلمة « أس » ، لم لا ؟

وهكذا فان الالم يستحضر هنا في ضباب من الغموض وهو غموض سوف ينحل ، كما ينحل الضباب الى مطر · هنا ايضا نجد انفسنا بـازاء احد موضوعات الشعر العربي القديم : انحلال العاصفة في تلألؤ المطــر الظافر ، في نهاية معلقة امرىء القيس · نعود هنا الى موضوع الماء ، هذا الموضوع الاصلي الاساسي العزيز على السياب · هذا القوس قزح الـذي يقيم الصلة بين الارض والسماء ، وكما ان المطر صلة بين الارض والسماء ، فان هذا المطر يوقظ في الارض العطشى كل خواطر الحاجة والرغبة والثورة · من وحي وجه المرأة نمر عبر الشخصي الى الجماعي وذلك بشاعرية فريدة ذات بساطة آسرة ، فما من كلمة تنتمي الى « الغريب » ما من كلمة معقدة ، الاستعارات مستقاة من صور شائعة ، غير ان الجمع بينها يحدث تموجات مستمرة في الدلالة ، على خلفية من الكآبة ، هذه الخلفية السوداوية ، الام المدفونة التي ترفع وجهها نحو الارض كي تتلقى المطر ولكنها لا تتلقاه اكثر مما ينجح صياد فقير في ملء شبكته العميقة · وهنا يبلغ الالهام ذروة السمو ·

★

* يقدم المحاضر هنا ترجمة كاملة لقصيدة « أنشودة المطر » ولا نجد هنا ما يقتضي إثبـــات القصيدة .

لكن ٠٠ ينبغي ان نتوقف عند التعليق على هذه القصيدة الرائعة لنقول بضع كلمات عن الشاعر الآخر ، اعني علي احمد سعيد ، ادونيس ٠ وهو شاعر بدأ شأن معظم الشعراء يغني الذات في وجه العالم ٠ هذا ما فعله السياب قبله بعشر او خمس عشرة سنة ، اذ وجد السياب في موضوعاته الرسالية كالفناء في الارض ، وربيع الارض ، والماء ، اتصالا بالكوني ، ونوعا من الخلاص ٠ لكن ادونيس ، بعملية ديالكتيكية ، بل بديالكتيكية واعية سيفجر التعارض بين الشاعر والكون ، بين الذاتية والطبيعة ٠ ويرد اسم هيراقليطس ، وهو اسم يملؤني باعتزاز خاص فأول مرة اهتم فيها النقد المشرقي في اوساط الانتلجنسيا بفكر هيراقليطس ، حصلت كما اعلم على اثر مقالة طلبتها من صديقي كوستاس اكسيلوس ونشرها ادونيس في مجلة «شعر» ٠ جاءت الديالكتيكية الهيراقليطية كاستئناف كوني او طبيعي للديالكتيكية التاريخية ، للماركسية التي كانت مألوفة في المشرق ، والتي دخلت هذا الشعر لتفجر هذه التناقضات ، والبطل الذي سيجيء ، هذا البطل الدمشقي الذي سيتخذ وجه فارس عربي من العصور السالفة ، لكن الذي يحمل ايضا وجها مالدوروريا مع غير قليل من الاصداء السريالية ، اعني « مهيار الدمشقي » ، البطل الذي يحمل ، بشكل ما ، الخراب الذي هو في الوقت نفسه اعادة الخلق ، وذلك وفق المنظور الهيراقليطي للنهر الذي نعبره ويبقى هو نفسه ٠ لكن ، في الاساس ، اليس هذا الجدل بين الثوابت والمتحولات هو الجدل الاساسي في المدينة المشرقية كما في كل مدينة اخرى ، هذا بالضبط ما نبحث عنه في تقصينا لموضوع الطبيعة ٠

*

المجموعة الثانية « كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار والليل »، تشير الى تطور تحليلي ، تحليلي ام سيميائي ؟ وبالفعل فان السيمياء هي المعنية في كلمة « التحولات » اي الانتقال من حالة الى حالة ٠ والهجرة ، المنفى ، الحاضر ابدا ، نتتبعه منذ البداية في اقاليم النهار والليل ٠ هل قلت « السيمياء » ؟ وهاكم ما يؤكد ذلك في اوائل القصائد اعني « زهرة الكيمياء » ٠ ونتذكر هنا رامبو والسيمياء اللغوية :

« ينبغي ان اسافر في جنة الرماد
بين اشجارها الخفيه
في الرماد الخواتيم والماس والجزة الذهبيه ٠
ينبغي ان اسافر في الجوع في الورد نحو الحصاد
ينبغي ان اسافر ان استريح
تحت قوس الشفاه اليتيمه ،
في الشفاه اليتيمة في ظلها الجريح
زهرة الكيمياء القديمه ٠ »

قصيدة قصيرة ، مليئة بالشعر ، الشعر الذي قلت منذ قليل انه مكون من الفراغ الذي تخلقه الكلمة حيث يغور شيء ما ، فكما ان النحات لا يفعل اكثر من ان يحفر فراغا في المعدن او الحجر حيث تنمو قوة المادة وتنبت متحولة الى جوهر جديد ، كذلك الشاعر لا يفعل اكثر من ان يستحضر على صورة الفراغ ، الانفعال ، والفكرة التي سوف تنبجس ٠ هذا امر عادي بالنسبة الى تفتيشات الشعر الاوروبي المعاصر ، الذي بات نوعا مما بعد الشعر ، شعر ما لم يقل الى درجة انه احيانا يخطىء انبجاس النشيد في

الفراغ الذي خلق على هذه الصورة · انه الشعر الذي يبلغ حد نفي الشعر· اما هنا فالشعر ، كما اعتقد ، حاضر دوما · وكما ترون تصبح القصائد شديدة القصر ، واذا كانت هناك صلة شبه تامة بين وحي الطبيعة وذاتية الشاعر ، فان هذا ليس الا حدا ادنى ، منطلقا نحو شيء ما يتجاوز الى ابعد الحدود العملية اللغوية ·

هذه قصيدة اخرى عن « **الاشارة** » · لنتذكر ان لابن سينا كتابا اسمه « **كتاب الاشارات** » · وحين يتحدث السيميائيون عن **الاشارة** فهم يعنون الكلمة السديدة ، او الكلمة المفتاح · وهذا يوحي بالدلالة دون المرور عبر الاعلام الاستدلالي · **كتاب الاشارة** ، الكلمة ـ المفتاح :

مزجت بين النار والثلوج
لن تفهم النيران غاباتي ولا الثلوج ،
وسوف ابقى غامضا أليفا ،
اسكن في الازهار والحجاره ·
أغيب ، استقصي ،
ارى ، اموج
كالضوء بين السحر والاشاره »

اجل ، هذا غامض ، لكنه غموض ليس فيه شيء من اللامنطق او الاعتباطي ، بل هو على العكس مدروس بحيث يخلق الفراغات التي تكلمت عليها · اما الطبيعة فهي حاضرة دوما ، وفي كل شيء ، والشاعر كالسيميائي يدمر الطبيعة بعمليات تحليلية كي يعيد خلقها من جديد ·

في منتصف المجموعة نجد القصيدة الطويلة « **اقاليم النهار والليل** » حيث نجد استلهاما آسرا للارض :

« تعبر نار زرقاء في الجمجمة
تعبر في اوائل الهدب
حيث تنهض ارضي وتومىء وتنحني »
انها الارض الاليفة ، ارض الحميّة والانس ·
« ارضي !
صوت طالع من هنالك
عطر ياتي » ·
ثم هذا التساؤل الصارخ بالزهو :
« هكذا ازدهي صائحا : من يعرف مثلي ، الاسرار وقد نفخت بين شفتي الارض ؟
اتربع في الهواء كشيخ الكرامات
اتدثر بالدنيا وأعرج
اخرق الملكوت »

التجديف ظاهر في هذا الشعر ، فمهيار بطل التجديف وصوته مستمر في المجموعات التالية :

« ·· اتعب أضرب خيمتي بين عيني ،
وحين اعود
أغلق بيت نفسي واشتغل بحالي ·
ارضي ! عالمة كالجسد ، مليئة كالجسد
كل عضلة أنبوب
كل انبوب عتبة ·· »

هذه التلاقيات اللغوية في اطار اللامألوف هي مادة الشعر المعاصر ، وترون ان هذا ينجح في اللغة العربية الى درجة انه يخلق لغة ثانية · والواقع ان ما يأخذه ادونيس على السياب هو انه بقي ، من حيث الحداثة ، في مرحلة متوسطة بين عهد وآخر ، ولم يقم بخطوة التحول الكبرى · ويبلغ هذا التحول عند ادونيس ، درجة يصبح معها لغة ثانية ·

لكن حذار ، فاذا كان صحيحا ان الشعر حارس الغياب او خالق الفراغ الذي يتوجب ملؤه ، فهو ايضا فن الحدود ، ومتى تجاوز الحد لا يعود شعرا · اذ ينبغي ان يبقى الشعر مفهوما ، على الاقل بالنسبة الى جماعة قليلة · وبالفعل فان هذا الشعر قادر على بلوغ قراء الطليعة في المشرق ، كما انه يحتفظ بشعريته في اللغات الاوروبية واذن فقد بلغ مستوى العالمية · هل يبلغ جمهورا واسعا ؟ ولكن اي شعر يبلغ مثل هذا الجمهور ؟ ففي بلد كفرنسا لا يطبع اكبر الشعراء اكثر من الف وخمسمئة نسخة ، فهل نطلب من شعراء الطليعة العربية اكثر من هذا ؟

في المجموعة الثالثة « **المسرح والمرايا** » يمضي الشاعر خطوة أبعد · تصبح القصائد اشد قصرا والصور اكثر فرادة ، والتآلفات أشد غرابة وتتحرك اللغة الشعرية وفق انماط ثلاثة : نمط الحوار الذي تشارك فيه الجوقة احيانا ، وهناك مشاهد قابلة للتمثيل او الانشاد ، ثم هناك احلام ومرايا ، وكأن العالم لا يبلغ أقاصي اعماقه الا اذا لامس السطح ، الا اذا صعد نحو سطحه صراخه ومحاوراته الخاطفة ، وصوره التي هي مد للطبيعة · في هذه المجموعة نجد كل شيء ، فهي مجموعة تأليفية · فالشاعر لم يحشد فيه « قافلة الضياع » ، بل قافلة التاريخ الشرقي ، ويمكن القول انه في هذه المجموعة اكثر التزاما مما كان عليه في اشعاره الماضية · فنحن هنا بإزاء التزام تاريخي · للاسف ان الوقت لم يعد يتسع لقراءة قصائد من هذه المجموعة فاكتفي في ختام هذه النظرة السريعة ان اقدم ترجمة لبداية المحاورات الواردة في الكتاب * ·

هنا في مثل هذه المقطوعات نجد الشعر الذي مضى بعيدا في بحثه وانتظاره يرجع الى خفقان قلب الارض الذي نقله الينا على نحو آسر ، الشاعر الآخر الذي حاولت نقل شعره الى اللغة الفرنسية ·

جاك بيرك
(باريس ، اذار ١٩٧٠)

(ترجمة خالدة سعيد)

* هنا يقرأ المحاضر الترجمة بالفرنسية ، ولا نجد ما يقتضي إثبات القصائد .

خالدة سعيد

الحركة والدائرة

أود لمناسبة احياء ذكرى السياب ونشر آثاره الكاملة (١) أن أثير هذا السؤال : ماذا يمثل بدر شاكر السياب في المرحلة الحاضرة ، مرحلة التطلع الى الفعل الثوري وما هو بالتالي موقعه من الحركة الشعرية الحديثة ؟

يثير الشق الاول من السؤال فيما يثير قضية العلاقة بين الشعر والثورة، اذ كيف يتصل الشعر وهو المنبعث عن الحلم ، بالفعل الثوري الذي يقتضي نظرا موضوعيا يقيم الواقع والتزاما عمليا وجسديا بنقضه وتغييره ؟ أورد للاجابة على هذا رأيين متقاربين ، الاول لشاعر والاخر لجماعة ثائرة .

أ ـ يقول أدونيس «الشعر رؤيا بفعل والثورة فعل برؤيا» موضحا بذلك الجدل بين الشعر والثورة وما في الشعر من شوق الى الحياة المتحركة المتغيرة المتصاعدة وما في الثورة من نار الالهام الشعري • ولقد كانت ، دائما ، القفزة من الرؤيا ، الى الفعل بهذه الرؤيا ، طموح الشعراء الكبار ، كما كان كبار الثوار حالمين كبارا • فالرؤيا هنا ، او الحلم الابداعي تصور للعالم ينطلق من رغبات الانسان العميقة الاصيلة في غياب كل شكل من أشكال التسلط والظلم والاستغلال والتنازل والاذعان للامر الواقع • والشعر ـ الرؤيا ، أو الحلم احتجاج مستمر على واقع بات واقع قهر ، وهو لذلك تصحيح سلبي لهذا الواقع الفاسد ، وما الثورة الا صورته الايجابية • بل ان هذا الحلم هو الضمان الاصلي ضد عمليات التغريب المتراكبة التي يمارسها المجتمع بفئاته المتسلطة •

ب ـ يلتقي هذا مع الشعار الذي كتبه الطلاب الثائرون بباريس في ايار ١٩٦٨ على أحد جدران السوربون : « انسوا كل ما تعلمتموه ، ابدأوا من الحلم » « Oubliez tout ce que vous avez appris, commencez par le rêve »

(١) دار العودة ـ بيروت ١٩٧١

العودة للبدء من مستوى الحلم ذلك هو ملتقى الشعراء والثائرين • ومن أبرز أدوار الشعراء تهجئة الاحلام واستقراء أعمقها واكثرها إلتصاقا بالطبيعة الانسانية •

يتجلى هذا اللقاء (الشعري ـ الثوري) أيضا ، في تواقت أو تعاقب المراحل الثورية والحالات أو الازمنة الشعرية • اذ يمكن أن نتلمس **الحالة الشعرية** (ويمكن أن نسميها الاسرارية) في المراحل التاريخية التي طبعتها التحركات البشرية الجماعية كانتشار الدعوات الدينية أو ظهور الحركات الاجتماعية الثورية • وتتجلى هذه الحالة بالتعلق بمطلق ما سواء كان اسمه الله أو الامة أو الشعب أو البروليتاريا ، كما تتجلى في القلق والشوق الذي يدفع الانسان الى التطرف والعيش على حدود الموت • وزمن الثورات هو كزمن النبوءات ، زمن الخروج والانفصالات الكبرى (٢) ، زمن التحرك والتغير ومعاقرة الخطر ، زمن الاحلام الكبرى • مقابل هذا نرى زمن الخضوع والانهزامات الانسانية زمانا غير شعري لانه زمان رواقي بلا أشواق ولا أحلام ، واذن بلا أسرار ، والانسان فيه لا يختار الانفصال والمغايرة والموت بل يرضى بالمهادنة والركود ، يستتر وراء القدر ويذم الزمان •

ويتلاقى الحلم المصحح للواقع أو الشعر الطامح الى التغيير والابتكار واعادة خلق العالم بالدعوات الثورية الى « **تغيير العالم** » كما عند ماركس مثلا ، أو كما في الطموح غير المهجأ دائما ، الذي يشكل جوهر المقاومة كحركة ، ونبض الفورات الطلابية ، كما يشكل حافز الحركات الفنية • فالشعر لصدوره عن اللاوعي أو منطقة الحلم يقوم بدور مزدوج :

أ ـ يلتقط حركة اللاوعي الجماعي ويكشف عن اسطورة العصر غير المتبلورة في صيغة •

ب ـ وهو من جهة ثانية طاقة تبث حركة جديدة باعتبار اتجاهه نحو اللاوعي ، أي باعتباره التواصل البشري على مستوى الجذور والماهيات ، وعلى مستوى البراءة الانسانية •

الحركة الجديدة التي يبثها الشعر هي رسالته الى زمانه ، ورسالة الشعر العظيم ثورية دوما لان هذا الشعر هو أبدا هدم ، أو بناء لعالم جديد • هكذا يكون الشعر ثوريا حين يسهم في خلق « الحالة الشعرية » أي حين يملك طاقة على **تحريض الحلم** ونشر مناخ الاهواء الجامحة وبعث « **حالة الغضب** » وعبور مسافة الاختيار والقرار •

من هذا المنظور تبدو لي أهمية **بدر شاكر السياب** كواحد من أبرز رواد

(٢) نذكر مثلا انفصال النبي محمد عن قبيلته ثم تقويضه للنظام القبلي اساسا ، نذكر أيضا انفصال بوذا عن طبقته وعالمه ، وانفصال الرسل عن محيطهم •

الحركة الشعرية المعاصرة بوجهها الثوري • فقد حمل شعره الملامح الاولى لما نلمسه في هذه الحركة (على تفاوت مستويات انتاجها) من طموح لتغيير « **الحساسية العامة** » والرؤية الشائعة و « **لخلخلة** » القيم السائدة والمنطق القائم ، ونقل « **حالة الغضب** » من الغموض والصمت الى الوضوح والتعبير • فخطا بذلك خطوة لاشاعة موقف الرفض وهي الخطوة التي اوصلتها الحركة الحديثة دافعة المتناقضات بعضها في وجه البعض الاخر دفعا عنيفا حادا • وهذا معنى قول أدونيس في قصيدته « **مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف** » : « لكي أبعث الفروق » • ومن هذا المنظور تبدو لي أبرز دلالاتالبحث الشكلي ومغامرة الشاعر مع اللغة ، اذ أن هذه المغامرة طريق « **لتحرير التعبير** » الانساني تحريرا يتجاوز صعيد اللغة والاداء الفني الى صعيد الممارسة والفعل ، ويدفع هذا التغيير نحو التطرف (٣) بحيث تقصر المسافة بين الثورة على المستوى الفني والثورة على المستوى الاجتماعي • لكن ، ما هي الخطوط العريضة لاسهام السياب في هذا ؟

تألق بدر شاكر السياب وسط الركود الذي أعقب الحرب العالمية الثانية يوم كان الشعر لاحقا بالاحداث ينقلها ويصفها أو يطريها ويشرحها بلهجة الشكوى أو الحماسة الخطابية دون أي اصطدام أو مساس جدي بالتصورات القديمة أو بأسس التفكير التقليدي • وقد جاء السياب **شهادة على زمانه** لا بمعنى تسجيل التحركات بل بمعنى الوعي العميق للحظة التاريخية واستكناه جذورها واستشراف آمادها ، بمعنى الاتصال بروح الشعب ، بلا وعي الانسان في محيطه ، ومعاينة الاسطورة التي تمثل أشواق الانسان في هذا المحيط • ويمكن القول ان رسالته الشعرية هي **رسالة كشف** اكثر مما هي **رسالة بث** • رسالة الكشف هذه برزت خاصة ، في مرحلة من مراحل تاريخ السياب الشعري • اذ لا بد من الاشارة الى أن شاعريته لم ترسم خطا استمراريا تصاعدي الاتجاه ، لان هذا الخط أصيب في أواخر حياة الشاعر بالانعطاف نحو الشخصي ــ البيولوجي ، فانقطع اتصاله بالكوني وغرق شعره في ما يسميه كارل جوستاف يونج « **الاعراضي** » « Symptomatique » متراجعا عن « **الرمزي** » (٤) • كما أن بدايته الذاتية ــ الرومنطيقية لا ترقى الى ما حققه في المرحلة **الرمزية ــ التموزية** (٥) أو التراجيدية • ذلك أن جوهر الاثر

---

(٣) ومن هذه الزاوية ايضا ينبغي ان ننظر الى احتضان « مواقف » الشعراء المتطرفين و « تحريضها » على البحث والتجاوز •

(٤) الرمزي لا تعني هنا المدرسة الرمزية الفرنسية الشهيرة بل الاتصال بالرموز الكونية •

« أعراضي » نسبة الى أعراض او العصاب • المصطلحان ليونج في مجال كلامه على الابداع • راجع كتابه :

Problèmes de l'Ame Moderne, Edit. Buchet - Chastel 1963 Paris p. 375.

(٥) كان أسعد رزوق اول من أطلق تسمية « الشعراء التموزيين » في دراسته القيمة حول الاسطورة في الشعر المعاصر •

الفني لا يكمن في الخصوصيات الشخصية ولا في ظواهر الاحداث ، ما لم يتمكن الشاعر من وضعها في مدارها الكوني ، ولقد أثقلت الاحداث الشخصية أو الاجتماعية شعر المرحلتين الاولى والاخيرة •

بين هاتين المرحلتين تنهض شاعرية السياب لتجعل منه شاعر الخمسينات الذي شف شعره عن التطورات والتناقضات الكبرى في الحياة العربية •

كانت مرحلة الخمسينات مرحلة تفتح الهوية العربية ، كما كانت ، من جهة ثانية ، مرحلة الهوية المطعونة المهددة ، حين قوطعت الحركة العربية الصاعدة بخيبة صاعقة وبحركة هابطة عام ١٩٤٨ ، زعزعت حركة الصعود وتقاطعت معها واضعة الوجدان العربي في مركز الارتجاج • من هذه الصدوع تسربت شاعرية السياب عميقا ، جسدت الفاجعة وجاءت جوابا عن زمانها • فكما قبض غوته ، مثلا ، في « فاوست » على اسطورة عصره وجاءت مسرحيته تشخيصا لانتقال الانسان من الايمان بالغيب وطلب المعرفة عن طريق السحر أو الالهام الى التخلي عن السماء وطلب المعرفة عن طريق الارض ، والغرق في الحس والتجريب بنهم وعطش لا يعرفان حدودا ، وعبرت بذلك عن توثب الروح الاوروبية والالمانية خاصة ، في عصر آخذ بالتقدم العلمي مأخوذ بشهوة الاستكشاف والتخطي ، هكذا جاء شعر السياب في تحركه بين الموت والولادة، راسما الطريق التي تبدأ بالارض وتنتهي بالارض ، مستجليا ما في أعماق الروح العربية من تعاطف مع الموت والافتتاح على الما وراء وتمزق ما بين الزمني والازلي، تعاطفا يكشف عن شهوة الحركة والتحول عبر الموت المحيي • وفي هذه الشهوة قلق مناقض للسعادة بالمعنى الاسلامي ومحاولة لانتزاع القدر من يد الغيب والسيطرة عليه والوقوف في وجه سيرورة الامور سيرورة محتمة الاتجاه وتبشير بسعادة من صنع الانسان •

بذلك يضع السياب القيم والاصول موضع تساؤل مسهما في حركة « **الخلخلة** » والنقض التي برزت فيما بعد في الستينات • هكذا مثلت شاعريته ما أسماه أندره مالرو ب « الشق الالهي » في الانسان الذي هو قابليته لوضع الكون موضع تساؤل » •

تجلت أصالة شاعرية السياب في ما يسمى « **وحدة الخيال** » • فلقد كشف حدسه الشعري المحور الذي تلتقي حوله الرموز الشخصية الصميمة والرموز الجماعية الوطنية والرموز الكونية • تتمثل « وحدة الخيال » عند السياب في دوائر الرمز المتكاملة • نأخذ مثلا رمز الماء ، انه **رمز اشعاعي يبدأ بمحور ذاتي** وينتقل الى مستوى اجتماعي فكوني • ذلك ان الماء هو الام أو الرحم وهو من ثم ولادة وانبعاث ، كما أنه ذو بعد جنسي (يتفق على هذا فرويد ويونج واتباعهما ، كما تؤكده تحليلات الاساطير والاثار القديمة) • والماء دعوة الى

«الحلم والسفر (٦)» ورمز للموت (٧) لخاصة العبور والجريان فيه،وعبوره عبور للموت وانتقال الى الازلي ، والماء نوع من « الوطن الكوني » كما يرى باشلار ، وهو حنين (٨) بما هو ماض ، وصيرورة بما هو حركة فيكون بذلك صورة لوحدة الزمن • ولقد استوعب هذا الرمز في صوره الرئيسية «**تموز**» «**بويب**» « **المطر** » مختلف هواجس السياب من موت الام والحنين اليها حتى الشوق الى التجدد والبعث ورغبة الفناء في الارض ـ الوطن والارض ـ المرأة ـ الام • لهذه الدائرة الرمزية صيغ أخرى منها « **جيكور** » ، جيكور القرية وجيكور الام ، جيكور الارض ، جيكور الحلم ،جيكور فردوس البراءة المفقود ،جيكور الحضارة الزراعية المتراجعة أمام تباشير المدينة الصناعية • والحنين الى جيكور حنين الى الطفولة ، الى حضن الام ، لكن العودة الى الارض موت غير انه موت يعقبه النشور كعودة المسيح أو تموز الى الارض ثم انبعاثهما ومن هنا كانت تسمية المرحلة الرمزية عند السياب بالمرحلة التموزية •

والسياب في عودته الى البدايات الاسطورية ، وفي صعوده من الانا واتساعها حتى الاندماج بالكوني انما زود الشعر العربي **بدفعة أسرارية** بمعنى **المسار الجديد للروحي في الزمني** أو كما يقول عزرا باوند ، لعالم « أزلي والهي ينبجس في العالم اليومي » • تنفذ هذه الدفعة الاسرارية من ارتجاج الوعي العربي ، من صدوع تصوره للعالم ، وتحاول أن تلأم الصدع بميتافيزياء الموت والبعث ، معارضة بذلك الدين بما هو عزاء وتعويض وتبرير للتناقض والعبث • وفي هذه المعارضة ينبغي أن نلتمس الموقف المأساوي عند السياب •

هذه المعارضة هي في أساس تبني السياب لشخصية المسيح كرمز للثائر، جاعلا الثائر ، بذلك ، اله عصرنا • وشخصية المسيح تدخل في الدائرة الرمزية السيابية • حتى حركة المسيح هنا تتبع مسار الحركة في الرموز السيابية • فقد اختار السياب في المسيح وجهه الصاعد من الارض ، حتى جاء تألها للانسان لا تأنسا للاله ، وهذا مغاير للاهوت المسيحي لانه تجريد للمسيح عن الوجه

---

(٦) غاستون باشلار « الماء والأحلام » l'Eau et les Rêves, Edit. Libr. José Corti Paris 1964 ص ص : ٧٣ ـ ٧٤

(٧) هيراقليطس في قوله « أن تصير النفوس ماء هو أن تموت » الفقرة ٦٨

(٨) أعتقد أن تحليلا عميقا للصيغة العربية التقليدية المعبرة عن الحنين « سقى الله عهدا ... » لا بد أن يكشف بعدا اخر غير بعد الدعاء ، كما يمكن ان يكشف علاقة بين الماء وحس الماضي •

الميتافيزيقي وابطال لجدل الثالوث وتشبث بوجه الابن (٩) • ان ما فتن السياب في رمز المسيح هو هذا الرد على الموت بالموت ،أو لانه كما تقول احدى تراتيل الفصح « وطىء الموت بالموت » • وهذا عين الشوق العربي اللاواعي الذي ترجمت عنه الحركة الفدائية ، وتجلى في افتتان الانسان ــ الشاهد بهذه الحركة ــ الفعل • وهذا بالضبط روح قصيدته « **النهر والموت** » ، التي خلت من الاشارات الاسطورية السومرية أو المسيحية ، لكنها جاءت ، شأن « **انشودة المطر** » مثقلة بالروح التموزي ــ المسيحي • ثم ان رمز المسيح عند السياب يمثل الفعل ويكمل دور الشاهد الذي يعجز عن مقارعة العدم •

بهذا الشوق الى الفعل أو الموت الباعث لقح الشاعر التصور الشعري العربي بدينامية فقدها طويلا ، وكشف عن الحضور الدائم للحرية الانسانية والارادة الانسانية وامكان الاختيار •

وقد بلغ من أصالة الشوق الى الفعل والتجدد ، عند السياب ، انه انعكس على الشكل الشعري عنده • هكذا **جاءت مغامرته مع القيم متواقتة ومتفصلة مع مغامرته مع الشكل** وهذا هو معنى الدور الذي لعبه السياب في التجديد ، ولولا هذا التوافق (١٠) بين نزعة التجديد في الشكل وروح التغير والثورة لما كان تجديده الشكلي (والعروضي خاصة) ذا أهمية تذكر • أهميته في استجابة السياب المتكاملة لشوق خفي في لاوعي الانسان العربي •

---

(٩) أستغرب كيف رأى ناقد بارز كالدكتور احسان عباس في رمز المسيح عند السياب ممالأة للمسيحية كانت نتيجة اتصاله بجماعة مجلة « شعر » وتقربا من يوسف الخال ، بل تكسبا « لدخل اضافي بسيط » • وهو تفسير يناقض أصول النقد ، اذ أن تقييم الشاعر ودراسته ينبغي أن تنطلق من نتاجه لا من أخبار حياته وعلاقاته الشخصية • حتى علماء التحليل النفسي يرفضون مثل هذه النظرة الى الاثر الفني • يقول كارل جوستاف يونج « ينبغي ان يدرس الفنان ويفهم انطلاقا من فنه اكثر مما يفهم اعتمادا على ما في طبيعته من نواقص وعلى صراعاته الشخصية » • ولا ينصف السياب القول ، بعد ذلك ، انه كان مريضا وفي حاجة الى ما تدفعه له المجلة ، كما أن الدكتور عباس لم يؤيد هذا التفسير باي دليل بل اكتفى بالشائعات يبني عليها حكمه • راجع كتابه « بدر شاكر السياب » ــ منشورات دار الثقافة ١٩٦٩ بيروت • الصفحات : ٢٩٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ •

(١٠) قيل كلام كثير حول التجديد في العروض ونسبة هذا التجديد الى نازك الملائكة أو بدر السياب • كما أن الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي تقصت في أطروحتها (الموسوعية) القيمة حول « التيارات والحركات في الشعر العربي المعاصر » ــ جامعة لندن بوادر هذا التجديد العروضي عند كثيرين قبل السياب والملائكة • وفي رأيي أن أهمية هذا التجديد تكمن خاصة وفي الدرجة الاولى ، في كونه وجها من وجوه التململ العربي • فاذا «جدد» شاعر ما عروضيا و «حافظ» على صعيد النظر والحساسية بات تجديده مزيفا ولا معنى له •

فالتجديد لا يتم لمجرد اللعب الصوري ،ولا بد من معاناة خاصةوتيارات لاواعية تقوض الاسس القائمة وتبحث عن لغة جديدة ٠

وفوق هذا ، **بدأ** السياب ما نجده عند الشعراء الجدد « المتطرفين » من اختراق لجدار الذاكرة في اتجاه الخلق ، وبحث عن ينابيع لغوية بكر لكن هذا يتجلى في عدد قليل من قصائده **كالنهر والموت** و **شناشيل بنت الجلبي** مثلا ، وقد توقف عند البداية ولم يتخلص من سلطان ذاكرته ، ولم يبلغ ما يسميه « جاك ديريدا » ب « **قلق اللغة** » ، هذا القلق الذي يهز **البنيـة الداخلية** أو البنية التحتية للغة (ان صح أن نستعير للغة هذا التعبير السوسيولوجي) ومنطقها الخاص ٠ هكذا بقي السياب ، في معظم قصائده ، ضمن التراكيب والصيغ التقليدية ، ولو حللنا العلاقات الداخلية في صوره وعباراته لوجدنا الغالب عليها علاقات **التشابه** و **التناظر** و **التقابل** و **التتابع** و **التمثيل** أي بقي ضمن نهج المحاكاة ٠ (على أية حال ينسحب هذا على معظم نتاج الحركة الحديثة) ٠ ان مقطعا للعملية الشعرية عند السياب (ويمكن أن نجد مثل هذا المقطع في قصيدة « انشودة المطر » أو « المسيح بعد الصليب » او كلتاهما في رأس قصائده) يظهر لنا بنية فوقية ثورية وبنية تحتية تقليدية ،وأعني بالبنية الفوقية هنا دلالة الرموز والمناخ العام للقصيدة ٠ (يمكن بهذه المناسبة القول ان محاولة السياب هي مقلوب محاولة أبي تمام ، لان أبا تمام حافظ على صعيد البنية الفوقية فظل في نطاق المدح والوصف والرثاء وفي اطار العروض الخليلي بينما تحرك على صعيد البنية التحتية فجدد في العلاقات الداخلية حتى كثرت لديه صيغ التضاد والتداخل واللقاءات الغريبة وفي هذا سر استغراب القدامى لشعره) ٠ الا أن السياب وان لم يخلخل البنية الداخلية التي تمس بنية الفكر فقد استطاع أن يمتص البنى القديمة ويصفيها من ضجيج المبالغات والزخرف اللغوي ويعيد لها ألق البساطة ونفاذ المباشرة ويستغل ما في المألوف من عناصر الحنين حتى جاءت تدفقا سعيدا له لهجة الماء ، لهجة « بويـب » اذ يحتضنه مجراه الاليف ٠

ثمة ملاحظة أخيرة وهي أن السياب ، حتى في المرحلة الرمزية ، ظل يختزن ماضيه الرومنطيقي ، هذا الارث الرومنطيقي شارك في اغناء شعره بمناخ الحنين والكآبة الوادعة التي تستحضر حسرات العتبة وان لم تعرف مفاجآت المغامرة الاوليسية ٠ هذا الارث الرومنطيقي هو ، الى ذلك ، علة ما نلمسه في شعر السياب من **اختراق بطيء لكثافة العالم** ٠ يتجلى هذا الاختراق البطيء في ايقاع التموج وفي التنقل عبر الصور والرموز والتفاصيل (١١) بحيث يقتل ذلك **مسافات الصمت الداخلي** ويشفي مسبقا اللوعة على ما لم يقل ٠

---

(١١) يمكن أن نجد في قصائده كثيرا من أمثال هذه الاضافات التفصيلية واورد هذا المثال كنموذج لذلك من « اغنية في شهر آب » :

« الليل قطيع نساء كحل وعباءات سود »

فاللغة الشعرية التي هي **طقس استحضار** روح متحرك اسمه الدلالة هي عند السياب بسبب هذا الاختراق البطيء والبنى الداخلية التقليدية لغة تؤطر هذا الروح وتبقي شبح والدهاملت على المسرح فتضيع كثيرا من الخصائص الحركية والايجابية ٠

على الرغم من هذا يبقى شعره طاقة توصيل لا معطى نهائيا وهذا ما يميز الاثار الكبرى ٠ وسر ذلك في اتصال السياب بالرموز الانسانية والكونية وفي اكتشافه لاسطورة زمانه ، وما رأيناه عنده من «**وحدة الخيال**» ٠ لان هذا كله جعل لصوره **حركة اشعاعية** بطنت حركة السرد الخيطية الاعلامية ، وهيأ للمحتوى الشعري القدرة على الحياة وتوليد دلالات تخاطب أجيالا مختلفة ، وهو بالتالي ما أنقذ شعره من السقوط في الواقعية الوصفية النقلية واضاءاتها الموقتة التي وقع فيها شعراء الواقعية ٠

هكذا يبدو السياب ظاهرة خاصة ٠ انه خلاصة الاصوات الشعرية التقليدية في بحثها وفي احتضانها بذرة الثورة ، أو هو طموح لغة شعريه الى التحول أي الى العيش في الغد ٠

خالدة سعيد

يوسف الخال

التاريخ والابداع

(لقاء بين يوسف الخال ومنير العكش*)

※ اتخاف من المغامرة ؟ لقد فتحت للشعر العربي بابا كبيرا ، لكنك وقفت خلفه ، بينما عبر منه الآخرون ، وابتعدوا . ان « شعر » التي اسستها ، كانت بلا شك البداية الحية الفاعلة بالنسبة للحداثة الشعرية ، لكننا اذا قرأنا شعرك اليوم بعدما يزيد على ١٥ سنة على تاسيس المجلة ، نجد انك ما زلت في ذلك المناخ الذي تجاوزته الحداثة . كيف تفسر هذه الهوة بين حقيقتك التاريخية وفعلك الابداعي ؟

–على افتراض أنني أوافق على وجهة نظرك ، فانه يخطر لي ، للوهلة الاولى ، مبرر أساسي ، وهو انني نشأت ومارست الشعر مدة طويلة ، ضمن معطيات المفهوم الشعري الذي كان سائدا قبل الحرب العالمية الثانية . وفي حال كهذه ، فمهما بلغت الثورة على هذه المعطيات – فلا بد من بقاء رواسب . ان الميل المحافظ الذي تراه في شعري ، ولا تراه عند الجيل الذي نشأ ضمن الحركة الشعرية الحديثة ناجم عن هذا المراس الصارم الذي تعودت عليه . وهذه ظاهرة واضحة لدى كل الشعراء الذين نشأوا مثلي في المناخ الشعري السائد قبيل الحركة الحديثة ، مثل السياب ، ونزار قباني ، وحتى أدونيس . هذا من حيث صناعة الشعر والاطارات التقليدية .

أقول هذا ، مسلما بافتراضك ، ولكنني أعتقد ان هذا الافتراض ، على وجاهته ، ليس كما تتصور . فأنا اعتقد أن في شعري بعض النواحي الجديدة جدا ، على قلتها ، وأنا بطبيعتي مقل . انني فتحت نوافذ جديدة على المستقبل، وقصائدي ، برغم صبغتها التجريبية ، قصائد ناجحة وان لم تكن ، في اكثرها ، « شعبية » . فرموزها وابعادها الحصارية لا تستهوي القارىء العادي .

※ حتى لو سلمنا بان في الشعر ما هو تجريبي بحت ، فان هذا لا يغير شيئا . ساضرب لك

---

* يتابع هنا منير العكش سلسلة لقاءاته.وقد نشرنا في العدد الماضي من «مواقف» ١٣-١٤ لقاءه مع ادونيس .

مثلا واحدا على الهوة العميقة بين حقيقتك التاريخية وفعلك الابداعي ٠ انت دعوت ، وما زلت تدعو الى « اختراق جدار اللغة » لكنك ما زلت في تلك اللغة التي دعوت الى تجاوزها ٠

ـ غير ضروري أن يستطيع الانسان تجاوز ما يدعو اليه ٠ فاذا دعوت مثلا الى الغاء الازدواجية في اللغة العربية ، باعتماد لغة الكلام لغة أدبية ، فهذا لا يعني انني استطيع بالضرورة ان افعل ذلك او اتوفق اليه ٠ فقد لا اكون دانتي أو تشوسر ٠ ومع ذلك ،فانت تعلم ان لي محاولات في هذا المضمار ٠ وربما أعود الى محاولات أخرى ، وعلى نطاق اوسع ٠ وأكثر ما يعينني في هذه المرحلة هو أن لغة الكلام بدأت تكتب ، خصوصا في المسرح ، ولكن كتابتها في نظري غير صحيحة من ناحية ضبط كيانها اللغوي وقواعدها ٠ فلغة الكلام ، كما درج على كتابتها ، لا تزال متأثرة بالصوتية ، على أسلوب الزجالين ٠ ومن المؤسف أن سعيد عقل تبنى هذه الطريقة ، ودعا اليها ٠ وهي في نظري طريقة تقتلع لغة الكلام من أصولها كلغة فصيحة متطورة من لغة القرآن ٠ وهو موقف ينطلق فيه سعيد عقل من ايمانه الطامح بالمعادلة الاتية : امة لبنانية = وطن لبنان = لغة لبنانية ٠

✻ هل تعتقد ان لك موقفا متميزا عن سعيد عقل ؟

ـ حان لنا ان نتجاوز مرحلة الجدل حول لغة المستقبل ، هل هي لغة الكلام أم لغة الكتابة ؟ تماما كما تجاوزنا مرحلة التساؤل عن الشعر ، هل هو التقليدي ام المتحرر من التقليد ٠ ان الجدل المجدي هو ما يدور الان حول موقفنا من لغة الكلام ٠ هنالك حتى الان موقفان ٠ الاول يتزعمه سعيد عقل ، وهو يرى ان لغة الكلام في لبنان ، كما في كل قطر ، هي حصيلة اللغات التي سادت في هذا القطر أو ذاك ، عبر التاريخ ٠ فلغة الكلام بحسب هذه النظرة هي نتيجة خبرة اللبناني اللغوية عبر التاريخ ، كالفينيقية ، والارامية ، والسريانية ٠٠٠ ثم العربية ٠ واذن ، يقتضي أخذ لغة الكلام هذه وكتابتها كما هي ، صوتيا ، واستخراج قواعدها كلغة جديدة لا علاقة لها بجذورها العربية ٠ فمثلا تكتب « **معلمة** » : « **معلمي** » ، وتكتب « **كتابه** » : « **كتابو** » ، دون ما اعتبار لتاء التأنيث في « معلمة » وللضمير المتصل المذكر في « كتابه » ٠ هذا مع العلم أن التاء في « معلمة » هي ، حتى صوتيا ، هاء مخففة ، وليست ياء ٠ والدليل على ذلك انك عندما تضيفها تصبح تاء مربوطة ،مثل «معلمة المدرسة»، كما هي الحال في اللغة العربية المكتوبة ٠

أما الموقف الثاني ، وهو ما دعوت اليه منذ ١٩٤٢ في محاضرة القيتها في الجامعة الاميركية ، حين كنت طالبا ، فيتلخص بأن لغة الكلام في الاقطار العربية جمعاء هي لغة عربية متطورة من اللهجات « الجاهلية » التي رافقت الفتح العربي ، وفي طليعتها لهجة قريش التي جعلها القرآن لغة الفتح ونموذجا للغة العربية المكتوبة ٠ وبكلمة اخرى ، جعلها اللغة العربية دون سواها ، او اللغة الفصحى ٠ وهي في تطورها تأثرت بالبنية الثقافية والاجتماعية

والجغرافية المحلية • واذا ما نظرنا الى لغة الكلام هذه نجد أن تطورها واحد • وهذا التطور ألخصه لك في نقاط ، اهمها : الغاء الاعراب ، والاستغناء عن عدد من الضمائر ، والاكتفاء باسم واحد من اسماء الموصول ، هو «اللي» ، والاكتفاء باسم اشارة واحد هو « ها » واخيرا الاستغناء عن نون النسوة وضمير المثنى ، الخ ••

هذا مع العلم ان العالم العربي منقسم ، كما في الواقع ، الى أربع بيئات ثقافية ، وبالتالي لغوية • فاذا اعتمدت لغة الكلام في كلٍ من هذه البيئات الاربع لغة كتابية ، ثم تركت لها حرية النمو والاستيعاب والتجربة ، فلن يمضي زمن طويل حتى تبرز شخصيتها المميزة ، تماما كما كانت الحال في العالم اللاتيني•

حين بدأت احاوره في جدوى هذه اللغة ابداعيا وحضاريا ، وخطورتها التاريخية على وحدة العرب ، وتراثهم ، بنية تفكيرهم ، وانه يمكن تلافي هذه الازدواجية بتطوير مناهج تعليم العربية ، متمثلا على ذلك بأن اسرائيل الآن تحاول احياء لغة منقرضة منذ ٢٥ قرنا ، وان وضع هذه اللغة وتعليمها يختلف في لبنان عن بقية العالم العربي لاسباب تعود الى وضع لبنان ، بدأ صوتنا يعلو ، مما اضطرنا الى تأجيل الحوار الى يوم آخر •

وفي الجلسة التالية ابتدرني يوسف الخال بقوله :

ـ انا أعلم أن هناك اعتراضات كثيرة على لغة الكلام ، الخصها لك في نقاط ، وأرد عليها واحدة واحدة •

اولا : ان اعتماد لغة الكلام يفقد العالم العربي عاملا هاما من عوامل وحدته • والرد على ذلك هو انه يجب اولا ان نقرر اذا كان اعتماد لغة الكلام حقيقة ام لا ، فاذا كان حقيقة ، توجب علينا الاخذ بها دون اي اعتبار خارجي • فماذا تفيد وحدة العرب ان هي قامت على اسس مزيفة ومصطنعة ؟

وهنالك من يقولون ان الاخذ بلغة الكلام هو من وحي المستعمرين • والحقيقة هي ان عدم الاخذ بها هو الذي من وحي المستعمرين ، واسرائيل في الطليعة • فهم يشجعون على التعلق بالفصحى لتعميق الازدواجية في الفكر العربي من جهة ، ولابقاء العربي مشدودا الى حقائق ضبابية لا صلة لها بواقعه من جهة أخرى •

ثانيا : بالنسبة للتراث ، فان لنا عبرة بغيرنا من الشعوب التي اعتمدت لغة الكلام دون لغة الكتابة كاليونانية واللاتينية • ان التراث اللاتيني القديم غني جدا ، ولم يفقره أو ينقضه او يحط من قدره كون اللغة اللاتينية لم تعد تستعمل الا في الاختصاص *•

* لكن هناك خلافا جذريا بين علاقة العربي بلغته ، وعلاقة اللاتينية باهلها • فالعربية ما زالت الى الان لغة أمة ، أمة واحدة ، بينما كانت اللاتينية ، زمن الانفصال عنها ، لغة لاكثر من أمة ، ان دانتي لم يقطع الصلة باللاتينية الا حين استهلكت نفسها ، وصارت تحفة لا فعل لها في الواقع • لم يكن بين دانتي واللاتينية علاقة دينية كما هي الحال بيني وبين الفصحى اليوم •

ساقول لك بصراحة : لو لم يفقد النص الاصلي للانجيل لـكان موقف الشعوب المسيحية ، والشرقية منها بشكل خاص ، من لغة الانجيل لا يختلف عن موقف العرب من لغة القرآن • وهذا ما نراه بشكل أكثر وضوحا في علاقة اليهود بلغتهم الدينية اليوم •

- انا أعرف ان هناك فارقا بين اللاتينية والعربية يعود الى نظرية الوحي في الاسلام ، فبينما يؤمن المسلم بأن الوحي منزل بالحرف ترى المسيحية أن الوحي منزل بالمعنى • ثم ان [illegible] باستطاعة شعوب اسلامية تقرأ القرآن ، وتصلي به ، وهي لا تعرف العربية • ثم انني اذا العربي أن يدرس الفصحى كموضوع دراسي ، ويقرأ التراث والقرآن • وهناك كنت أشعر شعورا مسيحيا ، فليس يعني هذا انني ضد التراث العربي • فمنذ ١٩٦٢ أسست لجنة « احياء التراث الفلسفي العربي » ونشرت أول كتاب عن فلسفة أرسطوطاليس ، ثم انني لما التحقت بدار النهار ١٩٦٧ ، أحييت المشروع نفسه باسم « الدراسات والنصوص الفلسفية العربية » أصدرنا منها حتى الان ثلاث كتب لكل من ابن باجه ، وابن سينا ، والسهروردي • واليوم ، بعد ان انفصلت عن دار النهار ، اسعى مع زملاء جامعيين لي الى انشاء مؤسسة ذات منفعة عامة (اي لا تجارية) اسميها « مؤسسة احياء التراث الفكري العربي » • فانا معني جدا بتراثي العربي الذي لا تراث لي سواه ، وانما اريد ان اغنيه واعززه وانقده وافرزه ، وارفض ما ارفض منه واقبل ما اقبل ، وذلك لجعله اساسا حديثا صالحا لبناء حياة افضل لنا ولاولادنا •

❊ ان يكون القرآن موضوعا دراسيا اختصاصيا ، فهذا يعني ان تنشا في الاسلام كنيسة تحتكر فهم القرآن ، كما هي الحال في المسيحية • اي انك بهذا المعنى تريد ان يقوم للاسلام تلك المؤسسة التي جاء اصلا لتدميرها • وأما ان يكون لك تاريخ حافل في نشر التراث العربي فهذا امر لا ينكره احد ، لكنك تعرف ان ما ينشره المستشرقون والمؤسسات المسيحية العربية من التراث العربي هو ذلك الجانب التؤمائي فلسفيا ، والصوفي دينيا وابداعيا ، اي ذلك التراث الذي يصب في النهاية في مجرى الفكر المسيحي • ومن الغريب ان ينضوي معظم ما نشرته من التراث العربي تحت هذا الجناح •

- هذ الكلام ينطبق على المستشرقين اليسوعيين ، بشكل خاص ، وفي مقدمتهم ماسينيون • والمطبعة الكاثوليكية (دار المشرق) لا تزال تعنى بنشر النصوص الفلسفية العربية ، مع ان اكثرها لا يقع في نطاق المسألة التي تعرضت لها • أما بشأن ما أسهمت به في الماضي فلا ينطبق عليه قولك •• والكتب التي صدرت لا تعالج هذه الموضوعات اطلاقا •

❊ نعود الى لغة الكلام ، لقد وصلنا الى الاعتراض الثالث الذي يقول ان لغة الكلام لا تستطيع ان تستوعب الفكر ، لانها فقيرة •

- هذا كلام مردود ، والاعتراض ناشىء من سوء فهم المشكلة • ان لغة الكلام ليست لغة منحطة عن لغة الكتابة ، وانما هي لغة متطورة منها ، فلها كل مفرداتها بدون استثناء ، ولها كل عبقريتها ، وكل امكاناتها •

وكذلك لا قيمة للاعتراض الرابع الذي يقول : اننا بدلا من اعتماد لغة الكلام يجب علينا تطوير المناهج التي تدرس الفصحى ، فقد اجمع علماء اللغة على ان اللغة التي تخرج من اللسان لا تعود اليه • اننا مهما أتقنا دراسة العربية ، فلن نستطيع ان نتكلمها ، واذا لم نتكلمها فلن نستطيع ان نتقنها ، وبذلك تبقى تلك الازدواجية • ان الفرق بين لغة الكلام ولغة الكتابة في اللغات الحية ليس كالفرق بينهما في العربية • فهناك يكمن الفرق في البلاغة وحسن الاسلوب ، وهنا يكمن في التراكيب والقواعد الاساسية •

والآن ، حان لنا ان ندرك ان العقلية الحديثة تقتضي لغة حديثة • فنحن لا نكون حديثين بلغة قديمة • ووعينا هذا يدل على اننا بالفعل قد مشينا في طريق الحداثة • واذا كنا نتحدث عن الثورة اليوم فهذا أول طريقها •

✽ الا ترى معي ان هربك من الفصحى هو جزء من هربك الكبير من تراث هذه الفصحى •

ــ هذا الموقف من اللغة منفصل عن موقفي من التراث العربي ، ولا أرى اي ارتباط بينهما •

✽ كيف تفسر اذن انصرافك عن استلهام رموز ووقائع التاريخ العربي في شعرك ، واستغراقك الكلي في رموز واساطير ما قبل التاريخ العربي ؟

ــ الانسان ، على بقعة من الارض ، يرث جميع ما حدث فيها ، من بدء تاريخها الى يومنا هذا • من هنا كان التراث العربي جزءا مما حدث على هذه الارض التي أنتمي اليها ، مهما كانت حدودها الجغرافية • وانا أرى ان لي ملء الحرية في أن أتأثر بكل هذا التراث • لان ما قبل التراث العربي هام ، ومتصل بالحضارة الانسانية •

أضرب مثلا : في سورية ، يدرس تاريخ سورية من قبل الفتح العربي ، وهكذا في العراق ومصر ولبنان • لماذا ينصرف المصريون الى دراسة تاريخ الفراعنة والاهتمام به ، والانتماء اليه ، بينما ينكر ذلك على اللبنانيين والسوريين والعراقيين •

✽ اما عن الافادة من تراث ما قبل التاريخ العربي ، فان لك ملء الحرية كما قلت في تناوله ، ولكنني تحدثت عن استغراقك الكامل في هذا التراث في مقابل هربك من التراث العربي •

ــ لا تنس أنني شاعر مسيحي ، والمسيحية جزء من تراثي ، ان لم تكن في جوهره وصميمه • والمسيحية مرتبطة ارتباطا كيانيا عميقا مع التراث الذي سبق التاريخ العربي في هذه البقعة من الارض • حتى ان تموز وما يعنيه ــ وهذا موجود في شعري ــ هو اسطورة قريبة من المسيحية ، وربما كان المسيح صورة جديدة لها • فهناك شبه كبير بين المسيح وبين تموز من حيث موته وبعثه •

وانا افتخر بهذا الواقع ، لانه دليل ساطع على انني صادق في شعري ،

لا كالشعراء المسيحيين ، منذ ابراهيم اليازجي الى اليوم ، الذين كانوا يكبتون مسيحيتهم ، ويظهرون بمظهر الشاعر غير المسيحي ، من قبل المسايرة والدعاية والممالأة ٠٠٠ انني اعتقد ان هذا محك صدق الشعراء الحديثين اليوم ٠ ان الشاعر المسيحي الذي يرتبط بتراثه المسيحي هـو شاعر اصيل ٠ وستذكر الاعوام القادمة ان توفيق صايغ هو أحد هؤلاء ، والى حـد ما جبرا ابراهيم جبرا ، وكذلك خليل حاوي ٠ وهذه القضية أدركها عـدد كبير منهم جبرا ابراهيم جبرا ، وأدونيس ، وغالي شكري ٠ حتى ان غالي شكري اضطهد مصر من أجل ما كتبه عني في مقال نشره في مصر بعنوان « شاعر له قضية » ٠

﴿ بما انك مسيحي صادق مع نفسك ، وأسست مجلة كان لها دور هام وتاريخي بالنسبة للشعر العربي ، فهل كان للمجلة طابع مسيحي أو تبشيري ؟

ـ مطلقا ، لم يكن لها مثل هذا الطابع ٠ كان لها طابع الذين ينشرون فيها ٠ ولكن هذا لا يعني ان المجلة كانت بلا هوية ٠ المجلة كيان حي ، يتخذ دائما هوية الاشخاص القائمين عليه ٠ واذا درست مجلة « شعر » جيدا ، تجد ان طابعها يتسم بالنظـــرة الى الحضارة الانسانية كجهد انساني متراكم ، يخص كل انسان ٠ ولذلك دعونا الى الانفتاح التام المطلق على كل الثقافات الانسانية منذ بدء التاريخ الى اليوم ٠ واذا كان لمجلة « شعر » من اهمية ، فانه هذا الطابع الحر الخلاق ٠ ولعل هذا الموقف هو الذي ألب عليها كل هـؤلاء الاعداء ، وأثار حولها الكثير من التهم ٠ فمجلة « شعر » ، لـم تكن كسائر المجلات ، كما انها لم تكن فريدة من نوعها في تاريخ الآداب العالمية ٠ وقيمة مجلة « شعر » كامنة في الشعراء والادباء الذين اسهموا فيها ٠ نعم ، ان المجلة جمعتهم تحت اتجاه عام ، لكن ذلك لم يسلب احدا منهم شخصيته وقدرته ، أو عدم قدرته ، على العطاء ٠ ونحن الذين اسهمنا فيها ، نتطلع الى اليوم الذي ينشأ فيه جيل موهوب جديد يتجاوز المرحلة التي حملت لواءها مجلة شعر ٠ وتمهيدا لذلك اقوم الآن بمشروع اعادة طبع السنوات الاحدى عشرة من المجلة في احد عشر جزءا ، مجموع صفحاتها نحو ست الاف صفحة ٠

﴿ باعتبارك مؤسس هذه المجلة ، أريدك ان تحدثني عن السبب الذي قبلت به المجلة ان يكون بين أسرة تحريرها مواهب شعرية ضحلة عاشت على سمعة المجلة وعلى سمعة شعرائها الكبار ٠

ـ كل حركة تستند الى مبادىء عامة ٠ ومن اهم مبادىء مجلة « شعر » هو ان يكون للشاعر او الكاتب عقلية حديثة ، اي موقف ايجـابي منفتح ازاء التجارب المعاصرة في العالم ٠ واذا كنا اخطأنا في تقييم البعض ، فلأننا اعطينا اهمية بالغة لهذا المبدأ ، ربما على حساب الموهبة والاصالة ٠ واي عيب في الخطأ عن حسن نية ؟ الم تسمع بالقول المأثور « وجل من لا يخطىء ! »

﴿ كيف تفهم العقلية الحديثة ؟

ـ العقلية الحديثة ، كما أراها ، هي العقلية المتحررة من جميع المفاهيم المتوارثة ، بحيث تتيح لها هذه الحرية ان تعيد النظر في هذه المفاهيم ، جيلا

بعد جيل ، بل يوما بعد يوم ، فلا يتبناها لكونها مفاهيم موروثة ، بل يستطيع ان يقف منها موقفا موضوعيا ، ويفحصها ، وينقدها ، ويحكم عليها • وهذه العقلية الحديثة تنعكس بالضرورة ، لا على العمل الخلاق وحده ، وانما تنعكس على مجمل حياة الشخص •

❊ لكن قارىء مجلة « شعر » يجد تناقضا بين هذا المفهوم وبين الواقع • اي بين التصور المثالي وبين الفعل الذي استغرقته الثورة على سطحيات الواقع الخارجي ، واهمها الشكل •

ــ الشكل ، كما قلنا مرارا ، لا ينفصل عن الموضوع في العمل الفني • ولكننا سنفصل بينهما الآن نظريا لشرح ناحية هامة جدا من حركة الشعر الحديث •

ما حدث من تبني التفعيلة الواحدة كأساس للايقاع الشعري ، ثم من محاولات للاستغناء عن القافية ، ثم الاستغناء عن الوزن التقليدي بمجمله واعتماد ايقاع داخلي ينبع من العمل الشعري ذاته ، انما حدث استنادا الى مفهوم حديث لم نخترعه نحن ، وانما تطور اليه النقد العالمي • هذا المفهوم يقرب الشعر ما أمكن من كلام الناس ، مستمدا ايقاعه من هذا الكلام • وحين بدأنا باعتماد التفعيلة ، تبين لنا بعد حين اننا لم نستطع ان نتخلص من البيانية والخطابية والجمالية والتقريرية • فحاول بعضنا الذهاب الى أبعد من ذلك ، فأجرى محاولات لالغاء القافية ، ومحاولات لابقاء القافية مع جواز تسكينها ، بدون ان يكون لها نظير مماثل في باقي القصيدة • واعتمدنا في ذلك على بضعة بحور تقل فيها الخطابية ، وتقترب من النثر •

وبعد حين ، تبين ان ما فعلناه ليس كافيا ، وأننا ما ز لنا في الخطابية والتقريرية والغنائية والسجعية والموزونة • وهنا دخل ما سمي بقصيدة النثر تجوزا • فقصيدة النثر ، كما نشأت في الشعر الفرنسي ، منذ لوتريامون ، هي غيرها في هذه المحاولة الجديدة في الشعر العربي ، حتى ليمكن ربطها ، الى حد ما ، بتجارب جبران ، أو أمين الريحاني في ما دعوه بالشعر المنثور • ومهما يكن ، فقد تبنت مجلة شعر محاولات لم تعتمد على البحور ، ولا على الاوزان الشعرية المتوارثة • وكان اعتبارنا لها شعرا حلالا ، لا شعرا منثورا او نثرا شعريا ، صدمة قوية لمن بقي في أذهانهم رواسب الشعر التقليدي • ثم تقبل هؤلاء القصيدة النثرية على انها كلام جميل ، ورفضوا ان يعتبروها شعرا لان الشعر ، في نظرهم ، لا يزال الكلام الموزون المقفى •

ثم تبين ان هذا الاسلوب نفسه ، المتحرر من جميع القواعد التقليدية ما يزال يعاني ، قليلا او كثيرا من الخطابية والبيانية والبعد عن كلام الناس • وما ان جاءت ١٩٦٥ حتى بدأت الحركة الحديثة تدور في دوامة اسرعت كثيرا في استهلاك جدتها ، ووقعت عند كثير من الشعراء غير الموهوبين في رتابة أتعس بكثير من رتابة الشعر التقليدي •

عندئذ فقدنا كل حماسة تجاه انفسنا وتجاه شعراء الجيل الناشىء ،

الذين كانوا ينسجون على منوالنا • وهذا ما أشرت اليه في مقدمة العـــدد الاخير من مجلة « شعر » ، حين توقفت في نهاية ١٩٦٥ ، قائلا اننا اصطدمنا بجدار اللغة • فالادب الحديث لا يكون حديثا ما لم يكتب بلغة حديثة • ولغتنا الحديثة هي اللغة التي نتكلمها ، وفيها يجب ان نكتب نثرا وشعرا ، شعرا يستمد لغته وتعابيره وعبقريته وايقاعه من كلام الناس •

*** هناك من يربط بين التطور الفني والانتماء الديني والسياسي لاسرة تحرير مجلة « شعر » اننا نعرف ان اسرة تحرير « شعر » كان معظمها ، بالنسبة الى المنطقة ، ينتمي دينيا الى اقليات طائفية ، وسياسيا الى اتجاهات ، ابرزها الاتجاه القومي السوري • فما تفسيرك لانعكاس ذلك الواقع الطائفي والسياسي على الاتجاه الفني للمجلة ؟**

ــ هذا الاتهام ، له ما يقابله في التاريخ العربي • وقد عبر عنه ، فـــي وقت مضى ، بالشعوبية • ويمكن تحديد الشعوبية بأنها كل خروج عـــلى التقاليد الرسمية المتبعة في الحياة والفكر • وتحت ستارها في الماضي ، وتحت صيغها المختلفة حديثا ، يحاولون خنق كل تجدد ، وكل تحرر ، وكل خروج عن السياق العام المألوف • وبكلمة أخرى ، صارت الشعوبية صنوا للتمرد •

أما فيما يختص بمجلة شعر ، فقد وجه اليها هذا الاتهام ، لانهـــا كانت كذلك • واذا صادف ان طغى عليها الانتماء الى طوائف معينة ، وهي مـــا سميتها انت بالاقليات ، أو كان بعض الذين قاموا عليها ، كانوا فيما مضى ، او لا يزالون الى الآن ، يدينون بالولاء للحزب القومي الاجتماعي ، فهذا مـــن قبيل المصادفة • والا ، فكيف تفسر وجود اشخاص تجاوبوا مع الحركة الشعرية الحديثة التي حملت « شعر » لواءها ، وهم ليسوا من الاقليات ولا من اتجاه عقائدي معين •

ومن أسف أن هذا الاتهام كان عاملا اساسيا في عزل المجـلة آنذاك ، وفي وضع العراقيل امام تأدية رسالتها • ولا بد انك توافق معي عـــلى ان السنوات الاخيرة برهنت على عدم صحة هذا الاتهام ، وعلى انه كان ظلما ، وعلى ان الذين حملوا رسالة المجلة استمروا في القيام بواجبهم في تطـــوير الفكر العربي عموما ، كل بحسب اتجاهه ومعطياته •

*** لكن هذا لا ينفي الارتباط الوثيق بين الصيغة الفنية والصيغة الطائفية والسياسية للمجلة ، لا سيما وان الحركة الشعوبية لم تكن حركة ابداعية بقدر ما كانت حركة سياسية وان الاتهام بالشعوبية كان قصرا على الاتجاه السياسي • وانت تعرف ان « ابا نواس » مثلا اتهم بالشعوبية السياسية لا الابداعية •**

ــ مما يستوقف النظر ، ان معظم الحركات التجديدية والابداعية فـــي التاريخ العربي جرت على أيدي من يسمونهم بالشعوبيين • وعلينا ان نسجل هنا واقعا ، وهو ان كل تجدد وابداع في كل تراث ، انما يأتي من خارجـــه ، سواء كان هذا الخارج من ضمن التراث او من التفاعل مع تراثات أخرى •

والحركة الشعرية الحديثة ، ما هي الا حصيلة جهد بعض الذين وقفوا في الخارج ، خارج السلفية والاتباع والتقليد ، ونظروا الى انفسهم والى العالم بحرية مسلحة بالابداع والثقة والشجاعة والايمان • واريد ان اعرف من سوى هؤلاء وامثالهم يرجى على ايديهم اي خير في صراعنا المستميت من اجل البقاء •

❊ لعل طغيان التيار النقلي هو الذي اثار الشبهة حولك ، حين اتهموك بانك لست عربيا ، وانه ليس في شعرك نزعة عربية •

ـ انا لا أفهم القول بوجود نزعة عربية واحدة ، وان الخروج عن هذه النزعة يخرج صاحبها من عربيته • فما هو تحديد النزعة العربية ؟

❊ انه ذلك اللهب الذي قدم العرب الى العالم كامة ذات حضارة ، هذا اللهب الذي لم يستطع العرب الى اليوم بعد مضي ١٤ قرنا ان يقدموا شيئا غيره ، او خارجه •

ـ اذا كنت تعني الاسلام ، وتعرف النزعة العربية بأن جوهرها الاسلام ، وان كل من هو ليس مسلما يعتبر ذا نزعة غير عربية ، فأنا ، مثلا ، لست عربيا • واذا كان المسلمون جميعا يتبنون هذه النظرية ، فاني لا الام اذا انا سعيت الى ايجاد مجتمع غير مسلم ، أو بمعنى آخر : مجتمع مسيحي اعبر فيه عن نفسي ، واحقق فيه كياني • وهنا نضع يدنا على حقيقة الحركات التي قام بها غير المسلمين من العرب ، لاقامة مجتمع أو وطن خاص بهم • لقد نجح المسيحيون العرب ، أو بعض المسيحيين ، في اقامة الوطن اللبناني ، وهم لا يلامون على ذلك ، اذن ، ما داموا لا يعتبرون عربا ، لمجرد انهم غير مسلمين •

❊ انت تعرف ان قيام هذا الكيان يخالف ابسط ما تعارف عليه المجتمع الانساني والقانون الدولي • ذلك لان قيام دولة تمثل ارادة الاكثرية في منطقة ما ، لا يعني على الاطلاق ان ينعكس ذلك بما يسمى بالشعور بالاضطهاد على أقليات تلك المنطقة • ثم ان هناك واقعا تاريخيا في هذه المنطقة بالذات يشهد بأن اقليات هذه المنطقة كانوا يعيشون عيشة اكثر انسانية مما هي عليه الان في تقوقعهم وانغلاقهم وشعورهم العدواني نحو الاكثرية • ان منطقك هذا نفسه يفرض على لبنان ان يكون اكثر من عشر دول • ولا شك انك أخبر مني مثلا بشعور البروتستانت او الكاثوليك الذين ما يزالون يعتبرون لبنان متصرفية مورانية •

ـ أنا لا استغرب تمسك المسيحين بلبنان ، وتضايق غير المسيحيين منه • والميثاق الوطني ، الذي تم في ١٩٤٣ في لبنان ، يعني ان المسلمين والمسيحين قرروا التعايش معا ضمن وطن لبناني لا سيادة فيه لفريق على فريق • وحركات العنف الكلامي وغير الكلامي التي تحدث من حين الى اخر في لبنان انما تدور حول كيفية تطبيق هذه الصيغة •

لبنان في وضعه الحاضر أعظم تجربة ابداعية في تاريخ العرب الحديث • هل بامكان المسلمين العرب والمسيحيين العرب ان يتعايشوا في مجتمع واحد لا تكون جوهر نزعته الاسلام او المسيحية ، وانما تكون جوهر نزعته قيم جديدة

تنشأ ، مع مرور الزمن ، من تفاعل الاسلام والمسيحية ؟

*** ان تضايق غير المسيحيين من قيام دولة مارونية على ارضهم ، راجع الى ارتباط مشيئة قيام هذه الدولة بمشيئة استعمارية ، أي ان تململهم ونقمتهم تنصب في الاول على الدور الذي ارادته تلك المشيئة للبنان ان يلعبه في المنطقة ، أي ذلك الدور الذي يريد ان يحل المنطقة في مركزية الحضارة المسيحية الاوربية . وهنا احب ان اسألك سؤالا خاصا : كيف استطعت ان توفق بين ثورتك ومسيحيتك ؟**

ــ فكرة « الدين لله والوطن للجميع » فكرة عقيمة لا معنى لها . فالدين ليس ممارسة ولا صلاة ولا طقوسا .. بامكانك ان ترفض كل ذلك وتبقى مسلما أو مسيحيا ، ذلك ان الدين تفسير للوجود ، اي لعلاقة الانسان بالانسان ، وبالطبيعة ، وبما وراء الطبيعة . على اساس هذه النظرة ينشأ تراث معين ، وطريقة حياة معينة . فالحضارة الغربية لا نستطيع ان نفصلها عن المسيحية ، لا من حيث الطقوس ، وانما من حيث هي نظرة معينة في الوجود . فعندما تتأثر بالحضارة الاوروبية ، فأنت بحكم الضرورة ، تتأثر بخلفيتها ، ومن ضمنها المسيحية .

واذا كان الغرب ثار على التزمت الكنسي ، فليس يعني هذا انه ثار على المسيحية كتصور للوجود . أما ما سميته بالمركزية الاوروبية في الحضارة ، فبالامكان شرحه كما يأتي : الحضارة الانسانية نشأت وترعرعت في حوض البحر المتوسط ، وفعلت فيها ، عبر التاريخ ، شعوب مختلفة ، وعلى مراحل . كان عندك العبرانيون ، فالآراميون ، فالكنعانيون ، فاليونان ، فالرومان ، فبيزنطه ، فالعرب . واخيرا .. الشعوب الاوربية .

ومنذ ان حملت الشعوب الاوروبية لواء هذه الحضارة ، في أوائل القرون الوسطى ، تطورت هذه الحضارة واصبحت على ما هي عليه اليوم ، وذلك بفضل عبقرية الشعوب الاوروبية وجهدها العقلي والروحي . وهكذا نشأت المركزية التي تحدثت عنها . والحضارة الاوروبية اليوم ، ليست أوروبية بالمعنى الجغرافي ، وانما هي حضارة انسانية مركزها اوروبا ، بمعنى ان الفاعل الاكبر فيها ، الشعوب الاوروبية . وكل شعوب أخرى ناهضة في الوقت الحاضر ، أو التي تسمى بشعوب العالم الثالث ، انما تنهض وتكقدم بقدر ما تفهم هذه الحضارة ، وتتفاعل معها ، وتستفيد منها . ولا أمل لها على الاطلاق بغير ذلك . فكما ان الشعوب أخذت ، بعضها عن بعض ، عبر التاريخ ، كذلك يجب ان تفعل في عالمنا الحديث . ذلك لان الجهد الانساني جهد مشترك بين جميع بني البشر . وعنوان تقدم أو نهضة شعب من الشعوب هو مقدار ما يعتبر ان نتاج الشعوب الاخرى نتاجه .

والعرب لا يكونون بالفعل ناهضين الا حين يعتبرون شكسبير شاعرهم ، كما هو شاعر الانكليز ، ويفخرون به . واظلم مصير ينتهي اليه العرب هو استمرارهم على الفصل بينهم وبين سواهم ، وعلى عدم التمييز بين الجهد

العقلي لشعب من الشعوب أو مجموعة منها ، وبين علائقها السياسية ومـا اليها • فالصين لا تتفق سياسيا ، ولا دينيا ، ولا خلقيا مع اوروبا ، غير انها غرفت وتغرف من الجهد الانساني الاوروبي في جميع الحقول • وهكذا فعلت روسيا واليابان • وهذا ما جعل مثل هذه الشعوب تنهض وتتقدم •

وفي كلامك المحت الى الخوف المزمن المهلك الذي استولى على العرب ، طوال تاريخهم ، من الانفتاح على الحضارات الاخرى التي قامت بالضرورة على مذاهب واديان مختلفة • ما هكذا يضع التاريخ ، وما هكذا تحيـا الشعوب وتنمو وتنهض • واذا كان الاسلام حقيقة ، فيجب ان يصمد امام جميـع التحديات ويتغلب عليها ويقوى بها • واما اذا لم يكن حقيقة ، فعبثا الانكماش والتخوف والقوقعة • فمثل هذا الموقف يدل على ان المتقوقعين لا يثقـون بالاسلام ، ويعتبرونه « الحيلة والفتيلة » ، فاذا ضاع منهم ، فنوا وهلكوا • وهم لو عقلوا لادركوا ان الدين ، كسواه من القيم الانسانية ، انما يحيـا بالتجدد والتغير • وهذا ما تحاول الكثلكة ، مثلا ، ان تفعله اليوم امـام تحديات العصر •

اما كيف اكون ثائرا ومسيحيا في آن واحد ، فأنا مسيحي بالمعنى الذي ذكرته ، لا بمعنى الممارسة • انا مسيحي تراثيا ، اي انني احمل نظرة فـي الوجود مستمدة من المسيحية وتجدد مفاهيمها عبر التاريخ •

*** هل تفصل في مفهومك النقلي هذا بين مسيحية أوربا وتقدمها ؟**

ــ ينطلق كل دين من الدعوة الى حياة أفضل ومصير أفضل • وبما ان المسيح لم يضع كتابا ، فان جوهر المسيحية هو شخص المسيح لا ما روي عن لسانه وعن سيرة حياته • اما الاسلام فان جوهره القرآن • ومن حسن حظ المسيحية ان الذين فسروا حياة المسيح واقواله وشرحوها ولوهتوها هم مـن صميم الحضارة الانسانية النامية في حوض البحر المتوسط ، هذه الحضارة التي قلنا ، فيما سبق ، انها مركزت الجهد الانساني العقلي والروحي • وهكذا جاءت المسيحية من ضمن هذه الحضارة الانسانية ، فتفاعلت معها واغنتها ، بل غيرتها وطبعتها بطابعها •

ومن سوء حظ الاسلام ان الذين فسروه واجتهدوا فيه ، لم يكونوا من صميم هذه الحضارة ، بل كانوا على هامشها • لذلك لم تدخل ضمن هـذه الحضارة الانسانية ، ولم تتفاعل معها ، ولم تطبعها بطابعها ، بل عـلى العكس ، ظلت غريبة عنها ، فناصبتها العداء حتى هـذا التاريخ • ومشكلة المسلمين اليوم هي وقوفهم ضعفاء أمام ورثة الحضارة ، الاقوياء في كل شيء • فما لم تنهض في الاسلام عقول متفتحة على الحضارة الانسانية الواحدة ، فاني لا أرى للمسلمين ولا للعالم الاسلامي الا ذلك المصير المظلم •

*** اسمح لي ان اقول ان هذا الكلام ينطوي على مغالطات تاريخية او تجاهل للحقيقة • ان**

تقول ان الحضارة الاسلامية لم تنفتح على الحضارات ، فيكفي ان اقول لك ان اوربا نفسها عاشت اكثر من ثلاثة قرون على فهم ابن رشد لارسطو ، وانه لولا العرب لبقيت معظم حضارات العالم القديم فشذرا أو حجرا • لكنني احب ان اوضح ناحية مهمة في اختلاف مفهوم التفاعل مع الحضارات بين المسيحية والاسلام • فبينما كانت الشعوب تستقبل المسيحية وتطبعها بطابعها ، أو تغيرها ، كما ذكرت ، بحيث تنصهر في موروثاتها الوثنية وعقليات شعوبها ، كان الاسلام من القوة بحيث استطاع ان يصهر كل موروثات الشعوب فيه ويقنيها ضمن تصوره العام للكون والانسان والحياة • وهذا يوصلنا الى نتيجة مهمة تعرفها جيدا ، وهي ان المسيحية التي ضاعت مصادرها الاولى ، وانتهت تاريخيا بارتفاع المسيح الى السماء ، هي اليوم ديانة اخرى مزيج من ديانات وعقليات الشعوب التي آمنت بها ، بينما بقي الاسلام بسبب تواتره التاريخي محافظا على جوهره ، برغم اتصاله بكل الشعوب التي اتصلت بها المسيحية •

ــ هذا الكلام صحيح من الناحية السطحية ، أما من الناحية الحقيقية فهو خطأ • صحيح ان معظم الذين فسروا أو شرحوا الاسلام تأثروا بالمنطق اليوناني عن طريق ما تسرب اليهم من ترجمات • لكن هذا التأثر كان ميكانيكيا لا معاشا ، ولا هو جوهري وصميم •

وما تقوله عن أن أوربا أخذت الفكر اليوناني عن طريق المسلمين ، فهو صحيح من الناحية الشكلية والسطحية • صحيح ان ابن رشد ، وابن سينا ، والفارابي اطلعوا على ما وقع بين ايديهم من ترجمات عن الفكر اليوناني ، واعجبوا به ، وحاولوا على أساسه تفسير النصوص الاولى للاسلام تفسيرا عقليا منطقيا •• وبكلمة اخرى : صحيح انه كان هنالك تيار عقلي فلسفي تأثر بالاغريق والرومان والحضارة الانسانية الواحدة ، غير ان هذا التيار لم يفعل في الاسلام ، لانه نبذ ورفض • اما الذي دخل الاسلام وفعل فيه ، فهو التيار اللاعقلي ، اللاحضاري الذي كان يمثله الغزالي وسواه •

واذن ، فجوهر الاسلام لم يعط في واقع الامر فرصة تفاعله واحتكاكه العميق بالجهد الانساني ، العقلي والروحي ، الذي كان متمركزا ، آنذاك ، في حوض البحر المتوسط •

وقولك ان البيئة الحضارية التي انتشرت فيها المسيحية هي التي كونت المسيحية ، انما ينطبق كذلك على الاسلام ، ذلك ان البيئة الحضارية التي انتشر فيها الاسلام هي التي فسرته حسب خبرتها وعقليتها ونضوجها • فكلاهما ، الاسلام والمسيحية ، متأثر بعقلية الشعوب التي انتشر فيها •

✻ قرات منذ فترة كتابا للاب ميشال حايك يتصور فيه انه لا يمكن حل القضية الفلسطينية الا بتنصير المسلمين ، على اعتبار انهم يؤمنون مع المسيحيين بنزول المسيح لتخليصهم • كيف تتصور انت من وجهة نظر مسيحية شرقية مستقبل القضية الفلسطينية في الوقت الذي يعتبر فيه كثير من المسيحيين ان قيام اسرائيل هو نبوءة انجيلية ؟

ــ ليس من الضروري ان يتنصر العالم الاسلامي • وهذا غير وارد ، ولا

يستطيع البت فيه الا الله · وكل ما يمكن قوله ان الاسلام يجب ان يعاد تفسيره في ضوء معطيات الحضارة الانسانية الواحدة ·

أما بشأن القضية الفلسطينية ، فاننا اليوم ازاء انغلابنا على أمرنا ، ومحاولتنا النهوض الى مستوى لائق يضعنا في مصاف الشعوب الفاعلة في التاريخ البشري ، نجابه خطرا مصيريا يتمثل في قيام التحدي المباشر المتمثل بوجود اليهود في فلسطين · والمسألة اليهودية مسألة تاريخية عويصة ولها مدلول عميق · واليهود يدخلون اليوم الى المنطقة ، كما دخلوها في الماضي وهم ، روحيا وعقليا ، من خارجها · ففي الماضي جاؤوا باله غير الاله الذي كانت تعبده الشعوب السامية في المنطقة · واليوم يعودون باله جديد يتمثل بعقلية جديدة وروحية جديدة لا تمتان الى عقلية هذه الشعوب وروحيتها · ولذلك فاني لا ارى لليهود الجدد غير المصير الذي انتهى اليه اليهود القدماء : صراع وعراك مع الشعوب السامية المجاورة الى ما شاء الله ، تماما كما جرى في الماضي ·

لذلك يخطىء من يزعم ان اسرائيل انما وجدت كرأس جسر للغرب · فالمتتبع لاقوال اليهود الصهيونيين ، يلاحظ بأنهم يأتون بجميع البراهين ليقنعوا العرب بأنهم من داخلهم ، وبأن ازدهار المنطقة وبناءها غير ممكن الا بالتعاون معهم · طبعا ، هذا غير ممكن لانهم مختلفون عنا ثقافيا وروحيا · وانا اعتقد ان القضية الفلسطينية لا تفهم على حقيقتها الا باعتبارها جزءا اساسيا من المسألة اليهودية عبر التاريخ · فمنذ ان خرج اليهود من مصر أحدثوا مشكلة كانت ، اول الامر ، محلية · ثم صارت مشكلة رومانية ، ثم بيزنطية ، ثم لما انتشروا في العالم صارت مشكلة عالمية ·

والتاريخ ، بجميع مراحله ، كان معنيا بحل هذه المشكلة · والانسان يعجب بهذا الشعب القليل العدد الذي لاقى جميع اصناف الاضطهاد ، على أجيال عديدة ، ولكنه ظل متمسكا بشخصيته الفريدة التي لم يتنازل عنها ، وبادعائه بأنه شعب الله المختار ، وانه معد لان يخلص العالم · هذه الظاهرة تدع الانسان يفكر بكون المسألة اليهودية ليست مجرد مسألة اقتصادية أو سياسية او اجتماعية (مثلا ، ايجاد مأوى لهم ، وخصوصا بعد اضطهاد النازية لهم ·) ، مع ان هذا لاصق بجلد المسألة لا بقلبها ·

ولا يكفي ان يفسر البعض نفوذ اليهود في العالم وقدرتهم على العودة الى فلسطين ، تفسيرا قائما على اساس ماركسي ، أو سياسي ، او اجتماعي · ذلك لان جوهر القضية هو ان اليهودية دين ودنيا ، ولذلك فهي مرتبطة بجذور تاريخية في ارض معينة · واذا كان هذا صحيحا ، فان حل القضية يجب ان يأخذ ذلك بعين الاعتبار ، ولعل هذا ما يجعلنا نقف امام خطر مصيري · واملنا في الخلاص هو ان نتكاتف ونصمد الى ان يجيء اليوم الذي ندفع هذا الخطر عنا ، وربما بالتعاون مع قوى اخرى في العالم ترى ان المشكلة اليهودية هي مشكلة عالمية لا فلسطينية ولا عربية فقط ·

*** هل ترى في المجال العربي علامات تبعث على مثل هذا الامل ؟ وما دورك ودور الشعر في هذا الفعل ؟**

ـ أنا ثائر بقدر ما انا شاعر · الشاعر هو الذي يغير بالفعل · وصانعو التاريخ شعراء ، بمعنى انهم مبدعون وخلاقون · لذلك فانني انظر الى كل حركة ثورية واحكم عليها ، بمقدار ما حققت من تغيير جذري في الحياة والفكر ·

لذلك ، لا ثورة اليوم في العالم العربي · لكن هذا لا يعني انه لم تطرح افكار ثورية هنا وهناك · كما لا يعني انه لا يوجد قلة من الثوريين في العالم العربي · انما الذي اعنيه هو ان المجتمعات العربية لم تنطلق بعد على اساس ثوري · فالثورة الحقيقية هي التي تعيد النظر في كل شيء ، ابتداء من مفهومنا لله قبل كل شيء · ولا يمكن قيام ثورة بدون اعادة نظر في كل المفاهيم التي ورثناها ·

*** الا ترى في العمل الفدائي نهاية لعهد الثورة الشفهية ، وبداية جادة في طريق النهوض الحضاري الذي ذكرته ؟**

ـ العمل الفدائي عمل رائع جدا · فهو وحده الذي يعبر عن الارادة الحقيقية في الصمود والانتصار · لكن العمل الفدائي ليس نظرية مجردة ، ولا يكفي ان يكون كذلك ، وانما يجب ان يتجسد بأشخاص قد يشملون الشعب كله · ان هؤلاء الاشخاص الذي تجسد فيهم العمل الفدائي الفلسطيني والعربي حملوا معهم كل رواسب المجتمع الذي انبثقوا منه ·

فالعمل الفدائي لم يستطع ان يعيد النظر في المفاهيم الموروثة ، يخلق عقلية جديدة · لكن هذا لم يمنع وجود شهداء وشجعان · ثم ان العمل الفدائي جابه صعوبات جمة ، وهي معروفة ، ولا لزوم لاعادتها · وانا أرى ان العمل الفدائي لا يكون ناجحا ما لم يحفظ نقاوة الفداء وكرامته · فلو انه فعل ذلك ، لكان نواة تتجمع حولها القوى الثورية السليمة في المجتمع ·

(يوسف الخال ، منير العكش)

فاضل العزاوي

تعاليم ف. العزاوي الى العالم

١

أشعلتُ مراكبَ آبائي للموجة ترقى في ساحل أفراحي
معراجَ الثورة ؛ شاهدتُ حدوداً تهدم (كانت روحي تقصـــد وادي الفهم ، تعاشر في ليلٍ
أبيض أشباحاً من مدن غارقة في الماءِ) . صرخت : لأهربْ من هذا الجسد المائل كالشارة (١)
لكن الصحراء رأتني ، تبعتني كالأفعى
فعدوت الى مملكة أخرى
ورأيت البحر .

٢

هكـــذا دخلت الشوارع تحرق ، والواجهات الزجاجية تغلق بوجه المظاهرات تطالب بالخبز والعمل .

رأيت الدبابات تمر يقودها جنود فقراء ، مسلحون بالرشاشات
رأيت طائرات الميـغ تتسلق كتف الوطن
ملقية فوق رؤوسنا أطناناً من المنشورات والديناميت والشوكولاته
ولذلك جلست أمام حديقة الحب ، مفكراً
أن الأطفال يمكن أن يموتوا بلا مرض

وأن الحروب تطلب من أصدقائها أن يقهروا الله / صديقنا المتوحد الذي يقعد منـــذ الأبد على حافة الكون / ملقنـــاً إيانا تعاليمه : الافيون المجاني ـ ماركس . ولهذا أقدم شكري ، فالمخدرات باهظة الثمن هذه الايام . وقد اعتقلوا صديقي (جوني) في لندن لانه كان يبيـع قرص الـ (L. S. D.) بباون كامل ،غير قابل للتخفيض الا للشعراء واليساريين ، ولواطيي نهاية الليل .

وفي هذا العصر ، اذ تصبح الذكريات فيما بعد
تأريخاً يقرأ في المدارس الابتدائية (ربما في الصف السادس بالذات)
سرقت للتسلية ذات مرة شرطياً من بيت الدولة
غسلته بالصابون والديتول شهراً كاملاً (٢)
ثم زرعته في حديقة الوطن
غير أنه ظل شجرة ميتة الى الابد
وفي الصباحاتِ اذ أمر به كنت أقول : متى تزهر يا عزيزي الشرطي ؟
ـ ليس الآن على الاقل ، ليس الآن .
وعندما مات بكيت كثيراً
فقد كان أوسع من وطـــني .

٣

ممنوعٌ أن أكتب أسماني
أن أرثيَ جيـــلي
أن أسرق شيطاناً من عاصمة الله
ممنوع أن أحلم اني أحـــلمْ
أن أجلس كالاعمى وأجوب العـــالم في سيارة اسعاف

وأفكر أني :
رجلٌ يشنق في ساحة بيتـــه

وأفكر أني :
رجلٌ دون مزايا ، رجل في مملكة المجهولـــينْ
يصرخ : (هذا صوتي)
فيجف على شفتيه الصوت
ويموت الموت
(أنظر . أكتب . اشهدْ)

ممنوع أن أجلس وحدي فوق رصيف، أبكي حزني
ممنوع أن أدخل مرحاضاً ، وافكر في المستقبل
ممنوع أن أحلم اني ف. العزاوي
اني كرسي مقتول
اني وطني .
ولهذا أسرق قديساً ملتحياً من ملجأ
وأسافر بين دماء الممنوعين
نحو مرايا الروح .
(هذا صوتي) .

٤

مرة اذ كان الليل يسير راء غابة
سمعت اعرابياً يقول : أنا شجرة
قلت : كيف يكون ذلك ، وأنت عائد من حزيران ثلاث مرات ؟
قال : تعالَ معي .

واذ سافرنا نحو الليل على عربـــة
سمعت القديسين يُعلنون :
أن العالم ممنوع على الشهداء
الا في حالات الطوارىء
والتعديلات الوزارية .

•

لمـــاذا ؟
لمـــاذا ؟ لمـــاذا
لمـــاذا ؟ لمـــاذا ؟ لمـــاذا ؟
لمـــاذا ؟ لمـــاذا ؟ لمـــاذا ؟ لمـــاذا ؟
لمـــاذا ؟ لمـــاذا ؟ لمـــاذا ؟
لمـــاذا ؟ لمـــاذا ؟
لمـــاذا ؟

سقطتَ وأنت السماء تظلل وجه الضحيه ؟
لماذا وقفت تحدق في الواقفين أمام الليالي ؟
فقد كنت في جسدي صرخة وقضيه
وكنت سؤالي (لهذا تقدّمت صوب فنارك ، أعطيت سري ،
وفكرت أنك بي تملأ الارض ضوءاً ، وبي تستقيم الحقيقه
وينهض موتى السعادة من عتمات السجون
وفكرت بالشعب يعبره الفاتحون
وفكرت أني حديقه .

تعالوا الى وطني وامرقوه
تعالوا الى وطني ، شاركونا المجاعه
كلوا خبزَنا المرّ يا أنبياء اليهود
كلوا من دمي يا حجيج الجنـــود
كلوا ـ أيها الفرس ـ من لحم شعـــبي
فقـــد سقطت من حدودي الحدود .

تعالوا الى وطني واقتلوه

تعالوا الى جسدي واعبروه
فقد كنت يوماً حديقه .

٦

لانني غيمة تمطر فوق جنازة البحـــر
أجلس اللحظة بين الزندقة والرياح
على كرامي المدن ، بينما يوفر الطاعون نقوده
لابتياع شعب ، فأرى تماثيل العالم كله
تهبط الى الشوارع وتضاجع أطفالهـــا
ليولد جيل بلا امتيازات
تدفىء أحلامه الشيزوفرينيا .

من أجل هذا ، وغير هذا ولـكي لا نفرط في دعاوانا
داخل عصر جديـــد
قررت ان اكتب هذه الرسالة الى رأسي
(كن غريباً
يعبرك مقاتلون من الف جهة)
والبحر منزهاً عن أيما قصعٍ ينادي رمالاً هي وطني
أن تطفىء الزبد الذي يشكّلُ دوائر الزمن
حيث تدخنُ السعادة تعاسة الفقراء
ويكتب الحكماء عن ،

- صناعة الطيور
- البروليتاريا تفاوض ماو لافتتاح مصانع جديدة للتعايش السلمي
- الانسان بلا أطراف ،
وحضارةِ الحب .

هالو فاضل العزاوي
هذا أنا أتحدث اليك من جوف الازمة
ممتلئاً بالاسماك والجثث والدبابيس
حيث لا يوجد نفق .
تعال لنذهب الى ديغول ، ونحدثه عن مايس ١٩٦٨
تعال لنذهب الى جنرالات اليونان ونسمع موسيقى زوربا
تعال لنذهب الى ناسيتون وهو يأكل الشيوعيين

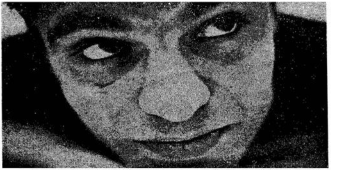
تعال لنذهب الى ستالين ونخبره عن خروشوف
تعال لنذهب الى عمان وننظر في كل العواصم العربية
تعال لنذهب الى سجن ما ، ونحدثه عن كل السجون
تعال لنذهب الى لا مكان .

٧

في الفجر نهضت ، رأيت ممرات مقفلةً ، وجداول آتية من صحراءْ
أمسكتُ عصافير الغابه
أهديت الاطفال علوم الثوره
خلفت ورائي الانهار
عاشقة تهرب في أزمنة الشعب
وسمعت الاشجار تغني
لليـــلْ
وسمعت الانسان يعاني الوحشةَ بين النـــاسْ
والبحر يوحد أطفاله في الريـــح :
يا وطـــني المسكوب على حزن الشرق
قل لي ،
كيف يكون الاسرام بدون جناح !
كيف يكون الميلاد بدون شهادة موت !
وعلى
أرصفة الاحلام ، طيورك كيف تغادر غابات القلب !

٨

أنظروا الى هذا الرجـــل



أعرف انه سيموت في احد هذه الايام ،
السبت ، الاحد ، الاثنين ، الثلاثاء ، الاربعاء ، الخميس ، الجمعة
وفي أحد هذه الاشهر ،
كانون الثاني ، شباط ، آذار ، نيسان ، مايس ، حزيران ، تموز ، آب ، ايلول ،تشرين الاول ،
تشرين الثاني ، كانون الاول .

أنظروا إنه يكتب اشعاراً
لكي لا يموت
في أيام الاسبوع أو أشهر السنة .

ملاحظة : من اجل اختصار هذا المقطع أرجو القراء ان يضعوا اسم اليوم والشهر الذي سأموت فيهما فقط (بعد وفاتي بالطبع) بدل ذكر كل أيام الاسبوع وأشهر السنة .

٩

بيان موجه من آخر خندق للثورة :

قاتلوا من أجل عالم أكثر سعادة

فنادق مجانية

تعالوا وناموا معنا على أسرّة موحدة

ثورة عالية في المدن والارياف لتأسيس شركة المجتمع الحر (ذ.م.م)
نعلن أننا نعمل من أجل :

١ ـ تزويد البورجوازية بحقول تجريبية لزراعة النظريات
٢ ـ ارغام الكنائس على تقديم صلوات مجانية للخراف غير الضالة ايضاً
٣ ـ اعفاء الموتى من دفع ضريبة الدفن ،مع العمل على توسيع قبورهم بصورة خاصة
٤ ـ تزويد التعساء بأقراص السعادة بتخفيض ٧٥ ٪ على الاقل .

اللجنة القديمة للثورة الجديدة

١٠

اقتادني جلاد ، حليق الرأس ، ضخم كشجرة الى مجلس سلطان عباسي ، لم أعد أذكر اسمه (وربما لم يكن يحمل إسماً على الاطلاق) فطلب مني السلطان بأدب ، مداعباً لحيته بأصابعه أن أصنع له طائرة يغير بها على أعدائه المجتمعين في خراسان .

غير أنني رفضت طلبه (ماذا تتوقعون مني غير ذلك ؟ فأنا ضد الحروب التي لا تقدم لي شيئاً) ولا أعرف كيف علم السلطان انني اجيد صناعة الطائرات الحربية .

قال لي السلطان : أنت ترفض إذن .

قلت : طائرة . يا لك من اعرابي وقح . اذهب واركب جملا . فما دمت لا تعرف من هو اينشتاين فانك لن تركب طائرة على الاطلاق . ترى كيف عرفت بوجود الطائرات ؟ ان هذا لشيء مضحك حقاً .(٣)

ضربني الجلاد على قفاي بقبضة يده القوية فهويت على ركبتي . ومع ذلك تخاذل السلطان امامي وقال مخادعاً : حسناً سأجمع كل فقهاء وادباء وشعراء المملكة واطلب منهم معرفة الرجل الذي ذكرت اسمه . ما اسمه ؟ آه ... آينشتاين . انه اعجمي . بعد يوم واحد فقط سأقدم لك شجرة عائلته . ولكن لماذا تهتم بهذا الرجل ؟

أجبت ، لانه كان احد امهر عمالي في صناعة الطائرات . غير انه هرب مع جاريتي المفضلة ، وهي شركسية الاصل ، على بغل اوسترالي الى وطن مجهول .

هاج السلطان وماج وبدا عليه الانزعاج وصاح : يا له من كلب حقير ، خائن للأمانة .

ثم اصدر مرسوماً خطيراً وخرجت الشرطة في ذلك الليل البهيم تبحث عن (الخائن) الحكيم والعالم العظيم .

اما العلماء والفقهاء والحكماء والشعراء فقد اخذوا ينقبون في كتبهم ، باحثين عن اجداده الاولين حتى (نوح) اذ لا يعقل ان يكون ثمة شخص آخر شارك (نوح) سفينته ، ولذلك لا يمكن البحث عنه بين الذين سبقوا (نوح) في استيطان هذا العالم .

١١

آمل ان اخرج في الليل الى بغداد من زجاجة الروح ، ارى اشباحها تعول في حديقة ، ادخل في اروقة مفتوحة للحزن والعواصف التي تهب من سواحل التأريخ : ماذا قالت الايام في نزهتها ؟ اية صحراء تقيم حفلة ؟

هنا العذاب لغة جديدة تطوف بين قارة وقارة ، احاول الخروج من وجودي ـ الرماد . انت وطن من نعم ولا / اقترب / من عنكبوت ايدي تحت ١٠٠٠ قمر يزحف من وكرين للعواطف / انتبه / فانني ارى مدينة تنهض من وراء نهر ، من مفاصل القوى تصرخ ، هذا زمن يقتل فيه الحب ، حيث يخرج الاقطاع من حقوله ، ملطخاً بسقلس السلام ، والموت

يكون دفتراً يكتب فيه رجـــل يذوب ـ لا حد لها الحياة والموت هو الطريق ـ لا تمت ، انا الصديق يا موت اتيت ، شهوتي الى الحياة اضرمت دمي ، وحيدة القرن تجوب غابـــة عمدها المعـــلم المصلوب في عشائه الاخير غير ان صحف اليمين واليسار اهملت خطابه ، فلم تشر اليه مرة واحدة ولو على زاوية مهملة في صفحة الجرائم . الرمال تحت قدمي ، والشتاء يعبر الطبيعة ، الفصول صارخاً : عميت لا ارى شيئاً . ترى هل غادر الله الجبال ، حامــلا على يديه لعنة الحروب ؟ ام راح يجوب فوق بغـــلة العدالة القرى ؟ مرتحلا بين السجون والمباغي كي يكون ملكاً ، او نائباً في مجلس الشيوخ ، او مقامراً يجلس في كهفـــه اياماً ، ولا يقول ما يقوله الغريب في اسفاره المقدسة .

١٢

ارفع الستارة تجد رجلا يقف في مواجهة الانهار ، تصب في نفسهـــا ،
ويحدق من مرمى الرمح بكتفيه
إلا انه لا يرى سوى عمـــارة مائلة على الرصيف
ولكن اذ يطلق الليل كلابـــه
تغني الاغنيـــة اغنيتها حتى النهاية
وتجلس كرامي القادة عند عواطف الشعب .

حبذا لو فكرت في الانهار متأخرا
(لان الانهار مثل الآشوريين تمتلىء غربة كلما مرت بالوطن)
ترى من يعرف ان ارملة القائد
تضاجع افقر الجنود الى الحرية
وان امرأة الحطاب
تحـــلم مساء
في النجوم التي تتساقط
لتضيء حدائق القرى
ومع دورة الزمن ، وبدون مرايا في الحجرة
يكون فاضل العزاوي اكثر شيخوخة حتى من الله
يكون وجهه قاموساً للرياح العنصرية

س : ماذا يعرف الناس عني ؟

ج : غامض ومكشوف كنبوة ناقصة

س : هل يدري الرجل المؤلف من زهرة حجرية
اية صبوة في عيون الموتى ؟

ج : حسناً يود فاضل العزاوي ان يكاشف البحر ولو لمرة واحدة في حياته، ان يسقط عصافيره الألف في غابة السياسة الجديدة ، حيث الوطن شارة

تعلق على كتف الرعاة ، بينما لا يرى العشاق ضرورة لتقديم وصايا خاصة الى سدنة النار .

انظـــروا :
(كل هذه المقاولات المقدمة عن تشجير القلب
لا تكفي لتقديم رجل واحـــد
الى
الحقيقة) وهي تنـــام فوق مشنقة منفردة .

١٣

اخـــيراً
وقفت على جبل واقف عند نهر
يدور على نفسه مرتـــين
وحيـــداً
نظرت اليه ، وكنت حزينـــاً لحزني
صرخت ولكن صوتي
تـــبرأ مني
تكسر في الريح اذ كانت الريح بيني وبين الحياة تغـــني
هبطت الى النهر (جرحي معي) . اغتسلت . وفي العشب مرّ النهار
كسلسلة تجر على صخرة طولها الف عام
ودار على نفسه ، ثم سار الى النهر ، اغرق اعضاءه ،
وحد النار والمـــاء ،
وحدني بالعذاب العظـــيم .

١٤

لان فاكهة الوهم تعذب أكلة الواقـــع
لان الحقيقة لا تجازف بالعبور الى الملك
لان المدن كما هي اجمل بدون برامج للسياحـــة
اراقب الكراسي وهي تجلس في هدوء :
تتحدث عن الذين يجلسون عليها .
اي عالم هذا الذي تتحول فيه الأصابـــع
اي حلوى للولادات ، والقنابل الى هـــدايا للذكرى
تعلق على صدور الفتيـــات !
اي سلام هذا الذي يملأ الوطن

يجالس عشاقاً يقودون الحقيقة للمنفى
اذ القارات مزدحمة والانسان هو الأمـــل .

١٥

بينما المدن متروكة للرياح
اصطدمت ، انا المؤجل منذ لحظة الولادة
بالواقع فانكسر وانسكبت مياهـــه
فوق رصيف .

ابتعدت عن الليل فاقترب مني
حك رأســـه امام البوليس والجرحى
ولم يكن احد يبتسم لي
لم يكن احـــد .
افتحوا كل الأبواب
فأنا اعشق ان تنظر (سالمة) الى الله وهي معي
متى تكونين معي يا (سالمة) ؟
حيث لا نكون موجودين حتى في القصائد .
ثمة زوارق . انظر الى البحر تجد قمراً ، امواجاً ، وحريات مختلسة
اهتف عاليـــاً
ينحدر الرعاة من شفاهـــك
اهتف بصمت .

فاضل العزاوي
(بغداد ، شباط ١٩٧١)

اشارات

١) لم يكن الهروب ممكناً على الاطلاق : الاسلاك مكهربة وجنود الرابية يصوبون بنادقهم الى ظهري .
٢) اعني بالشهر الكامل (٣١) يوماً ، وهذا يساعد على تحديد ذلك في سبعة اشهر فقط هي ، كانون الثاني ، آذار ، مايس ، تموز ، آب ، تشرين الاول ، كانون الاول .
٣) لقد تعمدت احراج السلطان . فكما تعرفون ان اينشتاين لم يكن موجوداً حينـــذاك . وكان استحضاره يقتضي الحصول على (آلة الزمن) لأج . جي . ويلز اولاً . وهذا ما كان يثير في نفسي القلق والخوف .

قاسم حداد

خروج رأس الحسين من المدن الخائنة

« لو ترك القطا لنام »
صاحب الرأس

« عجبت ممن لا يجد القوت في بيته ،
كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه »
أبو ذر الغفاري

نسيرُ بلا حيرةٍ ــ كانت الحيرةُ مثلَ القناديلِ في جِلدنا
نسيرُ على أرضِ كلِّ الشوارع ، أقدامُنا رعدُ كلِّ الزوابعِ
يَتبعُنا الحزنُ والياسمين
ونستصرخُ الموتَ ، والموتُ يصرخُ فينا : تجيئونَ ؟
برقاً نجيءُ من المدنِ الخائنـــةْ
(مدينتُنا لمْ تَخُنْ ــ نحنُ خُنّا)
وحينَ تداخلتِ الصورُ المرعبهْ
صرخنا ، وجئنا نسنُّ حرابَ الفجيعةِ . نشربُ خمرَ التغرّبِ
نصنعُ من حجرِ الموتِ كأساً ، وأنخابنا من بروقِ المحبة والحقـــد والاعترافْ .
على أرضِ كلِّ الشوارع في مُدُنِ الثورةِ النائمهْ
زحفنا ــ ولما فتحنا كتابَ الســـماء
ولما عرفنا الدماء
توقفَ نبضُ الحديدِ ، وجاءت لنا الساعةُ القائمـــهْ .
نسيرُ بلا حيرة . كانت الحيرةُ مثلَ الوســـامِ
على بطـــنِ كلِّ الضفادعِ في المدنِ الخائنهْ .

نسير . ندحرج تاريخنا ونركله باحترام
ولم نأخـذِ الارض بالسيف . كنا قطاة
وكانت محابرنا من دماءْ
وكان الذي فوقنـا
يبولُ علينا ، ونحنُ نقولُ : اسقِنـا
ونشربُ ، َنسكرُ حتى تمرَّ الليـالي علينا
وحتى نصـدِّقَ أن السكوت كلام .

نسير ونعرف كيف نشقّ التراب ، ونبذر داخله الكائناتْ
وكيف نحزُّ الرؤوسَ ونزرعها عبر كل العصورِ
فنحن الحسين المسافر من كربلاء
ورأس الحسين الممزق بين دمشق وبين الخليـجْ
ونحمـلهُ ، نستريح على سورة المومياءْ .

نسير ورايتنا الغالبهْ
ونخرج من كل كوخٍ على أرض هذا الخليـج
لندخل كل القصور . ونبني على رسمهـا قبلة غاضبهْ
ليزهرَ ورد الرماد ، الرماد الذي تحته النار أو طفلة في ربيع الخطورةِ
أو جائع ، تحته نحن ـ من ألف عام نصير ركامـا .
ويركبنا البحر من غير صاريةٍ أو شراعٍ
يصيد اللآلىء من قلبنـا
تصيرُ جماجمنا كرةً
عليها خرائط كلِّ المدائنِ حين تجـوع
ويحترقُ الحبُّ ، والموتُ وردٌ
وحين نجـوع
تصيرُ عظامُ الجدود مناجمْ
تصير ملاعـقَ من ذهب ورصاصٍ
تصير مرايا وآبار نفطٍ
(ما مرّ عامٌ والخليج ليس فيه جوعْ *)
ويستقبل الجوع رأس الحسين ويفتح باب الحريقْ
ليدخل رأس الحسين ...

---

* بدر شاكر السياب .

تصير البلاد عروساً لها الف طفل
والفُ عشيقٍ .

[... ينتشرُ الحبُّ في كلّ مكان ، ويسقطُ الحب قتيلا لحظة الجابهةِ . نحاولُ معرفةَ الخيطِ الاسود من الخيط الابيض . يختلط كل شيءٍ بكلّ شيء ..]

نقيم سرادقَ عرس عــلى مأتم الميتينْ
ونبصق كِلْمة حب وحقد بوجهِ المحقق ، نرقص داخلَ كلّ السجون .
وتنهدُ جدران كل المسافاتِ حين نمدُّ مفاتيحنـــا
ترانا انقلبنا على ظهرنا كهذي البلاد الــتي تحسنُ الكرَّ والفرّ
هذي الفتاةُ التي سرقوها بسيف
فسالت دماها براميلَ زيت ومَنّ وسلوى ؟

ونبحرُ من كلّ أرض الى كلّ بحر . مدائن حزن
صحارى سجونٍ .
نســير معاً ، تلد العاقرات الأغاني ،
نسير ونحن جميـع اللغات الغريبـهْ
ونحن الحبيب الذي عرف الدرب نحو الحبيبـــهْ .
نسير ، انتظرنا طويـــلاً ، تأخر موعدنا فقتِلنا
وقمنا من القبر ثانية وقتلنا ، وقمنا ... ولكننا ما هزمنا
وسرنا مع الرأس ، سرنا الى كلّ أرض وكلّ حياة
نسير بلا حــيرةٍ

لم تعد شعرةٌ بيننا الآنَ
لا وردة من دخانْ
فنفتح وجهَ الزمانْ

ونحمل رأس الحسين المحاصر في كل أرض غريبـــهْ
نسير الى مدنِ النار ، نحرق أسوارهــا ، نحترقْ
ونكتب فوقَ معاصم أطفال تلك المدنْ
محطاتِ عشقٍ
وسيراً بلا حــيرة في الطرق
نسير معـــاً ، إتبعونا ، نلاقيكمُ
عند رأس الخليــجُ
نسير ونحن جميـع اللغات الغريبـــهْ
ونحن الحبيبُ الذي عرف الدرب نحو الحبيبـــهْ .

قاسم حداد (البحرين ، فبراير ١٩٧١)

جمال ابو حمدان

حلم عروة بن الورد

ارتحل بين القلب والنبض
حاملا في قراب السيف ، أعتدتي العتيقة
وفيها الزهرة الوحيدة التي ذبلت في برودة الفجر
ناشرا احلامي ، في مهب الريح
كعباءة مقصبة ٠

يكتب عروة بن الورد قصائده علـــى قصاصات صغيرة يتركها تحت وسادته ويقبل زوجته ويخرج ٠ ذات صباح ، احس حين استفاق ان الحياة ذات نكهة طازجة وحارة ٠ فنادى زوجته ، وقال انه حلم حلما غريبا : « رأيتني أمشي على صدر الدنيا ٠ وكان صدرها لدنا فكنت أرى آثار خطواتي تمتد بعيدا ٠ فقلت : اقدر ان ارجـــع دون ان تضيعني الدروب ، فغفـــوت مطمئن البال ٠ »

صاحت زوجته بدهشة ، حلمك غريب ، وأني احبك يا عروة ، وقبلته فخرج ٠ وجاب طرقات البلدة ، وكان ينظر وراءه الى آثار خطوه ، فلا يراها ٠٠ فعاد كابيا ٠ هذا الصباح أفاق عروة مبكرا ، وايقظ زوجته ، وقال : « حلمت حلما غريبا » ٠ فاستمعت بلهفة ٠

« رأيتني أمشي ، وكنت كلما خطوت خطوة ، أجد عند قدمي قطعة نقد لماعة ، فالتقطها ، وحين ارفع رأسي تلتقط عيناي من الفضاء فقاعة ملونة تتطاير في الجو حولي ٠ وهكذا ملأت جيوبي بالقطع النقدية ،والفقاعات الملونة ٠ »

استمعت زوجته ، ثم قالت : « هذا حلم رآه كل اطفـــال البلدة ٠ » ابتأس عروة بن الورد ، اذ كان يعتقد ان الحلم عالم خاص ، لا يشاركه فيـــه احد ، ولكنه فيما كانت زوجته تقبله ، فكر : « هناك متسع من العمر استطيع ان احلم فيه احلامي الخاصة » ، وخرج ٠

انتظر عروة بن الورد في ساحة العمال ، طوال النهار ، أن يطلبه احد للعمل • وفيما كان الناس ينفضون من حوله متفرقين في كل اتجاه ، تقدم منه رجال حسنو الهندام ، فهش لمرآهم • وحين احاطوا به سألوه بخشونة : انت عروة بن الورد ؟ ارتعد عروة ، اذ كان يتوقع أن يسألوه عما اذا كان يطلب عملا لهذا النهار (وهم لا يعرفون اسمه) • ولم ينتظروا ان يجيب ، فاقتاده أثنان ومشى الآخرون امامهم •

في مكتب مكتظ بالاثاث والرجال ، أعلم عروة بن الورد ، أنه ماثل الآن امام مفتشي الضرائب ، بتهمة تهريب أموال من الضريبة الرسمية • بهت ، وكان قد أعياه التعب ، وأمر ان يجيب عن الاسئلة واقفا فامتثل •

قال الرجل الذي يجلس في الصدر : حلمت انك تجمع من الارض حيث تسير قطعا نقدية • اكمل عروة ، « وفقاعات ملونة من الجو » • فنهره واحد : « الفقاعات الملونة ليست من اختصاصنا » • وهنا شعر عروة بن الورد بالضعة ، ونضبت عزاءاته • فقال : « حلمت بذلك ، ولكن هذا الحلم رآه كل اطفال البلدة » • رد واحد : « الاطفال تحت السن القانونية • لا نعاقبهم ، وننتظرهم حتى يكبروا » • اعاد عروة بامتثال : نعم ، حلمت بذلك • قال واحد في الزاوية : يكتفون بان يحلموا بالنقود ليتهربوا من الضريبة • فأضاف آخر : تلك خديعة لن نسمح باستمرارها • ثم سئل عروة عن المبلغ الذي جمعه فقال : « كانت جيوبي مليئة بالقطع اللماعة والفقاعات الملونة •• ولم اعدها • وهنا ضرب رجل الصدر بمطرقة : اسمك ؟ قال عروة : عروة بن الورد » •

سؤال : ماذا تعمل ؟
عروة : في الجاهلية ، كنت فارسا وشاعرا • وتوقف •
فسأله آخر : وفي صدر الاسلام ؟
تلجلج عروة في الرد ، فسأل رجل الصدر : والآن ؟
فرد عروة يديه على سعتهما : ها انتم ترون •

أثناء ذلك كان المحاسب قد أعد كشفا بالضريبة المستحقة ، فسلمه رجل الصدر الى عروة بعد ان ختمه • وانذره بالدفع أو حجز ممتلكاته • فاصطحبهم الى بيته للحجز ، وكان القهر يغلف نفسه • غير انهم لم يجدوا الا قرابا ، فيه سيف ضاق نصله عن سعة القراب ، مما سمح بوضع زهرة ذابلة فيه • وكان على الجدار في صدر المكان لجام الحصان • ثم لم يكن بعد هذا غير شعر زوجته وشامة على خدها • وكل ذلك لا يساوي شيئا • فأمر بسجن عروة بن الورد ، وصودرت من تحت وسادته قصاصات عتيقة في احدها :

« واني امرؤ عافي انائي شركة وانت امرؤ عافي إنائك واحد • »

اقتيد عروة بن الورد الى زنزانة انفرادية • حاملا نظرات زوجته الاخيرة ورائحة شعرها • وكانت عقوبته ان يبقى مستيقظا باستمرار حتى لا يحلم ابدا • وقد وضع معه حارس يتأكد من عدم نومه بأن يأخذ توقيعه على مجموعة

من الاوراق • فكان الحارس ينادي عروة بن الورد كل نصف ساعة ، ويقدم له الورقة ليوقع عليها • ويظلان صامتين بعدها • على هذه الحال ، أمضيا اليوم الاول ، وكان الحارس يشد جلد وجهه ، ويصلب ملامحه ، ولكن عروة استطاع ان يكشف طيبة في عينيه ، الا انهما ظلا صامتين • كانا احيانا كثيرة يرنوان نحو بعضهما طويلا •• ولكنهما لا يتكلمان • وفي اليوم التالي اخذت عضلات وجه الحارس تسترخي ، ثم صارت أجفانه تتورم من النعاس • وكان عروة بن الورد يتأمل طويلا الجدران والسقف ، ثم ينظر في وجه الحارس ، فيتقدم هذا ويأخذ توقيعه • وكانا طوال هذا الوقت صامتين •

قبيل مغيب اليوم التالي ، تقدم الحارس ليأخذ توقيـــع عروة ، فهمهم عروة بخفوت •

قال الحارس : ما بك ؟
قال عروة (وكانت المرة الاولى التي يسمع فيها صوته هنا) :

ــ وانت ، ألا تحلم ؟
تساءل الحارس : احلم ؟

أعاد عروة : ألا تحلم أنت ؟

اطال الحارس النظر اليه • ثم اقتعد الارض الى جانب عروة بن الورد • ونظر لاول مرة عبر الكوة الى الفضاء •• ثم راح يرسم على ورقة التواقيـــع خطوطا متمايلة ، واشكالا متناثرة ، وزهورا وشموسا مشرقة • اراها لعروة بن الورد ، فابتسم بمودة ، واخذ ورقة اخرى ونظر عبر الكوة وراح يرسم خطوطا متمايلة واشكالا متناثرة وزهورا وشموسا مشرقة • وكان الحارس يراقبـــه مبتسما • حتى انتهى ، فأخذ القلم منه وراح يرنو الى الفضاء ، ويرسم • وظلا صامتين يحلمان ويرسمان • وحين استغرقتهما الرسوم والاحلام ، أتى النعاس، ففكر الحارس ، لو نمنا الآن ، فاننا نستيقظ ونلم الاوراق قبل ان يأتوا •

فابتسم لعروة ، واسند رأسه على الحائط ، واغفيا تجاه الكوة •

في الصباح جاء الرجال ، فوجدوا الحارس وعروة بن الورد مستغرقين في نوم عميق يبتسمان • ورأساهما متساندان على الجدار ، وحولهما اوراق كثيرة مبعثرة • تبدأ بتواقيع متكررة ، ثم رسوم وخطوط كثيرة • فتساءلوا ثم جمعوا الاوراق واخرج واحد منهم غدارته ، فانفتحت فـــي جبهتي عروة والحارس ثغرتان فاغرتان ، تجاه الشمس ، وانفتحت عيونهما علـــى سعتها وظلت شاخصة عبر الكوة على سماء كانت الوانها تتغير ببطء •

جمال ابو حمدان

ابراهيم الحريري

الولادة

خبط الرجل الصغير جدار الرحم وصرخ غاضبا :

– اريد ان اخرج !

ارتعشت ساقا المراة · تملكها الاعياء · احاطت اسفل بطنها متوجعة · كادت تسقط · اسندت ظهرها الى جذع نخلة قريبة وانزلقت الى الارض · تلفتت حواليها مذعورة ·

– « اريد ان اخرج ! » اعلى ، اشد توترا بالغضب ·

انتبهت المراة الى بطنها المتكور المندلق · تملكها الرعب ·

– « كيف دخلت ؟ »

– انا الذي يجب ان يسال · من وضعني هنا ؟ اية دعابة سمجة ! اريد ان اخرج » وهو يلبط جدار الرحم بقدميه ·

– « اذن انتظر حتى تكمل التسعة اشهر »

– « اريد ان اخرج الان » زعق الرجل الصغير « واذا لم تفتحي لي الطريق فسأشقه بالقوة ولن اكون مسؤولا عن النتائج ·

– دعني انادي جارتنا القابلة ·

– ابدا · الان ·

– زحفت المراة الى البيت · استلقت على الارض · رفعت ثوبها الى صدرها · فتحت ساقيها ·

– لا تخافي ! قال الرجل الصغير « سابذل جهدي كي لا اسبب لك الما » ·

عدل الرجل الصغير من وضعه داخل الرحم · جعل راسه في المقدمة · مد يده اليسرى · غرس اصابعه في حافة الرحم · دفع باليمنى الى السقف · دفع بقوة ·

– « افتحي ساقيك اكثر » قال بلهجة آمرة « هل يجب ان اعلمك كيف تلدين ؟ » .

احست المرأة بالخجل .. انها المرة الاولى .. وهي توسع من فتحة ساقيها « لكنني سمعت انه في هذه الحالة يخرج الرأس اولا » .

– اعرف . اعرف » قال الرجل الصغير حانقا « لا تعلميني . افعلي ما عليك واتركي الباقي لي » .

– تراجع الى الوراء قليلا . اندفع بقوة وهو يخبط جدار الرحم بقدميه . برز رأسه . يداه . تشبث بساقي المرأة . اخذ يسحب جسمه مستعينا بيديه الى الخارج .

تقرفص بين ساقي المرأة . كان يلهث . اخذ يعبث بشاربيه مقطبا .

– « اريد تفسيرا . كيف حدث ذلك ؟ »

– « صدقني . لا اعرف » .

– « ولكن .. كيف ؟ » وهو يمسح العرق عن جبينه بطرف ثوب المرأة . اراد ان ينهض . انتبه الى الحبل الذي يشده الى المرأة .

– « اين وضعت السكين ؟ » .

– « اية سكين ؟ » تساءلت المرأة مدهوشة .

– « وهذا ؟ » مشيرا الى الحبل « ام تريدينني ان اظل مرتبطا بك ؟ »

للمرة الثانية احست المرأة بالخجل لجهلها .

انحنى الرجل الصغير . تناول الحبل بين اسنانه . قطعه .

حاولت المرأة النهوض . « لا تتحركي ! » قال الصغير وهو يدفعها بيديه الى الخلف . اندفع الى الحمام . عاد حاملا طستا مملوءا بالماء وخرقة . بلل الخرقة . راح يمسح رحم المرأة ، ساقيها ، مشيحا بوجهه .

– « انهضي الان » وهو ينزل ثوبها مغطيا ساقيها . وضع يديه تحت ابطيها . قادما نحو الاريكة .

– دعني اغسلك – قالت المرأة مستعطفة .

– لا عليك ، وهو يتجه الى الحمام .

احست المرأة بالحزن . لماذا هو غاضب ؟

خرج الرجل الصغير من الحمام . توجه نحو الباب .

– الا تريد ان تاكل ؟ » وهي تهم بالنهوض لتحول بينه وبين الباب .

– لا وقت لدي . مستعجل . لدي مهمة . اريد ان اكتشف كيف حدث ذلك ؟ ولماذا ؟ لماذا انا بالذات ؟ »

صفق الباب خلفه بشـــدة .

*

تمددت المرأة على الاريكة . وضعت ذراعها تحت رأســـها . كانت متعبة .. وحلمتاها توجعانها ...

اخترق خياشيهما عبير ازهار الليمون ··· وكانت تلبس مريولا ابيض ··· وتجدل شعرها بشريطين احمرين ··· وكانت تركض ··· وصبي اشقر صغير يطاردها ضاحكا ··· وعندما امسك بها ، ولفحت انفاسه الساخنة خديها ، انتبهت الى شاربين كثين اسودين فوق شفتيه الرقيقتين ··· وكان شارباه يخزانها ···

جفلت · انفلتت من بين يديه · تركض · تركض ···

وكان ثمة نبع ··· وكانت متعبة ··· وكان الشاربان الكثان صليبا اسود شائكا يغرز بين عينيها · لم تعد تستطيع الحراك · احست انها ستختنق ··· وتركت للنبع ان يجتــاحها ···

– افتحي الباب ! افتحي الباب !

نهضت المراة مذعورة · هرعت الى الباب · فتحته ·

كان الرجل الصغير يشهق بالبكاء · الدم يشرشر من انفه وفمه · الدم ، الدم · من باطن كفيه · من خاصرتيه · من بين اصابع قدميه · الكدمات الزرق تغطي جسمه العاري · الشوك يتخلل شعره ·

خبأ رأسه في حضنها « اغلقي الباب ! سيدركونني ! اغلقي الباب ! »

كان يشهق · يشرق بالدمع · صدره الصغير يعلو ويهبط ·

رفع ثوبها · دس رأسه بين ساقيها : « سيدركونني ! خبئيني ! » وهو يدفع رأسه اسفل بطنها بقوة ·

اقتادته المراة الى الاريكة ··· وكان جائعا ··· وكان خائفا ··· وحلمتا المراة توجعانهــا ·

اندفع دفق الســخونة الى حلمتيها · اخرجت ثديها · احاطت الرجل الصغير بذراعيها · ضمته الى صدرها ·

التقم الصغير الحلمة بين شفتيه · خبأ يده في صدر المراة · وكان شارباه يخزان حلمتها ، والشوك بين طيات شعره يخز صدرها · وراحت تلتقط الشوك بين طيات شعره وتربت رأسه ·· وكانت ابتسامة حزينة تنتشر فوق وجهها كله ···

انفلتت من بين شفتيها ترنيمــة حزينة لم تسمعها من قبل ، تنساب هادئة مثل ساقية ··· وتركت للنبع ان يتدفق عبرها الى فم الصغير ·

كان يتوقف بين الاونة والاخرى · يلهث · يلتقط انفاسه ··· يلتفت الى الباب مذعــــورا ···

··· وحين شــبع ، نـــام ·

ابراهيم الحريري

شهادات

هكتور الدويهي

كنيسة الحجر وكنيسة البشر

(مقدمة لكتاب لبناني احمر)

عموديا وافقيا

يمكن كمّ الفم . يمكن تقييد الأيدي . يمكن الحد من نشاط الانسان. ولكن لا يمكن توقيف مسيرة الروح ، مسيرة الفكرة . ناموس الفكرة ، هو ناموس السرعة ، ككرة الثلج ، نوعاً ما ، التي تتحول الى زلزال هادر .

---

* الكلام جرأة وفضيلة ، وان يكن ثمنه باهظاً . ولقد تكلم الأب هكتور الدويهي ـ وكان كلامه مزعجاً لكثيرين لأنه ينطوي على حقيقة . فكم فمه ، «وحجز» جغرافياً (ضمن حدود رعيته) و«سجن» معنوياً (لم يعد له الحق في الوعظ والتعليم والكتابة) . (راجع الرسالة البطريركية) . فكانت له خلوة عميقة مع نفسه ومع ربه كتب خلالها مجموعة من التأملات ما بين شباط وآب سنة ١٩٦٩ ، تنشر «مواقف» ، هنا قسماً كبيراً منها .

أحدثت هذه الخلوة اثراً عميقاً في حياة هذا الكاهن وفي حياة من عرفوه لأنه حوكم غيابياً ولم يسمح له بالدفاع عن مواقفه وآرائه .وهذا مما يتنافى وكرامة الانسان التي اعلنتها الكنيسة في نصوص المجمع الفاتيكاني الثاني . لذلك زاره عدد كبير من الناس ، من اكليريكيين وعلمانيين ، واعربوا له عن محبتهم وتقديرهم لما يتمتع به من جرأة واخلاص وايمان ، وهذا ما ساعده على تحمل محنته القاسية ومأساته الشديدة التي رأى فيها عدد كبير من اخوته الكهنة مأساتهم بالذات، ←

من الممكن خنق انسان وسحقه . سيكون ذلك دوماً على مستوى افقي . ولكن هناك مستوى آخر هو الأهم : المستوى العمودي ، اي الاحتكاك المباشر مع الله ، مع الروح . العمودي، لا يستطيع الناس أن يسكّروه . وعندما لا يبقى للانسان سوى العمودي ، فحينئذ يكون الاكثر حرية . فالله له ، وليس له سواه . له به كل شيء . أنا حر في يسوع المسيح .

أصلاح

اتذكر كلمة الأسقف : « لا يعود اليك ولا إلي أن نصلح الكنيسة » واتذكر ايضاً جوابي له : « بل انه يعود إليك ، وإلي ايضاً ، يا سيدنا ،

مأساة اجيال تقف حيرى من الكبت والتعسف ، وتتألم صامتة تأبى الفضيحة والانشقاق ، لأن روح الرب هو روح محبة واخوة واتحاد .

لقد حاول الاب هكتور اكثر من مرة ان يشرح لرؤسائه حقيقة مواقفه ويظهر استعداداته الطيبة ؛ ولكن دون جدوى . وأبى رؤساؤه أن يستعيد ما كان له من نشاط في لبنان . وحين صمم على السفر لم يسمح له بالتوجه الا الى اميركا الجنوبية وقيل له بان يتدبر امره بنفسه . وهذا ما يشرح وجوده اليوم في رعية بوابلا ـ المكسيك حيث يعمل بكل جد ونشاط متألقاً في حقول الرسالة المهجرية المتنوعة متفانياً في سبيل ابناء الكنيسة اللبنانيين وغيرهم .

ومنعاً لكل التباس او تأويل منحرف لنشر هذه التأملات ، نترك الكلام للكاهن نفسه :

« الغاية من نشر هذه السطور : غاية شهادة ، لا اكثر ، مع العلم (والأمل) بانها تشير الى شيء من حالة الكنيسة عندنا ، ومن تطلعات كهنتها ومن الحاجة الى التكيف بالانجيل ... هذه السطور هي ، منذ البداية حتى النهاية ، فعل ايمان واسع كامل بالمسيح ، بالكنيسة . هي فعل وجاء بانتصار الروح ، روح المسيح في كنيسته ، وفعل محبة للمسيح ، للكنيسة ، للبشر كلهم. ايمان ورجاء ومحبة ـ كصرخة في مرحلة جلجلة وخلاص . كاتب هذه السطور ليس يسارياً ولا يمينياً ، ليس شيوعياً ولا فاشستياً ،ليس مع هذا ضد ذاك ، ليس متمرداً ، ليس عقائدياً متطرفاً من هذه الجهة او تلك . هو ابن المسيح . كالمسيح ينفتح على كل شيء ، على كل بادرة ، على كل قلب . كالمسيح يكره ويحارب الجهل والعبوديات والنفاق والظلم والجحود ... كالمسيح يحب البشر ، كل البشر ، الكبار والصغار ، اليمينيين واليساريين ، الشيوعيين والاشتراكيين ، المسلمين والارثوذكس والبروتستانت كما يحب الموارنة ... كالمسيح يكره ويحارب الضلال ، ولكنه يحب الانسان ويحترمه ويدنو منه ويقدم له قلبه ويصلب من اجله ».

عسى ان تكون هذه التأملات نقطة انطلاق جديدة في تاريخ الكنيسة المشرقية فتفتح باب الحوار البناء والمحبة الواعية والثقة المتبادلة بين افراد الكنيسة من جهة وبين سائر ابناء لبنان والشرق من جهة أخرى وايـاً كانوا ، فيعوا مسؤوليتهم ليعملوا ملتزمين بوحي ضميرهم وايمانهم ومصيرهم .

أصدقاء هكتور الدويهي

بأن نصلح الكنيسة . إليك اولاً بوصفك خليفة الرسل وراعياً . وبالتالي الينا جميعاً » . مبدئيـــاً ، نعم ، يعود الينا ذلك جميعاً ، انه يعترف بذلك. ولكن بالواقع ، ماذا يبقى منه ، عندنا ؟ بالواقع لم يبقَ منه شيء :بالواقع ، يبدو ان ذلك ليس عملنا . ليس بمتناول يدنا وقلبنا . بالواقع ، هذا يعني ، من جهتنا « الاستسلام والتهرب » : القهقرى. ان ما ينقصنا بالواقع ،هو «النار المقدسة» . ينقصنا جنون الايمان ... والرجاء . ينقصنا الروح .

نحن نكمل المسيـح : لقد تقلصت هذه الحقيقة في قلوبنا ، وضمائرنا . ولهذا السبب اصبحت رسالتنا تافهة . ولهذا السبب ، اصبحت الكنيسة بنا وبسببنا ، اشبه بمسكن مهجور يفوح منه العفن .الروح فيها يختنق . والبشر ايضاً .

كنيسة الحجر وكنيسة البشر

يعظون في الكنيسة (ويغمزون علينا نحن « كهنة الاصلاح ») : الكاهن، للكنيسة ، يجب ان يكون في الكنيسة ، ان يبقى في الكنيسة ، في كرسي الاعتراف ، على المذبح ، وراء الصورة للزياح ، امام القرّاية للجناز . « رسالة الكاهن ان يبقى في الكنيسة ، ضمن جدرانها ... » .

هذا صحيح . هذا جزء من رسالة الكاهن . هذا ليس كل رسالته ، ليس الاهم فيها . رسالة الكاهن الأساسية هي نقل « البشرى الصالحة » الى البشر ، ليس فقط ضمن جدران « كنيسة الحجر » . كنيسة المسيـح ليست من حجر . كنيسة المسيـح من بشر ، هي البشر . حيث البشر هناك تكون ، هناك هي .

عندما يهرب الناس من « كنيسة الحجر » يخرج الكاهن الى كنيســة البشر : « اذهب ... » . أجـــل ، الكاهن للكنيسة ، لكنيسة البشر ، لا لكنيسة الحجر .

مار بطرس في البحر

مع أحد الواعظين عندنا في زغرتا ،قلت له : « المستقبل لنا . الكنيسة هي الى الأمام لا الى الوراء . » قال : « لا شك ، الاصلاح . التجديد حاصل ،

لكن الطريقة ... الطريقة ... ما هي الطريقة ؟ لا بد من ايجاد الطريقة ».

ذكّرني كلامه بمار بطرس ـ الذي تاق يوماً ان يلتحق بربه الماشي على المياه كأنه على اليابسة « اريد أن أصل اليه . ولكن الطريقة ... الطريقـة ... ما هي الطريقة ؟ لا بد من ايجاد الطريقة » . لحسن حظه وايمانه ، لم يفتش طويلا عن الطريقة ، بل رمى بنفسه في البحر . ولما أوشك على الغرق ، بعد جهـد وعناء وتخبط ، صرخ مستغيثاً . ونجا .

مطلوب منا اليوم أن نلقي بنفسنا في البحر . من أجل الكنيسة عندنا .

التقليد

التقليد ، مفهوم التقليد في الكنيسة . الى اي حد هو عـودة الى الوراء ؟ لا . ليس عودة الى الوراء (فيوقف الكنيسة في مسيرتها ، فيجمدهـا ، وتبقى هناك في الوراء ، معه ، في الماضي) .ليس عودة الى الماضي ، بقدر ما هو اعادة النظر في الماضي (في ينابيعه وكنوزه) على ضوء الروح ، ونعمة الحـال ، وعلامات الزمن ، للعبّ منها غذاء لليوم .العودة الى المصادر المسيحية الأولى : لا شك ، موجة كبيرة تدفع نحوها . ولكن لا بذهنية الماضي ، ولا من أجـل حاجة الماضي ، ولا حباً بالماضي ، وبخلاصه . بل من أجل خلاص اليوم والغد ، بذهنية اليوم ، ومن أجل حاجة اليوم ، وعطشه .

التقليد يعني الأمانة للاصـل ، لا التجمد . الامانة المتجددة ، الخصبة ، المثمرة لبشرية اليوم . على كل ، نحن مرتبطون بتقليد واحد ، لا غير : هـو تقليد الانجيـل . وما حواليه ، وما عنه ، لا يقيدنا الا بقدر ما هو أمين له (من تاريخ ، وآباء ومدارس ، وطقوس ، ونظام) . والانجيل ليس ابن الماضي. الانجيل هو اليوم ، هو «البشرى الصالحة» التي يحملها الله الى بشريتنا في القرن العشرين . في بشائر القرن الواحد والعشرين .

الكنيسة واليسار

حديث مع رشيد . في لبنان اسماء طالعة ، زاخرة بالقوة والخلق . اسماء

اساتذة وطلاب ، اسماء لرجال الفكر عندنا ، في الجامعة ، في السياسة ، في الصحافة ، في العمل ، في الوطنية ، في كل ساحة وميدان . أكثرهم يميل يساراً. مسبوع بالعقائديات اليسارية ، المتحركة ، المتنبهة ، الماشية للعلم ، لمصير الانسان في العالم ، الساهرة ، اليقظى على مشاكله ، المتحسسة لعنائه واجهاضه الكبير في كل قطاعات الحياة . اجيالنا الطالعة مسحورة باليسار ، وهم عزل . كل شيء في لبنان مفقود عندهم ، من كبيرة المؤسسات الى صغيراتها . اليسار اعزل في لبنان ، اليمين يملك كل شيء . ولكن لليسار البشر ، ولليمين المؤسسات . والنصر ، في النهاية ، للبشر .

كنيسة المسيح ليست للمؤسسات ، هي للبشر . حيث البشر يجب أن تكون . لانها ، قبل أن تكون مؤسسة ، هي بشر . هي جماعة البشر بالمسيح . جماعة ابناء الله . الى البشر نذهب . الى البشر ، اجل ، نذهب . هذا هو ملخص دعوتنا ، وكهنوتنا . الى البشر نذهب . وفي سبيلهم نترك المؤسسات . نهجرها ، نبدلها ، نوسعها ، نهدم ما هو فان فيها ، وعابر ، ونعمّر . نعمّر من جديد للمسيح .

السلطة في الكنيسة (مشروع بيان)

١ ـ السلطة في الكنيسة تنبع من الانجيل . انها كما هي الآن ، كما تمارس ، صورة منقولة (موروثة) عن الحق الروماني القديم . الحق الروماني القديم ليس الانجيل ، لسنا ملزمين به . فيه مبدأ السلطة التي تكفي ذاتها بذاتها . انها سيطرة ، وسطوة ، وقوة ، (سلطة بوليسية ، بالنهاية) . سلطة منسوخة عن سلطة الطبقات الحاكمة (سياسياً واقتصادياً) .

٢ ـ يسوع في الانجيل ، قلب هذا المفهوم رأساً على عقب ، حطّمه . السلطة ، في الانجيل ، خدمة (مارسها يسوع كخدمة) . حامل السلطة هو الخادم . يعترف انه حقاً الخادم ، هو الاكبر لانه الخادم الأول . السلطة خدمة ، لا ارتقاء ، لا انعام ، لا سيف .

٣ ـ هناك فرقٌ بين السلطة الانجيلية والسلطة القانونية . ليست كل سلطة قانونية

سلطة حق. السلطة القانونية في الكنيسة ، تكون ظالمة لانها تعمد الى استغلال الضمير . تجنّد ضمير الانسان ضد الانسان ، ضد نفسه . تنتهك حرمة الله والانسان في الزاوية الأخيرة منه .

٤ ـ السلطة الانجيلية سلطة رسولية (من فعل ارسل ، يرسل) . معطاة من يسوع الى كنيسته ، الى «رسله» (اي الذاهبين الى البشر باسمه) ، هي سلطته ، لا سلطتها ، لا سلطتهم الخاصة . هي سلطته وحده ، ليست ملكية لهم (موروثة او مشتراة) ليست ملكية خاصة ، بل بعثة : « اذهبوا ... » . معطاة من اجل جماعة ابناء الله ، من أجل البشر ... هذه هي الغاية منها : من أجل نشر ملكوت الله ، ملكوت الحب . لا يملكها الرسول ، لا يحصل عليها من أجل ذاته ، من أجل مصلحته ـ أو فرض سطوته .

٥ ـ السلطة القانونية ترتكز :

أ ـ على **البيروقراطية الاكليريكية** : جماعة من الموظفين ، ينهمكون بشؤون ادارية ، يحتلون مراكز ادارية ، يعملون من اجل هذه المراكز ، لصالحهم وصالح ذويهم .

ب ـ على **الرعاية الزائفة** (Paternalisme) : تسيطر على العلاقات الشخصية بين الاسقف والكاهن . تقفل ابواب **المشاركة** بوجه المرؤوس .

ج ـ على رفض كل **مراقبة** ذاتية او غير ذاتية . على رفض كل نقد ذاتي او غير ذاتي .

د ـ على نوعية من العيشة والنظام المفروضة مسبقاً . دون اعادة نظر فيها على ضوء نداءات الرسالة الجديدة ، على ضوء علامات الزمن ودعوة الروح : نوعية معينة ، ثابتة في السكن ، في اللباس ، في الوضع المالي ، في وضع العمل .

هـ ـ على قيام جهاز اكليريكي يساعد البعض ان يحترفوا السلطة ، ان يرقوا درجاتها .. كأنها عملية توظيف ، ومحاباة ، ومكافأة شخصية على خدمات شخصية .

و ـ على بنيات جامدة تربط الكاهن الى اوضاع محدودة ، قديمة ، لا تسمح

بالانطلاقة ، بالاصلاح ، لا تفتح مجالاً لعمليات البحث والدرس والتنقيب ، لا تفتح آفاقاً بوجه البادرة الشخصية الحرة وتفتّق المواهب .

الكنيسة اليوم ، ندعوها ان تتخلى ، ان تتعرى من هذا النوع من السلطة الرومانية ، القانونية . اننا ندعوها ان تعود الى السلطة كما في الانجيل :السلطة الرسولية . السلطة التي تساعد الكهنة على التحرر حقاً بالانجيل :

١ ـ فيستعيدوا هويتهم كبشر . بشر بين البشر (من أجل البشر). مع التزاماتهم البشرية الكاملة . مع حرياتهم البشرية الأولية .

٢ ـ فيستعيدوا حقهم في المشاركة ضمن المسؤوليات الرسولية : حقهم في « الكلمة » . في النطق بها ، في كتابتها ، في نشرها . حقهم في ادارة شعب الله ـ بالتعاون معه ، بالاتفاق معه .

الكنيسة اليوم : اننا ندعوها ان تعود الى السلطة المتأصلة في الانجيل . سلطة الخدمة ، والحب . سلطة يسوع .

الكتاب الاحمر لماوتسي تونغ

قرأت لماوتسي تونغ بعض صفحات من «الكتاب الاحمر» . واحتفظت منها بمبادىء للعمل ، قديرة على ان تعمل عملاً فعالاً في الجماهير .. انها « خطة عمل (أو فلسفة العمل) » قد تكون مفيدة جداً لرسالتنا الكهنوتية ، لاعادة النظر في المجهود الارسالي في قلب الكنيسة . يجب الانطلاق من ثلاث معطيات أساسية :

١) النقد الذاتي (العلني) .
٢) التقرب من الجماهير .
٣) التمسك بمفهوم التاريخ ومعرفته .

يلزمنا ، من جديد ، ان نكتب عن الكنيسة «كتاباً أحمر» . ان المسيحيين الأولين كتبوه ، هم ، بدمائهم الحمراء . لقد كان ينفحهم « روح الانتصار »

(ك. راهنر) . علينا ان نستعيد هذا الروح ، في عصرنا ، على حسابنا ، ومهما كلف الأمر . علينا أن نكتسب من جديد وأولاً فرح الانتماء - وعلينا من ثم ان نرسم «خطة» العمل لكسب «هذا» العلم ، الى الله :

- بالارتكاز على النقد الذاتي (راجع الجمع ،وروح يوحنا الثالث والعشرين)

- بالارتكاز على الاندماج في « الجماهير » البشرية ، لا سيا تلك التي هي أكثر عوزاً،أولئك «الجياع والعطاش» الى العدالة (عدالة الله وعدالةالانسان) الجياع والعطاش المساكين .

- بالارتكاز على معرفة التاريخ ، بالانتباه الى حضور الله في التاريخ وفي سيره . (راجع «علامات الازمنة») .

بالاختصار ، نجد عند «الآخرين» ما هو خاص بالمسيحية ، ذلك الشيء الذي كان دوماً أساساً لديناميكية الكنيسة . انها « لحقائق مسروقة» ، على لسان ماوتسي تونغ - ولكنها حقائق تجذب وتغلب . لقد خنقناها ، عندنا .

«الكتاب الاحمر» (مرة ثانية)

«ان التغييرات التي تطرأ على المجتمع متأتية خاصة من نمو التناقضات في قلب المجتمع ، اعني التناقضات بين القوى المنتجة ونسبة الانتاج ، بين الطبقات ، بين الجديد والقديم . ان نمو هذه التناقضات يدفع بالمجتمع الى الأمام » .
الكلام لماوتسي تونغ في « الكتاب الأحمر » .

الفكرة صحيحة . مثلاً ، في زغرتا ، وفي كنيستنا في لبنان ، التناقضات موجودة . غير انها حتى الآن ليست واضحة تمام الوضوح . ليست واعية . كما انها لم تبلغ نموها الكافي في العقول . يجب العمل في سبيل ذلك . هذا ما يمكن ان نسميه باليقظة ، بالوعي ، وهما يقودان الى اتخاذ موقف . اتخاذ موقف (بواسطة تصريح ، او بيان ، مثلاً) يكون بداية فقط . لكن يجب تخطي ذلك . يجب العمل . يجب الزرع . يجب تحريك الناس . المهم ، هو ايضاً ان تختمر هذه « التناقضات » في مناخ من الحب . لاننا قررنا الا نقبل الا بالحب

سلاحاً . وان نتجنب العنف ، الجسـدي والمعنوي . وان نتجنب الشكوك الجانية والملتوية . وان نتجنب البغض .

قررنا ان نبني ملكوتنا في الحب ووفقاً لمنطقه الخاص ـ منطـق يستدعي شيئاً من العنف ، يختلف تمام الاختلاف عن العنف الآخر ، ذلـك الذي يقتل ويهدم . « ان ملكوت الله للغاصبين » . كنيسـة المسيح هي « لغاصبي » الانجيـل .

... ان نبدل العالم

مطلوب منا ان نبدّل العالم . ان نحوله . ان نزرع فيه التبديل والتحويل . اي الانتقال الى الاحسن ، الى الاكمل ، الى الارفع ، الى الاجمل . العالم ، بين يدينا ، في حالة «خلق» دائمة .

مطلوب منا أن « نخلق العالم » دوماً . مطلوب من الكنيسة ، من شعب الله ، لا العبادة الجامدة ، لا انحناءة العبد . بل الابداع ، والتغيير ، والخلق . أي المشاركة مع الله . اي التحويل . لايكفي التأمل ، ولا الشروح .. ولا الكلام ، ولا التغطية وراء السر ، وراء السحر . بل العمـل على تبديل كل شيء : الفقر ، المرض ، الالم ، الموت . بل العمل على النهوض بالانسان .

الكنيسة (في الغرب وعندنا)

الكنيسة في الغرب في مرحلة انتقال ، وتحول . في مخاض كبير ، هائل . الكنيسة عندنا ايضاً ، اكثر فأكثر . هناك فرق :

ـ الكنيسة في الغرب ، مخاضها من الداخـل . لا خطر يهدد بقاءها من الخارج . هذا المخاض ، أياً كان ، سيؤدي حتماً الى تبلور . الى قيام كنيسـة شابة . فتية بالروح ، والايمان والالتزام المناسب .

ـ الكنيسة عندنا ، مخاضها من الداخل ، ومن الخارج ايضاً . مصيرهـا الروحي مرتبط بمصير وطني ، زمني ، بمصير أمة . هنا الدوّامة التي تدعونا الى

الحكة ، الى الجرأة ، الى المغامرة ، الى الانصياع للروح .هذا الارتباط المصيري بالوطن له طرفان :

طرف اول : ان تذوب الهوية المسيحية في دار الاسلام ، وتفنى ، ويتوارى الوجود المسيحي بكل وجوهه . (هل هـذا ما يحدث في سوريا ؟ في مصر ؟ هل هذا ما قد يصير اليه المسيحيون في سائر البلدان العربية ؟)

الطرف الثاني : يأتي عن ردة فعل عنيفة حيال الخطر الذي قد يسببه الطرف الاول . هو التجربة الكبرى المتربصة ، في قيام وطن مسيحي، قومي، منفصل ، ثابت بذاته . نوع من «اسرائيل» مسيحية بجوار البلدان الاسلامية . ان لم نقل بالتنافر معها ، او العداوة . طرفان ... لا نرضى بهما .

لبنان ، وطن قومي مسيحي : هذا يعني زوال «لبنان» الحق ، لبنان المثل الفريد بين الامم ، «بكثاريته» الدينية والعنصرية والذهنية . لبنان النافذة على الغير .

ولبنان اسم بلا مسمى في غمرة البلدان الاسلامية ، لا مجال فيه لبروز « الشخصية » المسيحية الحق : هذا يعني زوال المسيح في دار الاسلام ، وزوال الكنيسة .لا . لا هذا ولا ذاك . في هذا وفي ذاك تموت الشهادة الحق .

شبابك « الماركسي »

« شبابك الماركسي » يقولون . اي الشباب حواليك ، المطعمون ماركسياً. وانا اسأل : « ماذا تعنون بالماركسي ؟ » . لا يجيبون ، يكتفون بالقـول : « نحن نعرف » . « من هو الماركسي ؟ قولوا ــ اشرحوا لنا » . « هو من لا يؤمن بالله . هو الملحد » . هذا هو جوابهم : حواليك ، انت الكاهن ، شبان ماركسيون . اي ملحدون ، اي لا يؤمنون بالله . هنـا ، في زغرتا ، هنا في البيئة المسيحية المشهورة . في «عاصمة الدين» (كذا) .

١ ــ الشباب ، الذين يعنون ، هم مؤمنون. اكثر من غيرهم مؤمنون . هم يفتشون عن وجه الله ، وجه الله الحق .

٢ ــ هم يرفضون الصورة المزيفة عن الله . كما عرفوها في بيئتهم ، في المدرسة ، في البيت ، في الشارع ، في الكنيسة عندنا . يرفضون صورة الله القائمة على

الحرف ، على التقليد الجاف ، على الطقس الميت . يرفضون قنـــاع الله البوليسي ، العسكري . يرفضون عبادة الله الواقفة على القشور .

٣ ـ انا أعرف ما يعانون من ازمة نفسانية في سبيل اللقاء مع الله الحق . مــع إله يسوع المسيــح . اعرف الصعوبات والحواجز . انا اعرف الحرقة المشتعلة ، الخفيفة التي تكوي ضلوعهم . انا اعرف الشوق والحنين الى اللقاء مــع الله « وجهاً لوجه » .

٤ ـ ان ينبذوا صورة الله المزيفة (وما يلحق بها) ، هذا ما علمنــاه ، ونادينا به في الخفية ، ومن على السطوح ـ من أجل الله الحق . طوبى لهم ، انهم حفظوا الامثولة .

لا ، ليسوا ملحدين . انهم مؤمنون . انهم يريدون ، في ايمانهم ، الصورة الحق عن الله . من أجل الخلاص ، من أجل السعادة ، من أجل الحب . لا من أجل الفولكلور ، والزينة ، والتعصب ، والطائفية . لا من أجل تعليق صليب صغير من ذهب على صدرهم العاري . ثم نسيان المصلوب مدى العمر .

على كل ، هذه تهمة تأتي من جماعة لا يعرفون الله ، إلا بقدر ما يخدم مصالحهم ، وسياساتهم ... جماعــة حياتهم « دينونة لهم » ، ومواقفهم ، وحروبهم . عندهم الله في خدمة مصلحة الانسان ، الله للمتاجرة به ، باسمه . عندهم الله بعــد الانسان . لا ، هذا لا نرضاه ... لن نرضى به . وليقولوا عنا إننا ماركسيون ، ما شاؤوا . وليتشدقوا في قولهم .

« بدنا ثورة »

« بدنا ثورة ، شي بيقرف ، شي بينرفز ، بدنا ثورة » . هذه قالهــا جورج ابن الخال ، في لحظة من التعب والاستسلام . صعدت هذه الصرخة من اعماقه ، دون حماسة .

« نريد ثورة » . هو مشهد لبنان ، كما هو عليه ، الذي سلخ منه هذه الصرخة . قالها عن تعب ، وعن خوف ايضاً ، وعن ضيعان ، وعن قلـــق ، وعن ضجر

وقرف . قالها كأنه بحالة لا وعي . كأنها حاجة عسيرة خرجت من صدره .

« نريد ثورة » . صرخت به : « ماذا عملت للثورة ؟ ماذا تعمل لها ؟ ماذا أنت مستعد ان تعمل لها ، ان تقدم لها ، ان تعطيها ؟ » . هذه الصرخة ليست للثورة .كل صرخة شبيهة بها ليست للثورة . كل انتفاضة ليست ثورة . ليست اشارة للثورة ، او بدايتها . صرخة كهذه ليست سوى اشارة الى «هزة جلدية» لا تتعدى القشور الخارجية ، فتنفذ الى القلب . لا تتعدى الكلمة المقـــولة ، فتتحول الى الكلمة المسؤولة . لا تتعدى الرغبة ، فتبرز في العمل .

الثورة يجب ان نستحقها . ان نهيئها في حياتنا . في رغبات قلبنا ،في العادي من ايامنا ولياليتا . في الحرمانات الصغيرة اليومية ، في الأماني الكبار الكبار التي تملأ صدورنا ، كل لحظة من العمر . لان الثورة ليست للدمار . ليست للهدم، ليست للدم ، ليست للفوضى.الثورة هي للبناء ، للعمران ،للروح ، لقوة الروح، المتجددة ، المنتصرة على غلاف الجسد ، على بساط الجمود ، والموت .

الانجيل والثورة

الأنجيل ، الثورة . هناك كلمات قيد التداول في هذه الأيام ، في هـــذه المرحلة التاريخية ، العصيبة ، كلمات « ملغومة » . ملغومة في مداها ، ملغومة على لسان قائليها . انها لم تعد تفهم على حقيقتها .انها تشوهت ، شوهها الاستعمال الرخيص ، افرغها من زخمها الأصيل . شوهها اصحاب الاستغـلال ، اصحاب الفكر المبتور ، المشلول . انحرفت عن النبـع الأصيل ، ضاع صداها . منهـــا كلمتان : انجيل ، ثورة .

يفهم بالانجيل الكتب الصغيرة الأربعة :

- « قصة » تحكي حياة يسوع المسيح ،في الماضي : اخبار حلوة ، وعجائب.
- « دستور » للدين المسيحي ، عتيق . (على شكل الجريدة الرسمية).
- « صورة » عن الله . صارت بعيدة ، غير واضحة .
- « شيء » مقدس ، لا يمس ، يسجد أمامه ، يحلف باسمه ، يشهر السيف

في سبيل الدفاع عنه ،يُتاجر به (تجار الانجيـــل هم «لاجيون» (Légion) .
لكن ... لا يفتح ، لا يستقرأ اليوم ، في هذا الظرف .

هذه خيانة للانجيل . الانجيل هو يسوع ، الحي ، القائم ، الظافر ، الآن ، بين البشر ، في مصب انهار وسيول هذا الجيل الصاخب . هو يسوع الايمان النابض . الآن يصرخ انه الطريق ، الآن ينادي بالتطوبيات ، يزمجر بالويلات ، ينحني فوق الشعب ويعطيه حاجات نفسه وجسده (هي ذاتهـــا) . هو يسوع الحب . و«الحب له اسم اليوم ، هو الترقي » يقول بولس السادس . الانجيل هو انجيل الترقي ، اي الانتصار على التخلف ، على الفقر ، على الجهل ، على المظالم ، على استغلالات البشر للبشر ، على العنف الظاهر والخفي (خصوصاً المتستر في الأنظمة القائمة اليوم ، قاتلة الحريات) . الانجيل هو يسوع الذي ينادي بتبديل قلب الانسان ، بتبديل المجتمع ، بتبديل البشرية ، في سبيل المزيد من الحرية ، والعمران ، والتطور ، في سبيل المزيد من الخلاص .

من هنـــا ينبـــع مفهوم الثورة الحق . يفهم بالثورة الهدم ، السطو ، الدم . عملية جماعة من الناس ناقمين ، ضائعين ، هدامين . محاولة فريق يسعى وراء المغانم ، والاستغلالات ، والانانيات . هذه خيانة للثورة . الثورة هي قيـــام الحق ، والعدل ، والمساواة ، والحرية . هي القضاء على الظلم ، على العبوديات ، على سائر وجوه التخلف . من أجل عالم أفضل ، من أجل انسان افضل . هي الانتفاضة الخيرة للبناء . ليست كل انتفاضة هي انتفاضة ثورة .

إن بادرة الثورة ، في عالم اليوم ، في انطلاقتها الأصيلة ، تنبـــع من انجيـــل المسيـــح . يلتقيان : الانجيل والثورة يلتقيان . ان الثورة الحق منطلقها الأصيل من الانجيل . من صوته الذي يدوّي في الأجيال . في جيلنا ، ويهزّه .

الشهادة والاستشهاد

«موتي شرط لانتصار قضيتي» . يظهر أن هذه الـكلمة تلفظ بها «سعاده» في اللحظات الأخيرة من حياته . لا شك في ان سعاده يعرف انجيـــله معرفة كاملة . كل قضية جدية لا تكتفي بالشهادة (شهادة العمل ، وشهادة الـكلمة) ،

انها تطالب بالاستشهاد . لا يُستغنى عن الصليب في الحياة . لا يمكننا ان نستغني عن الصليب ـ صليب المسيح طبعاً ـ اذا شئنا أن نبشر بالمسيح . الكنيسة التي ترفض صليب المسيح لا يمكنها ان تكون للمسيح . موت الكنيسة عندنا ـ على صليب المسيح ـ شرط لانتصار قضيتنا . قضيتها . فلتُصلب . فلنُصلب معها .

الميتات الممكنة

الارتواء جيداً من هذه الفكرة : الاستعداد لكل أنواع الموت الممكنة من اجل قضيتك الخاصة . لها منطقها الخاص ـ لا يتوقف ابداً . لا يمكنك ان تقول : كفى. انها تقودك الى ابعد. كل موت ذقته حتى الآن لم يكن الا سبيلا. سبيلا صاعداً . وسيكون هناك أنواع أخرى ، واخرى . الاستعداد لذوق كل أنواع الموت الممكنة من اجل قضية المسيح وكنيسته . في لبنان . في الشرق العربي .

العمل الفدائي

الفدائيون ، العمل الفدائي : حقيقة الفداء حقيقة مسيحية بالأساس . نحن نعيشها . نعيش ذكراها بنوع خاص في سر الآلام ، والموت ، والقيامة . « سر الفداء » :سر خلاص البشر في شخص المسيح . حقيقة مسيحية صرف . هي عنوان الحب : عطاء الذات حتى الموت . حتى هدر الدماء . حتى هبة الحياة ، حتى النهاية . هي عنوان الفتح : تحرير الانسان من العبودية الكبرى . عبودية الشر الاخطبوطية . هي عنوان القتال في اوسع ساحات القتال . اعني قلب الانسان ـ الذي هو وطن الله بالذات . من هذه الحقيقة تنبعث حقيقة اليوم في شرقنا : العمل الفدائي ، الفدائيون ، في القضية الفلسطينية .

العمل الفدائي القائم على هبة الذات (الدم والحياة) حتى النهاية . القائم على تحرير الأرض (وما تعنيه) ، وتحرير الانسان فيها . القائم على استرجاع وطن عزيز . هو اليوم على اساس خلق انسان عربي (لبناني) جديد . انسان العطاء والخلق ، الانسان الذي هز «السكونيات» والانانيات والرياءات فينا . الانسان

الذي حطم قيوداً من العقد العديدة ـ من الخوف والكبت . الانسان الذي زج بنا الى الأمام . انتهينا من المواقف الكلامية . انتهينـــا من انظمة ساطية ، وضائعة ، ورجعية . ومن أشباه العقائديات التائهة . العمل الفدائي علمنا ان الانسان العربي يمكن أن يكون « طليقاً » . لا بوجه دولة اسرائيل فحسب . ولكن بوجه العرب (وما اليهم من عقد ومركبات) . ولكن ايضـــاً وبنوع خاص بوجـــه ذاته ، في صميم وجوده . الانسان العربي ، بالعمل الفدائي ، هو منطرح الى الأمام ، الى الابداع . تخطى العبوديات . انبعث حياً . دحرج الحجر الكبير عن القبر الذي دفنوه فيه . بالصليب والانبعاث الظافر يطل علينـــا الانسان العربي اليوم .

الفدائي ، منبعه الأصيل من «الفدائي» الأول : المسيح . بفضل العمل الفدائي ، دخلت حقيقة «الفداء» الذهنية الاسلامية العربية ، العالم الاسلامي العربي ، من الباب العريض ، السلطاني . خطوة في العمق نحو الحوار المستحب .

لا يحق لنا ، في هذا المجال المقدس ، الاستغلال الحقير . لا يحق لنـــا الانعكاسات الملتوية . لا يحق لنا الالتباسات المغمورة لغايات ضيقة ، غريزية ، غير شريفة في غالب الاحيان . المسيحي المؤمن ، بالعمل الفدائي ، يطأ أرضـــاً أليفة ، وعالماً نشأ فيه ومنه . هو بالفعل عملنا كمسيحيين .

يوم في التاريخ : ٢٣ نيسان ١٩٦٩

٢٣ نيسان ، عيد مار جرجس . «يوم تاريخي» ـ هكذا اصبح على حد قول بعضهم . قالها للشماتة ، للغضب ، للنقمة . أجـــل ، يوم تاريخي . للمرة الأولى يشهد لبنـــان هدر الدماء في قسم واسع من مناطقه ، هدر الدماء على هذا الشكل . هذا نتج عن سياسة اللاوضوح ، كما ينهجها لبنان واللبنانيون . هـــذا ايضاً يشير الى عملية «تحول» في النظرة اللبنانية السياسية ، نابعـــة من الموقف الطلابي ، موقف الشبيبة . لعبة لبنان السياسية الكبرى (في قضية النظام ، في قضية فلسطين ، في قضية المصير ، في قضية الانعاش والتطور) لعبـــة كذب واسع ، فاضح . منذ الاستقلال تقريباً منهجنا منهـــج الكذب ، واللف ، والدوران ، والمناورات المتسترة ، والأوهام ، منهج اللاوضوح ... وعاقبته ،

حتمــاً ، الكارثة .

هذا من جهـــة .

ومن جهة اخرى «ارادة» الأجيال الطالعة ترفض هذا المنهج . والعقليـــة الناتجة عنه ، والنظام الذي يغلفه . انها تسعى وراء التبديل ، التجدد . «ارادة» تتخبط ، تعاني ، تضرب ، تتعثر ، تخطىء ، تنهض ، تعلن ذاتها . «ارادة» ، شيئاً فشيئاً ، تفرض نفسها . هذه «الارادة» تريد التحول ، مهما كلف الأمر . الغد لها . الغد لها بدمائها الزكية ، وجهودها .

نحن نريد الوضوح ، الاشراق . نحن نريد ازالة الاقنعــة عن الوجوه ، عن الانظمة ، عن اللعبات . قال أمين « طالما نكذب ، نحن نبقى على طريـــق الكارثة » . قالها بعفوية ... وأصاب . منهجنا الوضوح ، يعني الحق ، ويعـني معرفة الذات . ويعني معرفة الاهــداف ، والامكانيات . منهجنا الوضوح ، نريد أن نسير على درب النور . ونحن نريد «التحول» الكامل . التاريخ ـ ليس مجموعة من الأحداث ، والظروف . التاريخ هو «ارادة» . نريد التحول ـ « للتغيير ، والخلق ، والابداع ».

فلسطين

اننا نحمل فلسطين في صدورنا . علمتنا ضحايا الأمس وأزمة أمس الوطنية اننا كنا نحمل فينا فلسطين . دون ان ندري ، دون أن نعي ، بالرغم من ثرثرتنا الواسعة . فلسطين هي فينا . ليست على الحدود ، ليست خارج الحـــدود . ليست لليهود ، مع اليهود . هي فينا ، وطن سليب فينا ، وطن صليب فينا . دون ان ندري . دون ان نعي .

فلسطين فينا ، نحن المسيحيين بنوع خاص . القضية الفلسطينية ، بالنسبة الينا نحن المسيحيين ، قد تكون قضية الوطن ، او قضية البقاء في الوجود ، او قضية العقل والمنطق ، قضية سياسية ، او قضية عسكرية . لكنها ، قبل كل شيء ، هي قضية الايمان ـ ايمانيـــة . لا قضية « الدين » ـ على حسب المفهوم «الطائفي» . لا قضية الوجه الاجتماعي للدين . هي قضية الايمان ، في الزاوية الحيمة منه . قضية علاقتي المباشرة مع الله ، مع المسيـح . لا لأن فلسطين هي

وطن المسيح (هذا لا يكفي) . لا لأن فلسطين هي موطن الجماعة المسيحية الأولى (هذا لا يكفي) . لا لأن فلسطين هي منبع التراث المسيحي (هذا لا يكفي).لا لأن فلسطين هي رمز لارض الميعاد وصورة لها (هذا لا يكفي). قضية الايمان ـ لانها تطلب مني أن «تتجسد» عقيدتي المسيحية بكاملها ، في هذه المرحلة من الزمن ، من التاريخ . فتقبل الالتزام ـ من أجل التضحية ، والعطاء ، والفداء ، من أجل الشهادة في البيئة التي اوجدني الله فيها . قضية فلسطين هي قضية معنى وجودي المسيحي في الشرق هنا . هي قضية معنى وجود الكنيسة في البلدان العربية .هي قضية معنى وجود المسيح بين المسلمين . هذا كله في قبضة يدي أنا . هذا كله في ايماني . وهذا كله ، أنا مسؤول عنه .

حان لنا ان نفتش عن فلسطين فينا . أن نكتشفها في صدورنا . ان نعرفها من الداخل ، ان نحبها ، ان نحبها فينا ـ فنستحق أن نجاهر بقضيتها أمام الملأ . ان نناضل في سبيلها . ان نتطوع حتى النهاية ، فيكون لها الفداء .

النظام البديل

يقولون لنا : «تعرفون ما لا تريدون، لكنكم لا تعرفون ما تريدون . ترفضون نظاماً ، ولا تقدمون بديلاً له » .

هو الاعتراض ذاته يعود دوماً ، عندما تعجز الحجة ، لدى الذين يناقشون معنا ، على الصعيد اللبناني ، وبنوع خاص على الصعيد الكنسي .

ـ عدم وجود نظام بديل لنظام بال قائم ، لا يعني الرضى عن النظام البالي . لا يبرر وجوده ، وفرضه على الناس . هذا يجب ان يزول ، لانه بحد ذاته لا يستحق البقاء . ماتت فيه طاقات الخير ، والنور ، والعطاء ، والتقدم . لا بد أن يموت هو .

ـ لو كان هناك نظام بديل جاهز لأن يحتل محل القائم ، لما كنا في دوامة خطيرة . لما كنا في حالة اضطراب ، وقلق ، وتفتيش، واجهاض . لما كان هناك مشكلة .

ـ نحن اليوم في لبنان نعاني أزمة مصيرية (دينياً وزمنياً) لأننا أمام أمرين: نظام مرفوض ، وغياب نظام أفضل مرغوب .

ـ واجبنا جميعاً هو التفتيش ، السعي ، العطاء ، الالتزام ، البناء ، في سبيل الانتقال من الاول المنهار الى الثاني ، المنتظر . واجبنا ايضاً الاستشهاد . الشهيد هو العبّارة . هو نقطة الانتقال والتحول ، من الأول الى الثاني ، من القديم الى الجديد . اننا مدعوون الى هبة الحياة .

ـ لبنان والكنيسة في لبنان بحاجة الى شهداء: الى كهنة شهداء، الى سياسيين شهداء ، الى عمال وموظفين شهداء ، الى رجال دين ورجال فكر شهداء . الى مسيحيين ومسلمين شهداء . الى قادة شهداء . من أجل النظام ــ الخلاص .

الأب « ب » زارني

الأب « ب » زارني . صوته فيه نبرة « النبي » . يرى ، ويتكلم ، ولا يهمه . رؤياه قاسية . كلامه قاس . لا محاباة ، لا زغل . اراحني . وأخافني معاً .

منه : « اترك هنا . لا اريدك هنا . بعد الآن . عليّ غيابك يترك فراغاً ... فتعود » .

منه ايضاً : « الطائفة في نزاع ، في انهيار . سوس يتآكلها ، في السلطة ، انحداراً منها . لم تعد تؤدي الرسالة التي وضعت من أجلها . هي تافهة . لا أثر لها في تاريخ اليوم . على هامش التاريخ » .

منه ايضاً : « البشر يلعبون لعبتهم في كنيسة الله . يلعبونها على حسب رغبات قلوبهم ، لا على حسب رغبات الرب . البشر (من سياسيين ومتسيسين وتجار ومتزلفين) يديرون شؤون الطائفة ، الكبيرة والصغيرة . انت ، لا ينظر في امرك بمنظار ديني ، كهنوتي ، روحي بحت . انت ، ينظر بأمرك بمنظار العوامل البشرية ، ودوافع البشر ، ومصالحهم البعيدة عن روح الله » .

منه ايضاً : « صلّ . نحن بحاجة الى الصلاة ، الصلاة الكبرى ، الدائمة ، المؤمنة ، هي خشبة الخلاص ، لأنهم لا يسمعون ، ولا يعون ، ولا يريدون ان

يسمعوا ، ان يعوا » .

ومنه ايضاً : « اذهب الى رسالة الفقر والعمل ، في الرعايا الفقيرة ، المهجورة بعيداً عن المراكز » .

تركني . صوته لم يتركني . رؤياه لم تتركني . عنده شيء من التشاؤم ، وشيء من الجاذبية ايضاً ، من الرهبة ، شيء من طعم الله ، لمّا كان الله يؤدب شعبه .

المرأة والكهنوت في الشرق

يا له من مركب نقص تجاه المرأة : أساسه الخوف ، والكبت ، والسحر ، والمانوية ... عدم التفهم ، والجهل ، والخفّة ...

للتشهير بانسان ما بأضمن وسيلة ، للحط من مستوى موقف يتخذه ، يتهمونه بالمرأة – « كتجسيد للشر ، للخطيئة » على حد قولهم . ذلك متأتٍ من تفكير رجعي ، مغلق ، ممسوخ ، حول سر الجنس ، وحول أبعاده الانسانية الحقة . يجب ان تكون لنا الشجاعة لمجابهة المشكلة مجابهة صريحة – بالنسبة الى كهنوتنا حملة تطهير حقة . معركة ، علينا نحن ، ان نخوضها بروح ابناء الله . بروح العنصرة . ان نحرر كهنوتنا من المفهوم (غير اللائق ، الوثني ، الرجعي) ، الذي كوناه عن المرأة ، وعن الجنس . هكذا يكسب كهنوتنا مدى جديداً في مجال العظمة والحقيقة .

الله والجنس

« ان الفن الأوروبي يدور حالياً حول موضوعين : الله والجنس . كأنّ احدهما صدى للآخر » . هذا ما قاله احدهم بعد جولة في أوروبا .

كأنّ واحدهما مربوط بالآخر . وهو حتماً مربوط به . والرباط ، في العمق . هو مشكلة « الحياة » باوسع ما تعنيه . الحياة اي الخلق ، اي الانسان ، اي الكائنات ، اي الاعماق والجذور .

لا يحق لنا ان نخاف من « الحياة » . ان نخاف من « الخلق » . الجنس – اننا

نربطه بهذه الرؤيا ـ كما يتحدث عنها الكتاب المقدس في صفحاته الاولى . رؤيا الخلق : الخلق على مثال الله وصورته . خلق الانسان ، والخلق عند الانسان . الخلق في الرجل وفي المرأة ـ في هذين الاثنين الواحد . الجنس ـ ليس محرماً إلا بقدر ما يقع الشذوذ عن الخلق . لكن الشذوذ ليس الاصل ، ليس البداية ، ليس الحقيقة . في البدء كان الخلق ، كان الجنس ، ما أروع حقيقته ! انها مشدودة تماماً الى الله بكل جذورها .

سوس

أخاف من سوس ينخر من الداخل : هو « العادة » ، الروتين . هو أن اقبل ما انا عليه عن طريق «العادة» . هو ان اعتاد على الشيء ـ كما تفرضه تفاهة الأيام ، والرقابة ، والاهمال ، وطـــول الزمن ، والنسيان ، والرضوخ للأمر الواقع ، والتساوي مع الظرف المفروض . هو ان تخمد فيّ النار المقدســة ، الحرقة ، الرغبة ، الزخمة ، « الثورة » ، الصرخة ، التلوع . هو الرضى عن طريق العادة ، والقناعة من أسفل . هو التصفية مع الزمن ، التصفية من اسفل .

هذا قد ينتج عن غياب في «العمل» . التاريخ ـ تاريخ انســان ، او شعب ، أو البشرية ـ هو «العمل» . الزمن وحده لا يكفي . عمل + زمن = تاريـخ . وبالنسبة الينا كل تاريخ هو تاريخ خلاص . هو تاريخ مقدس : الله هنا فيــه . العمل في حياتي الكهنوتية هو الذي يبني تاريخ حياتي الكهنوتية . العمل حركي . هو التاريخ في الزمن ، كما قلته . هو ايضاً الحرية . هو ايضاً البناء ، الخلــق ، الابداع . العمل منطقه منطق الحركية المبدعة . هو الانسان . لان الانسان ليس مفهومــاً جامداً ، كائناً « سكونياً » . الانسان ينمو ، قابل للتطور ، يتطور . الانسان يصبح اكثر انسانية بقدر ما «يعمل» . بقدر ما يبني ، ما يخلق ما يمارس الحرية . بقدر ما يؤثر في الزمن الذي يعيشه . «العادة» كتصفية للزمن مع الزمن هي بالوقت نفسه تصفية للتاريخ ، والحرية ، والخلق . هي اعــدام «العمل» . هي موت الانسان . تصفيــة الانسان فيّ ، والكاهن ، والرسول . انا أمر بأوقات أشعر فيها انني على درب مثل هذا الموت ، الذي ليس هو موت الصليب والخلاص .

ضد زغرتا ولبنان

أنا ضد زغرتا . أنا مع الزغرتاوي ، مع الانسان في زغرتا .

ضد زغرتا ـ الاسم الكبير ، الاسم الوهم ، ضد زغرتا ـ التاريخ المحنّط . ضد زغرتا ـ الصنم . ضد زغرتا ـ الواجهة . ضد زغرتا ـ الامجاد . باسم زغرتا نتباهى ، نحمّل أنفسنا احمالاً ثقيلة . باسم زغرتا نرتكب الجرائم ، نتعدى على حقوق الناس . نظلم . من اجل كرامة زغرتا نستر الظلم ، والألم ، والجهل ، والتخلف ، والفقر . أنا مع الانسان الزغرتاوي ـ الفقير ، المتخلف ، الجاهل ، المتألم ، المظلوم ، الممزق ، المقهور ، الضعيف . أنا يهمني خلاص هذا الانسان ، سعادته ، حريته ، سيادته ، جوعه وعطشه الى العدل ، الى الله .

هكذا أنا أيضاً ضد لبنان . أنا مع اللبناني ، مع الانسان اللبناني ، مع الانسان في لبنان . لا يهمني الارز الخالد . لا يهمني لبنان التاريخ . لا يهمني الارض والسماء والبحر وبعلبك ، بقدر ما يهمني سعادة الانسان اللبناني ، وحريته ، وازدهاره . لا تهمني سيادة لبنان الدولة بقدر ما تهمني سيادة الانسان اللبناني . أنا ضد الأصنام . أنا مع الانسان ، في زغرتا ، في لبنان ، في كل مكان .

عملية تصفية

مع المطران ، حول استقالتي من رعية زغرتا . تبيّن لي بوضوح .

١ ـ لا امكانية للعمل في بيروت ، أو في حقل التدريس . السبب ؟ ـ النشاطات التي كنتَ تقوم بها غير مرغوب فيها . وغير مرغوب ان تعود اليها .

٢ ـ لا امكانية للتخصص في اوروبا . السبب ؟ ـ افكارك الآن غير مرضية . وغير مرغوب فيها . ان تذهب الى أوروبا وتعود منها حاملاً الينا افكاراً غيرها ، هذا ايضاً غير مرغوبٍ فيه .

٣ ـ لا امكانية للحصول على رعية ، اية رعية في لبنان . السبب ؟ ـ انت شخص غير مرغوب فيه . والعمل ؟ العمل ؟... بلاد الله واسعة . ما لك إلا ان تسافر ... هناك اميركا ، هناك اوستراليا ، هناك المكسيك ... سافرْ .

لي شعور واضح ، ساطع ، يتلوع له ومنه كل ضلع من ضلوعي ، بانني انسان

غير مرغوب فيه في لبنان . يريدون ان يتخلصوا مني . ان يرتاحوا ..

في النهاية قال المطران :
« قدّم رسالة استقالة رسمية »

عملية تصفية .

الخسارة الكبرى

خبر سفري الى المهجر ينتشر . يقولون : « خسارة . نخسرك ... » اقول أنا : « هناك خسارة واحدة ، هي أن نخسر المسيح . هي ان تخسر كنيستنا المسيح . هذه هي الخسارة الوحيدة ، الكبرى ».

نريد الاصلاح لكي لا تُمنى كنيستنا بمثل هذه الخسارة .

التاريخ : ارادة ورؤيا

كتبت على واحدة من هذه الأوراق بأن التاريخ ليس مجموعة من الاحداث. تتكدس بعضها فوق البعض ، تتسابق ، تتلاحق ، تتصارع . التاريخ هو «ارادة» . ارادة ، لا قدر ، لا خبط عشواء . ارادة . له معنى ومبنى ينبع من الانسان ، وفوق الانسان ، ومعه ، ومن اجله ، ينبع من قلب الله . ارادة تبني ، تجهد . أضيف : التاريخ ليس ارادة وكفى . هو ايضاً رؤيا . وبقدر ما تكون الرؤيا نيّرة ، واضحة ، واسعة الآفاق ، والابعاد ، يكون التاريخ عظيماً . واذا كانت الرؤيا رؤيا المحبة ، فالتاريخ هو تاريخ المحبة ، أي الخلاص ، الرجاء ، الفرح ، الكمال ، السعادة . الارادة تبني ، تجهد ، تسير في مناخ هذه الرؤيا . تتمخض فيه ومن أجله ، تتألم . تتكبد ألم هذا التمخض الكوني من أجل ولادته . التاريخ رؤيا . نريده رؤيا الله في المسيح يسوع ، هنا، في شرقنا.

دكتور الدويهي

(وضع العنوان الرئيسي لهذه التأملات ونسقها قلم التحرير في المجلة)

وثائق

في مفهوم الطليعة السياسية

(نقاش بين ادريانو سوفري وورومانو لوبريني *)

ادريانو سوفري

١ ـ اية طليعة ، او تنظيم ؟

لماذا لم نستطع حتى الان ان نحل مشكلة الحزب ـ لا من حيث كونها مسألة تنظيمية ـ بل من حيث كونها مسألة ابعاد سياسية عامة ؟ كانت المسألة في الماضي تطرح بشكل مغاير ، وقد رفضنا جميع الاشكال الماضية ومنها هذان المفهومان : المفهوم الاول الذي يعتبر ان وعي ضرورة الحزب والادارة السياسية المنظمة كفيلة بخلق الظروف لهذا الحزب .

والمفهوم الثاني الذي يرى في الادارة السياسية وفي الحزب استمرارا للتقليد الثوري (الماركسية والماركسية اللينينية والماوية) بحيث تفهم الاستراتيجية الثورية دائما وكأنها عودة الى « شيء ما » .

لقد اخترنا سبيل المواجهة المباشرة المستمرة مع واقع الطبقة التي نعيش

---

* ادريانو سوفري وورومانو لوبريني كاتبان ايطاليان يساريان ، يتناقشان هنا حول مفهوم الطليعة السياسية ، ضمن إطار العمل السياسي ـ الثوري في ايطاليا . وفي نشر آرائهما ما يفيد النقاش حول مفهوم الطليعة العربية .

فيها ، وكان خيارنا حاسما ومهما هيأ لنا اكثر من فرصة للتفكير والتأمل ٠

الادارة الثورية والاستراتيجية والتنظيم ، بالنسبة لنا، لا تستمد شرعيتها من التقليد ولا من وعي ضرورة الحزب ، بل من علاقاتها مع الجماهير ومن قدرتها على التعبير الواعي عن الحاجات الثورية للجماهير المضطهدة ٠

هل معنى ذلك ان الادارة الثورية تتوالد بشكل عفوي من الجماهير وانها تأتي مطابقة لحركة الجماهير نفسها ؟ هل يمكن ان نستنتج من ذلك تحديد هوية الطليعة الجماهيرية ؟

الجواب على ذلك بالنفي ٠ ولكن المسألة الحقيقية هي في تحديد مفهوم الطليعة ٠

يقول لينين ان الوعي الثوري هو نتيجة اللقاء بين الكفاح الاقتصادي للطبقة العاملة والمثقفين الماركسيين ، والبورجوازية ٠ الوعي الثوري عند الطبقة العاملة يأتي من « الخارج » ، والحزب ، باعتباره المنظمة الثورية المسلحةبعناصر التحليلالماركسي، هو الذييجسد الوعي الثوريللبروليتاريا٠

وهنا لا بد من الاشارة الى حجة يقدمها مناوئو اللينينية هي البيروقراطية الملازمة للمفهوم اللينيني ٠ وتاريخ حزبالبولشفيك هو تاريخ الكفاح البطولي الصامد والمنظم لنسج العلاقات مع الطبقة العاملة والجماهير الكادحة ٠

والثقة بالجماهير والقدرة على الارتباط بها في ظروف تجعل الكفاح بالغ الصعوبة ، امور لا يمكن ان يتجاهلها اي انسان يريد فهم انتصار ثورة اوكتوبر ٠

لكن التعريف اللينيني لا يمكن ان يعطينا اليوم حلا للمشكلات التي تتعين علينا مواجهتها ٠

فالتعريف اللينيني للكفاح العمالي العفوي ككفاح اقتصادي يحملنا على ان نطرح مسألة علاقتنا مع الطبقة العاملة وكأنها غزو ايديولوجي ، واقحام من الخارج للوعي السياسي ٠

والواقع ان الكفاح العمالي العفوي لا يقتصر على المجابهات «الفردية» مع ارباب العمل ولكنه يبلغ حد الرفض للعقلانية الرأسمالية ، وهذا ما نراه في الكفاحات العمالية في البلدان الرأسمالية المتقدمة (فرنسا ، فيات ٠٠) حيث تعمل النقابات نفسها على الحد من هذا الكفاح وتحويله بشكل او بآخر الى نوع من المطالب الاقتصادية المباشرة ٠

كل ذلك لا يبرر ماورائية التنظيم العمالي الذاتي كما لا يبرر قصر الوعي العمالي على دائرة علاقات العمل في المصنع ٠ لكننا يجب ان نعترف بان الوعي عند الجماهير لا يأتي من « الخارج » ٠ كما اننا لا نستطيع من ناحية ثانية ان نكتفي بالتعريف الذي وضعه لينين للمثقفين (الممثلون المثقفون للطبقات

المسيطرة) ، فالتعريف لا يأخذ بعين الاعتبار التبدلات التي طرأت على تكوين الطبقة في الامبريالية المعاصرة ، كما تدل على ذلك الحركة الطلابية (الا اذا استمررنا في تعريف الطلاب بانهم مثقفون بورجوازيون يقومون بالثـــورة ويخونون طبقتهم) .

اذا كانت نظرية لينين التي تقول « لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية » ما زالت صحيحة ، فمن الصحيح ايضا ان المقصود ليس نظرية تدخل الـــى وسط الجماهير وانما نظرية تنمو داخل كفاح هذه الجماهير كوعي مدروس لحاجات الجماهير وتعميم هذه الحاجات في عملية جدلية مستمرة .

ان الذي يريد دراسة نتائج تجربة تاريخية غنية بالدروس لا يمكـن ان ينسى كيف كان مفهوم الطليعة عند لينين مبررا فيما بعد لنوعية العلاقـــة القائمة بين الجماهير والحزب ، وليست المشكلة بالطبع هي رقابة الجماهير على الحزب وانما العلاقة التي تربط هذه الجماهير بالحزب .

ان الصورة التي ترسم علاقات الحزب بالجماهير على الشكل التالي : الكفاح العمالي (اقتصادي بذاته) ، المنظمة الاقتصادية للعمال (النقابة) ، رقابة الحزب (الوعي الخارجي) على المنظمة الاقتصادية ومنها على الطبقة ، ـ هذه الصورة غريبة عنا كليا .

ان العلاقة التي تنطلق من تسييس وتنظيم الجماهير حتى تصل الى طليعة ثورية هي العلاقة الوحيدة التي تؤدي الى الطريق الصحيح ، وليس في ذلـــك ضرورة ذاتية للديمقراطية في القاعدة وحسب ، بل ضرورة موضوعية كذلك لأن الثورة لا تصبح ضرورية بتهافت الرأسمالية اقتصاديا وانما بنضج المجابهة السياسية بين البروليتاريا ورأس المال ، مما يعني الانتقال من بعد التمرد الى بعد الكفاح المسلح الطويل المدى ، حتى في البلدان الرأسمالية المتقدمة .

والكفاح العمالي في فرنسا يعطي مثلا واضحا عن ذلك ، وقـــد تباينت التفسيرات الخاطئة لهذا الكفاح لكنها تظل جميعها في فئتين يمكن تصنيفهما على الشكل التالي: التفسيرات التي اخذت الطابع **العفوي والسياسي** للانفجار العمالي وبررت به المواقف العفوية (رفض العمل على اساس المنظمة والادارة السياسية) والتفسيرات التي بينت ان الكفاح بهذا الشكل عاجز عن الوصول الى السلطة وعزت ذلك الى غياب الحزب الثوري الذي يتولى القيادة .

التفسيرات الاولى كذبتها الاحداث نفسها ، والثانية يبدو فيها الحـــزب كأنه ادارة « خارجية » ، ذات منطق مستقل ، تتولى في ساعات التوتر الحاد قيادة الحركة العفوية لترسم لها طريق الاستيلاء على السلطة . وبمعنى آخـر فان حركة الجماهير موجودة ولكن لا رأس لها وعلينا ان نخلق الحزب ونربط الحركة به !

لقد وقفنا نحن موقفا مخالفا لذلك ، فالمسألة التي كانت مطروحة في

فرنسا لم تكن مسألة تسلم السلطة وانما مسألة السلطة ، ولقد طرحت المشكلة اكثر من طليعة **مهمة عفوية ، لا قيادة خارجية** • لكن الكفاح البروليتاري العفوي وجد في انقسامه وفي انعدام تنظيمه الحدود التي لا يمكن تجاوزها لقوته **السياسية والعملية** • والمهام في هذه المرحلة هي مهام التنظيم وربط طلائع الجماهير وتجميعها • وبهذه الطريقة وحدها يمكن للادارة السياسية العامة ان تصبح ناضجة ويمكن للمواجهة انتؤدي الى وضع منالازدواجية بين السلطة وتهديم الدولة البورجوازية ، لان المسألة ليست في ان نضع انفسنا على رأس الجماهير بل ان نكون رأس هذه الجماهير •

ان مفهوم الطليعة الخارجية الذي اناقشه هنا له اهمية خاصة بالنسبة لتجربتنا كمناضلين في الـ « بوتيري اوبارايو » فقد ولدت هذه المنظمة من البادرة الذاتية لبضعة افراد اتفقوا على توجيه سياسي معين وقرروا على هذا الاساس ان يبدأوا عملا تنظيميا بين العمال (ليس العمال وحدهم) •

هل ان ما نقوم به يعتبر ايضا طليعة خارجية ؟ الواقع انه كذلك في كثير من الحالات ، لكنه غير ذلك بالنسبة للمبادىء لاننا لا نعتبر انفسنا نواة ولو صغيرة لحزب وانما مجموعة من المناضلين يريدون تهيئة الظروف الضرورية للتنظيم الثوري •

وتاريخ عملنا السياسي ــ وهو تاريخ مليء بالعثرات نظرا لعدم الكفاية الذاتية ــ مليء بالدروس • واذا لم يكن في هذا المجال مكان لتبيانها ، فان هناك نقطة اساسية لا بد من الاشارة اليها ، ففي فترة ما اصبح التفكير حول اشكال التنظيم في القاعدة (اللجان) تفكيرا جماعيا ، واكتشفنا اهمية « المجالس » • لكن مسألة المجالس كانت تطرح امامنا بشكل جديد في امتداد العمل الذي يقوم به الرفاق ، كثمرة لتحليلنا لعدد من التجارب الاساسية : تجارب الحركة الطلابية وتجارب ايار الفرنسية ، والكفاح العمالي في ايطاليا ، والثورة الثقافية •

واستطعنا ان نرى بوضوح الطريقين اللتين تأرجحنا طويلا بينهما ، من ناحية القيام بدور الطليعة الخارجية مع كل ما يستتبع ذلك ، ومن ناحية ثانية امكانية العمل من خلال نمو حركة الجماهير ، **كأول شكل من اشكال الاتصال بين مجموعة طلائع الجماهير** •

ماذا يعني هذا التمييز ؟

الى اي حد تعكس هذه المصطلحات الواقع السياسي ؟

مع العمال (الجماهير وليس الافراد) اقمنا علاقة تقوم على عنصرين مترابطين :

ــ استنكار السلطات المعطاة للمنظمات البيروقراطية واقتراح التنظيم العمالي المستقل •

ـ خط سياسي ينطلق من مشكلات تنظيم العمال حتى يصل الى المشاكل الاخرى كالكفاح ضد الامبريالية ..

ان « نجاح » عملنا كان يمكن ان ينعكس على نمو الاستقلالية الخلاقة عند الجماهير وفي الوقت نفسه يعطينا دور النقابات والاحزاب اللاثورية . وفي هذه الحالة الثانية كان يمكن ان نكسب ثقة الجماهير ولكن بأسوأ الطرق عندما نقيم من جديد علاقة التسلط نفسها بمحتوى سياسي مختلف . وبهذا المعنى نكون قد اصبحنا الحزب الذي نحاربه .

هذا هو الخطر الحقيقي الملازم لاقتراحات العمال الذين يطلبون منا « تنظيم نقابات اخرى » او « اعلان الاضراب » او « تأسيس منظمة » لانه اذا كان صحيحا ان العمال يملكون « ذهنية التنظيم » فمن المفيد ان نذكر هنا برد روزا لوكسمبورغ على لينين : « ان لينين يمتدح اهمية المصنع التربوية التي تسلح البروليتاريا بفكر ملازم للنظام والتنظيم . لكن النظام الذي يتحدث عنه لينين لا تكتسبه البروليتاريا من المصنع وحده وانما تكتسبه من الثكنة كذلك ومن البروقراطية الحديثة وبكلمة واحدة من كل آلة الدولة البورجوازية المركزية » .

بالاضافة الى هذه الاعتبارات التي اكدها الكفاح الطلابي الحالي ، هناك ملاحظة رئيسية هي ان المنظمة خلال العهود الرجعية كانت تفرض نفسها على البروليتاريا بواسطة الاقتراع والانضمام الاعمى للحزب ، وهذا ما يفسر بروز الاتجاه الى « القيادة الخارجية » في كل وقت .

والرد علىهذه الظاهرة لا يكونبالعزوف عن التنظيم نهائيا وانما بشكل اخر من التنظيم .

وعندما نقول « ليست مهمتنا اعلان الاضراب » او « لا ننوي تشكيل نقابة جديدة » فاننا لا نسجل رفضا مبدئيا وحسب ، وانما نرفض اكثر من ذلك ، نرفض ان تستمر علاقة السلبية كما نرفض ان يعتمدوا علينا لتقرير شيء ما.. كذلك بالنسبة لاقتراح انشاء حزب جديد .

واذا نحن عرفنا « البوتيري اوبارايو » على انها « طليعة خارجية » حينئذ لا تعود قضية تكوين الحزب سوى مسألة كمية : عندما يصبح التأثير المحليلجماعة ما كافيا وعندما يتشكلعدد كافمنالجماعات المتجانسة بحيث تغطي ارض الوطن ، عندئذ يصبح لدينا حزب .

واذا كنا حتى الان نرفض هذا الاقتراح فمن الضروري ان نفسر ذلك .

ان نمو العلاقات معقسم كبير منالجماعاتالبروليتارية ، ونمو الحركة الطلابية ، تسمح هذه المرة بتجاوز دور « الطليعة الخارجية » التي وان كان لا يمكن تجنبها آنيا ، لم تعد بحاجة لان تعتبر ضرورة مستمرة .

والواقع ان اهمية الحركة الطلابية ، هي في كونها الحركة الجماهيرية

الاولى ذات البعد الثوري دون ان تكون خاضعة لرقابة المنظمات التقليدية ·

ماذا نعني بالحركة الجماهيرية ؟ اننا بالطبع لا نعني « حزبا جماهيريا » على طريقة توغلياتي او « منظمات جماهيرية » من النوع النقابي · والجماهير لا تعني هذا الاتساع العددي (رغم اهميته) ولكن الجانب الكيفي للحركة ، هو كونها قادرة على تحريك طبقة اجتماعية (الطلاب في هذه الحالة) مميزة بموقعها في علاقات الانتاج ، على اساس الظروف الخاصة بهذه الطبقة ·

لقد اعطت الحركة الطلابية مثالا على الرفض الذي ينطلق من وضع خاص لطبقة اجتماعية تحولت الى كادحة (لابعادها عن السلطة واستغلالها لصالح الرأسمالية) ليصل الى اعادة النظر ببنية السلطة الاجتماعية ككل ويأخذ موقعه فوق ارض الكفاح الثوري ·

ولا شك ان الطليعة موجودة في الحركة الطلابية ، لكنها ذات منطق خاص وهي طليعة غير مرسومة بل تنبع من داخل الحركة · وعلى هذه الطليعة ان تواجه امرين :

– الا تصبح غريبة عن حركة الجماهير بل تظل حافزا لنموها ·

– ان تتحد مع قوى اجتماعية ثورية اخرى ، ولا سيما العمال حتى لا تصاب بالعجز والهزيمة ·

كل هذا لا يمكن ان يتحقق لا « عفويا » ولا عن طريق الانضمام الى اي « طليعة خارجية » ، وهو يفرض على طليعة الحركة التي هي طليعة داخلية وطليعة جماهيرية ، مهام دقيقة في الادارة السياسية والتنظيم · واذا كانت الحركة الطلابية لا تستطيع حسم المشكلات التي تطرح امام القادة السياسيين الثوريين ، فانها على الطبيعة تستطيع التأكد من صحة الخط الثوري ·

لهذا ليست الادارة السياسية للحركة الطلابية هي « الحزب » وليست هي الادارة الثورية العامة ، فمهمتها ان تكون على اتصال بكفاح الجماهير وتنظيمها لا ان تتولى التخطيط الثوري ·

ان الكفاح العمالي والفلاحي ينمو الان بصورة جماعية ، لكنه لا يزال اسير الانقسام والرقابة القمعية التي تفرضها الاحزاب والنقابات المناوئة للثورة ·

حيال هذا الوضع لا تكون مهمة الثوريين تقديم نقطة ارتكاز ادارية ، او حزب جديد ، وانما العمل على خدمة التنظيم المستقل للجماهير ·

وتكوين الحزب لا بد ان يمر بهذه المرحلة ··· وقد اعطتنا فرنسا فكرة عما تستطيع الجماهير ان تفعل عندما تتحرر من وصاية « ممثليها » ·

ماذا يعني هذا بالنسبة للتنظيم ؟

في المرتبة الاولى رفض الاشكال التنظيمية التي تهدف مرة واحدة الى الادارة السياسية العامة التي لا تكون المركزية فيها نتيجة النضج السياسي وانما نتيجة اختيار الجهاز ٠

واذا كان تعبير « المكتب السياسي » يمكن ان يدل بذاته على الوقائع السياسية المتباينة ، فهو يدل في هذا الاطار على مفهوم لا يمكن ان تقبله الادارة السياسية من فوق ٠

ان مهمتنا الاساسية هى تحريك فرص وادوات الاعلام والعمل من أجل التحليلات العامة وتوحيد العمل ، وتوفير المرونة والاستقلالية القصوى في اختيار منظمات اكثر استقلالا ٠

واذاكنا نرى ان هدفنا هو تنمية الكفاح الجماهيري والاستقطاب السياسي فاننا يجب ان نعترف ان ذلك لا يتم الا بالعمل على تشجيع تعدد واستقلال التجارب وليس بعرقلتها ، والعمل على تشجيع المناقشات والقرارات العامة بشأن معاني هذه التجارب ٠

فلا يجوز ان تكون المركزية غطاء يفرض من الخارج على كفاح الجماهير وانما نتيجة التنسيق والتعاون النظري والتطبيقي ، حتى يمكن تجنب التصنع الذي يسود العلاقات المباشرة مع الجماعات والاقسام والرفاق المعزولين :

تبقى مسألتان مهمتان يجب علينا مواجهتهما :

اولا ــ مسألة القمع ٠ اذا لم يكن لدينا منظمة مركزية فكيف نرد على القمع الذي لا مفر منه ؟

من السهل القول انه كلما كانت المنظمة مركزية تعرضت اكثر للقمع ، والمنظمة اللامركزية (بمعنى ان المسؤولية موزعة على المناضلين) هي الضمانة الاكثر امانا في وجه كل انواع التشتت ٠

لكن المسألة المركزية التنظيمية تأخذ طابعا اخر اذا كان الامر يتعلق بان نعرف كيف نواجه العدو من خلال اي احتمال ، بما في ذلك احتمال الكفاح غير الشرعي والكفاح المسلح ٠

واخيرا ، الحجة الاخيرة لصالح المواقع المركزية : « اذا كان الاتفاق واردا حول اتجاه الخط الجماهيري ، تبقى مشكلة تسلم السلطة اي مشكلة المواجهة المباشرة مع جهاز الدولة البورجوازية والاطاحة به والحلول محله » ٠ ومن المفيد التركيز على هذا الجانب في مواجهة مواقع معادية للتسلط ، تميل مهما كانت قيمتها الى تناسي المشكلة النوعية للكفاح من أجل السلطة ، ومشكلة الجهاز الامبريالي القمعي ٠ كما يجب الا ننسى عملية كفاح الجماهير السياسي التي لا يمكن بدونها ان تنمو مركزية فعالة ٠ وما قيل عن فرنسا يصلح هنا مثلا ٠

المسألة الثانية هى التاكيد الذي يرد من وقت لاخر في المناقشات والذي يقول ان المقياس الوحيد في المنظمة هو القيام بوظيفتها fonctionalité وهذا التاكيد هو اخطر ما يمكن تصوره ، لان القيام بالوظيفة لا يعني

شيئا (ويعني كل شيء) ما دمنا لم نحدد بالنسبة لماذا •

في المدى البعيد ، المدى الذي تم تجاوزه اكثر من مرة ، تصبح المنظمة عاملة fonctionnelle بالنسبة لذاتها •

بالنسبة لنا يجب ان تكون المنظمة عاملة بالنسبة للنضج السياسي عند المناضلين وبالنسبة لزيادة وعي الجماهير وتأكيد فكرة السلطة التي نقاتل من أجلها •

كمثال على ذلك يمكن ان يكون لدينا مفهومان للجان الاساس : كتجربة لانضاج الديمقراطية البروليتارية ، او كوسائل لتعبئة اكثر فعالية في خدمة الادارة السياسية الخارجية •

ان القضية الرئيسية هى « النمو داخل الجماهير » أي النمو في الاشتراكية •• والقضية الرئيسية ان نفهم اننا لا نتسلم السلطة « لحساب» البروليتاريا أو الانسانية ، ولكن البروليتاريا هي التي يجب ان تتسلم السلطة •

والانسان الجديد لا يولد عندما يهيء النصر على البنية الرأسمالية الظروف وانما يولد في الكفاح ضد الرأسمالية اليوم •

ان مهمتنا اليوم هي ان نبني داخل كفاح الجماهير الادارة الثورية المنظمة ، لا أن نتعرف الى ادارة سياسية موجودة ولا ان نبني حزب الاطارات كمؤسسة للمناضلين المحترفين الذين تكونوا ايديولوجيا على اساس برنامج ، وتنظيم داخلي •

أدريانو سوفري

رومانو لوبرينو

الرد على سوفري :

الوعي ، الطليعة ، الجماهير

النقطتان الرئيسيتان في مقالة أدريانو سوفري هما :

١ ـ ان الوعي السياسي ليس غريبا عن الجماهير بل هو في داخلها بحيث تفقد الصورة اللينينية قيمتها •

٢ ـ ان المثقفين لا ينتمون الى الطبقة المسيطرة ، وليس ممكنا بالتالي القول مع لينين انهم يخونون طبقتهم بمرورهم الى طبقة البروليتاريا وكسب هذه الطبقة الى جانب الايديولوجية الثورية •

في النقطة الاولى يستشهد سوفري باحداث ايار الفرنسية ، وفي الثانية

ياخذ الحركة الطلابية مثلا ٠

حول المسألة الاولى : ان كفاح الجماهير الحالي يؤكد ان الوعي السياسي نابع من داخل الجماهير وان هذه قد تجاوزت بصورة عفوية ما يسمى بالنقابية الحيادية ٠

ان هذا التأكيد لا يمكن ان يعتبر في رأيي حقيقة قائمة ولا يمكن قبوله الا اذا اقتصرنا على الطبقة العاملة والمثقفين الذين اصبحوا من البروليتاريا (الطلاب) ، بدلا من الحديث عن الجماهير بشكل عام ، واذا اكتفينا بمواجهة المراحل الكبرى للتاريخ الحديث في البلدان الرأسمالية (ايار الفرنسي والنضالات الطلابية ٠٠٠)

مع هذه التحفظات وفي بعض الحالات يمكننا ان نقبل الفكرة القائلة بان الصراع الطبقي يتجاوز النقابية (trade unionisme) ٠ ولكن لماذا يتجاوزها ؟ هذا التساؤل اساسي لان الاجابة عليه هي التي تحفظ او تصفي المفهوم اللينيني للطليعة ٠

والاجابة في رأيي يجب ان تأخذ بعين الاعتبار جانبين مهمين : الجانب الموضوعي (الاقتصادي) والجانب الذاتي ٠

في الجانب الموضوعي ، ان رأس المال لا يتمتع في الوقت الحاضر بمجالات كافية للتنازلات حتى يمكن للعمال ان يكتفوا بالمطالب النقابية ، فالحروب الامبريالية وتمرد العالم الثالث ومتطلبات التطوير الرأسمالي في اوروبا تقضي على امكانية تحقيق المكاسب باجبار الرأسمالية على تنازلات جديدة بواسطة الكفاح النقابي ، وبمعنى اخر فان اي مواجهة بين العمال وارباب العمل هي مواجهة سياسية حول السلطة ، وتسلم هذه السلطة ٠

لكن هذا التحليل الذي يعطي اساسا موضوعيا لنظرية سوفري ، لا يعتبر صحيحا الا على المدى البعيد ، ولا يجب ان ننسى ان نظرية سوفري تفترض تكثيفا للنضالات المعادية للامبريالية التي لا يمكن ان نزعم انها لا تتباطأ او تقف احيانا في محطات استراحة ٠

والمثل الفرنسي الذي استشهد به يبين ان مجالات العمل النقابي ما تزال قائمة وان الكفاح النقابي عندما يحقق انتصارات فانه لا يشل في الوقت نفسه قوة رأس المال ٠

لذلك لا يجوز ان نحكم على الرأسمالية العالمية من خلال التجربة المحلية في توسكانا حيث لا تملك المنظمة الرأسمالية مرونة كافية لتقديم تنازلات كبيرة في الاجور ٠

ان تجاوز النقابية في النضالات المتقدمة كتلك التي عرفتها فرنسا ، لا يمكن تفسيره باسباب اقتصادية موضوعية تجعل تسييس النضالات امرا لا مفر منه٠

ولكن على افتراض ان هذا التحليل صحيح وان الكفاح العمالي لا يمكن الا ان يكون سياسيا ، فهل يمكننا نتيجة ذلك ان ندحض المفهوم اللينيني للطليعة ؟

الواقع ان الضرورة الموضوعية لتجاوز النقابية ، حسب هذا التحليل، تؤدي الى تفتح الوعي السياسي التلقائي . ولكن الى اي حد يستطيع هذا الوعي بناء تكتيك او استراتيجية ؟

يقال بحق ان هذا الكفاح السياسي التلقائي (في فرنسا مثلا) كان كفاحا من اجل السلطة لا من اجل تسلم السلطة ، فكيف يتم العبور من المرحلة الاولى الى الثانية ؟

ان الاسباب الموضوعية لا تكفي لذلك ...

واذا ما واصلنا السير حتى النهاية مع منطق الذين يقولون بان النضج السياسي للجماهير يهيء للطليعة الداخلية فرصة تكوين ادارة ثورية ، فاننا لا نخاطر وحسب بتصفية لينين في « ما العمل » وانما بتصفيته كذلك في « الدولة والثورة » .

واذا لم يكن الجهاز الرأسمالي القمعي سوى نوع من الغطاء الخارجي عاجز عن منع انبثاق اجهزة السلطة اللامركزية في القاعدة التي ، فيما تمد جذورها في كل الطبقات الاجتماعية والمؤسسات ، تصبح قادرة على التوجيه السياسي لكل حركات الجماهير ، فان المواجهة مع الجهاز القمعي لم يبق لها ما يبرر وجودها لان المجتمع الرأسمالي نفسه هو الذي يهيء الولادة في داخله وعلى كل المستويات لسلطة مزدوجة تعيق ببطء تقدم النظام .

ان ما يغيب عن ذهننا هنا هو صراع الطبقات الى درجة اننا نتوقع قدوم سلطة دون الم ، (اما تعبير الاستيلاء على السلطة فيفقد كل معنى) . والنظام الرأسمالي لن يكون سوى ذلك الغطاء الذي يرتفع شيئا فشيئا تحت تأثير الغليان فوق نار هادئة للوعاء الثوري ، والمجتمع الاشتراكي يصبح ناضجا في الشرنقة الرأسمالية وتكفي بضع ازمات سياسية صغيرة حتى تنشق الشرنقة وينتهي الامر ...

والواقع ان تجاوز النقابية المحايدة في بعض النضالات العمالية يجب ان يفهم ايضا انطلاقا من عامل ذاتي لا يمكن اهماله .

ويقال : لم يعد المثقفون هم الذين يحملون من الخارج « الوعي » للعمال، فالوعي هو في داخل الجماهير والصورة اللينينية قد فقدت قيمتها .

ولكن ما الذي تغير منذ عهد لينين ؟

قبل كل شيء ، ارى ان الوضع العالمي هو الذي تغير من وجهة النظر الثورية .

ففي عهد لينين كان الثوري الذي يخون طبقته يعتبر الفرصة الوحيدة لتجاوز السياسة النقابية وللمرور من الصعيد الاقتصادي الى الصعيد السياسي كان الكفاح بحاجة الى الوسيط (الادارة) اي الى المثقف ٠

وبمعنى اخر كان المثقف هو الوحيد القادر على ان يمثل ويحمل خطا سياسيا ثوريا ٠

اما الان فالوضع يختلف ، فهناك مناطق محررة ، ثورات اشتراكية سائرة ، وطليعة خارجية على الصعيد العالمي يمثلها الفيتناميون والكوبيون والصينيون ٠ والناطق باسم الطبقة الكادحة لم يعد المثقف ، خائن طبقته ، الذي يتحدث امام المصانع ، وانما العمل والدعاية الكوبية والصينية والراديو والتلفزيون والحديث عن هزائم ارباب العمل في انحاء مختلفة من العالم حتى ولو كان الحديث مبالغا فيه ٠٠٠

هذه الطليعة الخارجية ، على المستوى العالمي ، لا يمكن انكار اهميتها في تهيئة النضج السياسي للطبقات المستغلة ، وليس من الصدفة ان ينفجر الوضع في فرنسا ويتحرك الطلاب في اوروبا خلال سنوات الحرب الفيتنامية والثورة الثقافية الصينية ٠

كذلك لا يمكن ان ننكر اهمية الطلائع الخارجية المحلية ـ مهما كان اثرها محدودا ـ التي قامت تحت ضغط الكفاح العادي للامبريالية على المستوى العالمي وتناقضات النظام نفسها ، وهي الطلائع التي ابعدتها فرنسا وكان لها تأثير كبير على النشاطات الطلابية الايطالية (رفض الحركات الاصلاحية والبرلمانية ورفض التعايش السلمي والطريق الايطالية للاشتراكية) ٠

اعود الان الى الفكرة التي طرحها سوفري والتي تقول ان المثقفين لم يعودوا من الطبقة المسيطرة ، اي لا يمكن اعتبارهم خائنين لطبقتهم او طليعة خارجية ، وانما هم جزء من البروليتاريا ، وجودهم ضروري للثورة كما بين ذلك الانفجار الطلابي ٠

كل ذلك صحيح جدا رغم حاجته الى التوضيح والتعميق ٠ فالمثقف لم يصبح هذا « المثقف العضوي » الذي تحدث عنهغرامشي ، ولكن مثقفالانتاج والنظام الرأسماليين ٠

لقد فقد المثقف هذا الاستقلال الايديولوجي الذي اتاحه له النظام خلال القرن الماضي واندمج في نظام الانتاج بما فيه من استغلال ، مما جره الى مواقع البروليتاريا بعد ان فقد استقلاله الايديولوجي ٠

وقد يحدث احيانا ، لا سيما في بلاد متخلفة كبلادنا ان تتكون ارستقراطية « عمالية » بين المثقفين ، ولكن في البلدان التي تشهد اندماجا متقدما كالولايات المتحدة ، فان المثقف في الطليعة ضد نظامه ، ولذلك يقول **بوغز** ان الفنيين

والطلبة هم الطبقتان الوحيدتان اللتان يمكن ان تكونا الحليف الطبيعي للبروليتاريا السوداء في الولايات المتحدة ٠

لكن رأي بوغز (وهو يتوافق في هذه النقطة مع ما يقوله ماركوز ولا يمكن قبوله بشكل جزئي الا اذا اقتصرنا على الولايات المتحدة) برفضه التعريف اللينيني للمثقفين هل يرفض ايضا المفهوم اللينيني للطليعة ؟

في رأيي انه لا يفعل ذلك لان المفهوم اللينيني للطليعة لا يمكن رفضه على اساس الاعتبارات الاجتماعية التي تتعلق بانتماء الطبقة للطليعة ٠

بالاضافة لهذا وكما قلت سابقا فان الطليعة الخارجية على المستوى العالمي (الفيتناميون) وعلى المستوى المحلي (السلطة السوداء) هي التي جعلت المثقفين الاميركيين ينتقلون من الاستنكار « الليبرالي » والفردي الى موقع الكفاح المفتوح ضد النظام ٠

باختصار ، ان صورة المثقف الخارجي الذي يحمل الخط السياسي الصحيح قد اختفت ، وتم استبدالها بضغط الثورة التي تتقدم ، وبخط سياسي للكفاح المعادي للرأسمالية والامبريالية يجد مرتكزاته في المناطق التي تحررت وفي مناضليه الذين يشكلون عناصر الطلائع الاولى المحلية ٠

ومن ناحية ثانية فان نضج الجماهير السياسي ، يطرح بحدة اكثر لا مسألة السلطة وحدها وانما الاستيلاء على السلطة كذلك ، اي انه يطرح مهمة الطليعة التي لا تتكون من مثقفين خانوا طبقتهم وانما من مناضلين وصلوا الى مستوى الوعي الثوري وطرحوا نفسهم طليعة بالنسبة للاخرين ٠

والمهم ليس الانتماء الاجتماعي لاعضاء الطليعة وانما علاقة هذه الطليعة مع الجماهير ٠

والان يجب ان نوضح ماذا نعني بالطليعة الخارجية وماذا تعني ضرورة الابقاء عليها ٠

ان الطليعة الخارجية تبدو ضرورية بالنسبة للممارسة الاجتماعية الصحيحة ، وحتى عندما نتغاضى عن مشكلة الحزب فهي ضرورية لكل جماعة تريد العمل السياسي في المصانع او بين الطلبة او عند الفلاحين ٠

وليس صدفة ان يعترف سوفري بان ـ « بوتيري اوبرايو » كانت في الواقع طليعة خارجية رغم انها ترفض ذلك من حيث المبدأ ، فهي من حيث تكوينها كمجموعة من المناضلين (الطلبة والعمال ٠٠ ثم الفلاحين) تشارك في مختلف نشاطات الجماهير ، وتوحد بينها طريقة عمل متجانسة ، ليست طليعة من داخل الحركة الطلابية او من داخل الحركة العمالية ، بل نتيجة سياسية للتجربة العمالية والطلابية والفلاحية لا يمكن ان نخلط بينها وبين جميع الطلائع الداخلية المختلفة ٠ انها او يجب ان تكون تعبيرا عن الجدلية بين

الجماعة وحركات الجماهير ، وبين الجماعة والطلائع الداخلية في حركات الجماهير ، الحركات نفسها التي تضم ايضا مناضلي الجماعة ·

ولنأخذ مثلا على ذلك · ففي السنة الماضية وبمبادرة من الـ « بوتيري اوبرايو » اعلن الطلاب الثانويون اضرابات فشل معظمها ، فقد كانت الطليعة الداخلية لحركة الطلاب الثانويين (وهي تضم مناصرين بين الطلاب ومناضلين بين المدرسين لجماعة البوتيري اوبرايو) ضد الاضرابات التي فرضت من الخارج بواسطة البوتيري اوبرايو ، كجماعة (وليس كمجموعة من الاساتذة والطلبة لهم علاقات بالطلبة) ·

وبعد فشل الاضرابات لم يقم اي اتصال حقيقي مع جماهير الطلاب · هذا المثل يبين بوضوح الطريقة الخاطئة لاقامة علاقة بين الطليعة والجمهور·

ان الطليعة ، كما يؤكد ماو ، تصبح بيروقراطية ، ليس نتيجة دورها القائد بل لانها تمارسه بطريقة غير صحيحة فتنقطع عن الجماهير بتصلبها ·

يقول ماو تسي تونغ : « ان نشاط الجماعة التي تتولى القيادة ، اذا لم يجد وسيلة يرتبط فيها بعمل الجماهير ، يكون مجهودا ضائعا لحفنة من الاشخاص · وبالعكس فان نشاط الجماهير في غياب الجماعة القائدة المتجانسة التي تحسن التنظيم ، لا يمكن ان يصمد طويلا او ينمو في الاتجاه الصحيح او يتقدم » ·

ان عمل الادارة العامة الخارجية يجب ان يقوم على علاقة الطليعة بالجماهير بواسطة طليعة داخلية ، تشمل بدورها عناصر قائدة متغلغلة في الحركات الجماهيرية ·

ويضيف ماو : « ان اي قائد لا يستطيع ان يتولى الادارة العامة لكل الوحدات التابعة له ما لم يتسلح بتجربة حسية للعمل في الوحدات الصغيرة بين اشخاص معينين حول مشكلات معينة » ·

اذا : « الانطلاق من الجماهير للعودة الى الجماهير » اي الانطلاق من مطالب الجماهير المستغلة وترجمتها الى تكتيك واستراتيجية بالممارسة الاجتماعية والعلاقات مع الجماهير ···

ولما كان لا خطر اطلاقا من ان تصبح العلاقة بيننا (الطليعة) وبين الجماهير « علاقة تسلطية » فان مشكلة الحزب هي قبل كل شيء مسألة صيغة العمل وتعميم هذه الصيغة · وكلما تطورت هذه الصيغة وامتدت جذورها في النمو ، وازداد نضوج الجماهير ببروز وتكاثر الطلائع الداخلية ، تقدمنا في طريق بناء الحزب ·

ولكن اذا كان بناء الحزب لا معنى له دون الاحتكاك مع الجماهير ودون صيغة العمل المادية ، فان الحزب من الناحية الثانية لا يمكن ان يولد تلقائيا

من الجماهير بل لا بد من تلاحم الطلائع الخارجية ذات اساليب العمل الصحيحة ، مع الطلائع الداخلية للجماهير . وليس هناك اذا ولادة تلقائية حتمية وانما نتيجة قرار ذاتي ذي وجه سياسي يفترض اختيار وقت وتقدير الظروف الموضوعية والذاتية .

ان رؤيتنا لولادة الحزب على انها « توحيد » لمختلف الطلائع الداخلية .. هي التي تعطي فكرة التلقائية في ولادة الحزب .

كيف يمكن ان تتوحد هذه الطلائع الداخلية ؟ هل يتم ذلك بطريقة الاتحاد (الفدرالية) ؟

في الواقع لا نرى كيف يمكن لهذه الطلائع ، المرتبطة باوضاع متباينة وبمستويات مختلفة من الوعي ، وبحركات مختلفة (عمال وطلبة وفلاحون ومستخدمون وحتى مظليون ...) ان تتجاوز وجهات نظرها الضيقة وتجربتها العملية ، دون نقطة ارتكاز او محرك خارجي .

نحن نلاحظ حاليا انه حتى في الحركة الطلابية ، وهي الحركة المتجانسة، توجد طلائع داخلية متباينة عاجزة عن تحقيق التجانس في العمل نتيجة اوضاعها المحلية وانطلاقاتها النظرية وطرق ممارستها ، هذا بالاضافة الى النزاعات الداخلية في قلب كل طليعة على حدة .

فاذا كان هذا هو الوضع داخل حركة جماهيرية اكثر تجانسا (في السن والمصالح ودرجة الوعي) من بقية الحركات ، فان فكرة التوحيد التلقائي للطلائع الداخلية التابعة لحركات اخرى تبدو ابعد ما يمكن عن الطلاب ، اذ لا نرى كيف تستطيع هذه التغلب على انقساماتها وكيف تستطيع اقناع نفسها بتبني التكتيك والاستراتيجية نفسيهما .

وهذا التناقض ينعكس على التارجح الذي بدا واضحا عند سوفري عندما يتحدث عن التوفيق بين موقعين متناقضين : التلقائية ورفض الوصاية من جهة وضرورة الادارة السياسية من جهة ثانية .

والطريق الوحيدة لكسر هذا التناقض هي الطريق التي اوضحها ماو بواسطة الثورة الثقافية، وهي تقوم على العلاقة الجدلية بين المركزية واستقلالية القاعدة ، العلاقة التي لا تهمل دور القاعدة التي تتولى زمام الامور في الظروف الخاصة ، وان كانت توكل للحزب مهمة الادارة والتنسيق .

واخيرا ففي مجال التنظيم المباشر فان سوفري يرى : — رفض كل اشكال المكتب السياسي وكل مركزية داخل البوتيري اوبرايو وكل صلة تنظيمية بجماعات اخرى حتى ولو كانت مشابهة .

وهذا الرأي الذي يريد لجماعة البوتيري اوبرايو البقاء على وضعها الحالي يبدو عاجزا عن حملها على تجاوز المصاعب التي تعانيها والتي عبر عنها بعض الرفاق (المشاركة غير الكافية للمناضلين في القرارات الجماعية) كما تعجز الجماعة عن تحسين وتنمية نشاطاتها .

رومانو لوبيرينو

قضايا ثقافية

صادق ناز كاظم

تفسير احوال عدم القدرة على الكتابة
بعرض عينة بينة

استيقظت من الحلم اشعر بالخيبة لانني لم انجح في تسديد الرصاصة الى شاشة التلفزيون · ثلاثة ايام احلم الحلم نفسه : أمسك بالمسدس وأصوبه تجاه التلفزيون وأضغط على الزناد ولا تنطلق الطلقة فاقول لم يحن اجله بعد ·

ــ لمـــاذا التلفزيون بالذات ؟
ــ التلفزيون مـــرآتنـــا ·

فسر لي مدير شئون العاملين بالمؤسسة وكنت في مكتبه بغرض ان اسأله :
ــ ما هي شروط الاجازة بمرتب ودون مرتب ؟

قال : ثلاثة اشهر اجازةمرضية بمرتبعن مدة ثلاث سنين وبعد ذلك حسومات·· وهناك اجازة دون مرتب لمدة شهور او عام ·

قلت : اذن ابدأ باجازة مرضية لمدة ثلاثة اشهر بمرتب لاني اعيل نفسي ·
قال : ما هو مرضك ؟
قلـــت : الاكتئـــاب ·
قال : هـــذا ليس مرضـــا ·
قلت : مـــا هو المرض ؟
قال : انزلاق غضروفي مثـــلا ·
قلت : تماما هذا هو مرض الاكتئاب : شكل خفي من اشكال الانزلاق الغضروفي ويستتبع ان ارقد في السرير ثلاثة اشهر انظر الى السقف ·

قال : تنظرين الى السقف ، تدوخين ·

قلت : اغمض عيني : لا بد لي من ثلاثة اشهر اجازة صمت كاملة ، ارجوك .
قال : لوائح المؤسسة لا تعترف بالاكتئاب مرضا ، والا نستحق جميعا اجازات غير محددة الاجـــل .

قلت : منذ اسبوعين لم اف بالتزام الكتابة للمجلة . جلست اياما كاملة الى المكتب ولم اكتب شيئا : عاجزة .
قال : ربما ليس هنــاك شيء .
قلت : هناك الـــف شيء .
قال : هذا هو السبب اذن .

قلت : هل تشاهد التلفزيون وتستمع الى الراديو وتتابع الاعمال الفنية ؟ هناك مثلا برنامج بالاذاعة اسمه « رجل وامرأة » . سمعته مصادفة . هذا البرنامج وحده يستحق مني الف مقالة شتم واكون مقصرة في اداء واجبي الاخلاقي والفني تجاه الامة . لكنني اخذته في جنبي وصمت وما زال مستمرا . هل سمعته ؟

قال : لا اقرأ حتى المجلات التي تكتبونها .
قلت : حتى عندما اكتب ؟
قــال : تصــوري .
قلت : لماذا لا تأخذ اجازة مرضية ؟
قال : هذا تماما ما افعله : انا في اجازة مرضـــية من الصحافة والاذاعة والتلـــفزيون .

قلت : لكن عملي ان اكتب لاصلاح شأن الامـــور الفنية التي اوصلتك الى هذا الاعتكـــاف .

منفجرا : اية امور فنية ؟ انت لا تكتبين لانك عاجزة عن استيعاب هذه الاعمال التي لا بد ان تشاهديها في المسرح وغيره .

قلت : تماما . تماما . هو المرض اذن : ضعف في قوة الاستيعـــاب للامـــور المعروضـــة .

قال : هذا ليس مرضا : هذه هي الصحة الكـــاملة . انت تشكين من عنفوان الصـــــحة .

قلت : لا بد ان تعدل لوائح المؤسسة وتعطى اجـــازة مرضية للقادرين على الكتـــابة .

*

ذات يوم قال عني « **كمال افندي الملاخ** » انني « **ناقمة** » ولست « **ناقدة** » . وقتها قلت : اننا حين ننظر الى احوالنا الفنية نجدها بالفعل لا تستوجب « النقـــد » بقدر ما تستوجب « **النقمة** » . وقلت ان « **النقمة** » اصعب من « **النقد** » واغلى تكلفة . ورغم ان كلمة « الافندي » لم تكن لتحيق ، الا انني شعرت انها تحرجني بتقدير كبير اعلم انني لا استوفيه لانني لست « **ناقمة** » كما يجب .

*

« **النقمة** » هي المرحلة الاولى التي تسبق « **التمرد** » . « **والتمرد** » هو المرحلة

التي تتولد منها « الثورة » ٠

استاذي الامريكي كان يقول لي :

ـ فلسفتنا هي «الايفولوشن» ـ الارتقاء ـ وليست «الريفولوشن» ـ الثورة٠

وكنت اقول له انه من الطبيعي ان نختلف لاننا في جانب ، وانتم في جانب ٠

عندما تسيطر فلسفة « الايفولوشن » يكون « البرود » و « النقد » و « اساتذة الجامعة » ـ واذيالهم ممن لا يملكون علمهم لكن يملكون جمودهم مع مركب نقص يدفعهم الى افتعال وقار منهجي قاحل ـ و « الغليون » و « التنويعات حول الالحان القديمة » ٠

« الثورة » قبلها « التوتر » و « النقمة » و « شباب ثورة مايو » وميلاد « جنين المخاض الاخضر » ٠

استاذي الامريكي قال لي كلمته عام ١٩٦١ وثبت انه لم يكن يتكلم عن « فلسفة » بل كان يتحدث عن مخطط جهاز هو عميل له لقمع الاضطرام الحقيقي الذي كان وما زال يعتمل في جوف المجتمع الامريكي ويفور به العالم ٠

تاريخ « النقمة » في الفن عريق وله ابطاله وشهداؤه ٠ يندفع الى ذهني فورا اسم بطلين شهيدين : «الفريد جاري الباتافيزيكي» والشاعر «شارل بودلير» كلاهما فرنسي ـ مما يضمن لي الرضى الفوري عنهما ـ وهما متقاربان في المرحلة الزمنية ٠ « جاري » ولد بعد وفاة « بودلير » بست سنوات وكان ذلك منذ مئة عام ٠

قبل وفاته ربما بعام ، حين كتب « بودلير » مسودة مقدمة الطبعة الاخيرة من ديوانه « زهور الشر » ، كتبها بثلاث صيغ فشــلت جميعها في ان تعبر عن مدى حدة نقمته فاهملها ولم ينشرها حتى قدمها الدارسون بعد وفاته كجـزء من سجل حيـاته ٠

في المحاولة الاولى بدأ « بودلير » مشروع مقدمته بهذه الفقرة :« فرنسا تمـر الآن في مرحلة من السوقية ٠ باريس : مركز للغباء العالمي المشع » ٠ ووقف عند هذه الفقرة : « ولقد ضمنت كتابي كمية معينة من القذارة من اجل ارضاء السادة رجال الصحافة ، لكنهم اثبتوا نكرانهم للجميل ٠ »

*

هناك مسرحيتان معروضتان في السوق :

١ ـ شمشون ودليلة : بمسرح الحكيم تاليف معين بسيسو واخراج نبيل الالفي ٠

٢ ـ الملوك يدخلون القرية بالمسرح الكوميدي تاليف علي سالم واخراج سعد اردش ٠

حين جلست اكتب عن الاولى كنت امتلىء بالحنق حتى المرض فتوقفت ٠

حين بدأت افكر في الكتابة عن الثانية لم اجد منطقا فتوقفت ٠

التوقف لكاتب جلس لكي يكتب يرادفه ألم أم جلست لكي ترضع طفلها فانحبس لبنها بسبب الـغم ·

التوقف عن الكتابة ليس معناه توقفا عن التفكير · يظل الدماغ يدور حول « الغم » وفيه · واذا هرب الى النوم يتجسد له في الاحلام ما يهرب منه — (تأكيدا لهذا الكلام ما حدث بعد استماعي الى مذبحة شمس البـاوردي * التي أجرتها على قصيدة عن المقاومة لمحمود درويش حين وقفت تولول بها في حفل أضواء المدينة المخصص دخله للمقاومة الفلسطينية · حين اغلقت الترانزستور ، الذي كنت أتسـاعد بـه على التركيز في الصمت ، وحين دخلت في النوم محملة بهذه الجرائم الاذاعية جاءتني شمس البارودي في منامي برأس كبير وجسم ضخم وملامح مفزعة وانا أقول لها : ما هذا الذي فعلته بنفسك وبنا وهي تصوب نحوي نظرة ميتة فاستطرد : ليس الذنب ذنبك على أية حال)·

يظل الدماغ يعمل ويفرز كلماته و « نقمته » · وحين تمسك بالقلـم تبدأ اشارات المرور : هل يمكن أن تقول هذا وذاك وبهذه اللغة ؟ وحين تبـدأ في التحـوير وتعديل الصياغة يتمرد الدماغ عليك ولا يعطيك شيئا :

اذا اردت أن تصنع وتصطنع ، فلتلجأ الى الحرفة وتفتعل او تكذب كما تشـاء: أما الدماغ وأما القلب فهما عنك موصدان ·

والمدهش انك في اللحظة التي تنحرف لتعتمد على الحرفة وحدها تجدها تخـذلك وتخرج بها مهلهلة·

هذا تماما ما حدث في رأيي لمعين بسيسو وعلي سالم فتسبب في خيبة عمليهما اللذين طرحا في سوق المسرح المصري هذا الموسم ·

حين كتب معين بسيسو مسرحيته الشعرية الاولى « مأساة جيفـارا » كان حظـه سعيدا لان هذا العمل طبع في كتاب فقط ولم يقدم على المسرح · وجاءت مسرحيتهالشعرية «ثورة الزنج» بعدها عملا جميلا وقلت له وقتها أنها التنفيذ الانضج والاعمق لما كان يريد ان يصنعه في « مأساة جيفارا » وفشل · ورغم التشويه الذي احدثه اخراج نبيلالالفي لنص « ثورة الزنج » الممتاز ، فقد ظل عملا يحق لمعين أن يفخر به كبداية قوية علىخشبة المسرح ·

لكن الذي لم يعرفه معين أن « المسرح » فن لئيم وفاضح : مفقود من تغريه فيهبداية كان نجاحها سهلا · وبدون أن يبحث ليتعظ بعدد الرؤوس التي كسـرت وهي تحاول أن تتسلق سريعا أستار المسرح متخطية المشوار الوئيد الضروري — وقع معين في فخالضحك على ذاته أولا وعلينا ثانيا واستنسخ لنا — في غياب واضح لدماغه وقلبه — بعض ما تركه

---

* شمس البارودي نجمة مصرية اشتهرت بأدوار الاغراء وبالزواج من أمير سعودي وبأحاديثها الصحفية في مجلة الشبكة ·

عمله السابق « الحقيقي » من فتات الشعر والصور معتمدا على ثقته بحرفته في نجارة الشعر والقضية .

الذي لا شك فيه أن معين بسيسو تصور أنه لا بد ان يقدم كل عام عملا مسرحيا شعريا حتى لا يفوته ان يندرج في « ريبرتوار » كتابنا المسرحيين الحوليين . واصبح همه ان يلفق لنا بعجالة اي شيء كما يقول المثل العامي « كبب سقى كل يا مدهي » : المهم في نهاية الامر ان تعلن مؤسسة المسرح انه في خطة الموسم والنتيجة المؤسفة انمعين رأسه يتدحرج ويسقط الى جانب من سبقوه الى لعبة « عدم الاخلاص » .

الكلمات نفسها مع اختلافات طفيفة يمكن أن تعني على سالم .

وأعدو الى دماغي وما دار فيه حين امتنع عن التعاون معي في صياغة مناقشة العملين .

دما غي استسخف ان ادير نقاشا حول « ضحك على الذقون » واقدم الجدل والدليل . الامر لا يستحق سوى أن يؤخذ ويطوح به من النافذة واقول لمعين وعلي سالم كما قلت في الحلم لشمس البارودي :

« على اية حال الذنب ليس ذنبكما . »

*

وحين يدور الحديث حول امر ما يتحدث الجميع الا الأولى بالكلمة . يجلس دكتور علي الراعي ضيفا في برنامج تلفزيوني بين حمدي غيث وعبد المنعم مدبولي والمذيعة التلفزيونية سلوى حجازي . ويبدأ حمدي غيث بمحاولة لفتح «كلام» عن المسرح وليس فتح « موضوع » ويقول عما يسميه « ظاهرة المدبوليزم » وزحام الجمهور حولها ويتهم النقاد بالكسل لانهم لم « يدرسوا » هذه الظاهرة وعلاقة الجمهور بها . وتهز المذيعة التلفزيونية رأسها مؤمنة « اه صحيح النقاد كسلانين الحكاية مشتيمة وبسابدا ». والمذيعة سلوى معها حق انتتكلمهكذا وبكل هذه الثقة عن امور لا تعرفها ما دامت المؤسسة العامة للنشر قد اصدرت لها على نفقة الدولة ديوان شعر بالفرنسية — (رغم أن المؤسسة تدرك تماما أن الذين يمكن أن يقرؤوا شعرا لسلوى حجازي لا يعرفون الفرنسية وأن الذين يعرفون الفرنسية لا يمكن أن يقرؤوا شعرا لسلوى حجازي) وأن الذين يمكن أن يفيدوا ويستفيدوا فعلا من ميزانية الدولة الضائعة هذه يلهثون وينكفئون ويموتون قبل أن يحلم الواحد منهم بأن يجد تجربته في الشعر او القصة كتابا مطبوعا — وهكذا اصبحت سلوى واحدة من اعلام الفن والثقافة عندنا ، حسمت امر نقادنا بهزة من رأسها . اما الدكتور علي الراعي — الذي هو الاولى بالكلام — فهو اخر من يسمح له بالتدخل في الامر .

وعندما تشعر بالاختناق والغيظ تعرف أن ما يغيظك ليس الحادثة التلفزيونية هذه بالذات ، ولكن ما ترمز اليه من تيار جارف يغمرنا ويغطينا في اوجه عدة :

تبدأ الكذبة ، ثم تستخرج منها مغالطة ، ثم تصبح المغالطة قانونا يتحكم به من لا يعرف شيئا ·

يقول قائل مثلا إن مسرح دار « الأوبرا » مظلم وشاغر . ثم يتساءل لماذا لا نسمح لفرقة كذا الخاصة أن تستفيد وتملأ لناهذا الفراغ ؟ ثم يقرر بأننا **لا بد أن ندرس ظاهرة** خمول القطاع العام ونشاط القطاع الخاص ·

وحين تبدأ لتقول ان « الاوبرا » كانت في ذلك الوقت ــ الذي قيل فيه انها مظلمة ــ تستضيف وتقدم أرقى فرق الباليه العالمية وانها لم تهدأ منذ **بداية الموسم المسرحي** ، وان الفرق الخاصة ليست نشطة الا في اطلاق الدعايات الكاذبة حولهـا ، تجد نفسك مستدرجا دائخا للحديث عن اشياء واشخاص يستمدون وزنهم من مجرد ذكـرك لهم وترديدك لاسمائهم ولو بصورة الرفض · وتختار ان تتجاهل ، وان تسقط مـن حسابك ، وتصحو شاعرا بالخيبة لانك لم تنجح في تسديد الرصاصـة الى شاشـة التلفزيون · وتغزوك الكآبة لانك عاجز عن حماية ابناء امتك من تسرب الغـازات اللامرئية التي تتخللهم وتسمم مسامهم ورؤيتهم وتذوقهم حتى يصبحـوا هـم انفسهم المستشهد بهم ضدهم ·

وما الذي تستطيعه أنت يا أيها « الناقم » اذا لم تكن قادرا دائما على اطلاق العنان لنقمتك :

على اية حال ، الذنب ذنبك كله لانك : في عنفوان صحتك ·

صافي ناز كاظم
(القاهرة)

عبد الكبير الخطيبي، محمد برادة

حرب طبقية في قبيلة الكلمات :
حوار مع الخطيبي صاحب « الذاكرة الموشومة »

« خجول حين يحييك . عنيف حين ينفرد بنفسه » ، ذلك ما يقوله عبد الكبير الخطيبيعن شخصه فيسيرته الذاتية التي صدرتبالفرنسيةمنذ شهر بباريس تحتعنوان « الذاكرة الموشومة » . والقراء في المغرب او في فرنسا يعرفون الخطيبي الناقد او الباحث السوسيولوجي ، اكثر مما يعرفونه شاعرا يرتاد عالم الابداع برؤيا جديدة ، وبأشكال متميزة . قبل كتابه عن « الرواية المغربية » ، وبعض الدراسات التي نشرها عن الطبقات الاجتماعية في المغرب ، مثلت له مسرحية « موت الفنانين » بباريس سنة ١٩٦٤ ، وكتب مسرحية اخرى لم تنشر بعد : « النبي المقنع » . ولكنه الان يختار ان يواجه العالم انطلاقا من الداخل في عملية يتحاذى فيها الشعر والفكر من اجل تحقيق الانعتاق ، والتخلص من رواسب الاستعمار : « ولدت بين احضان ايقاع مدينتي ، محمولا على جناح ريح رخية ، مملحة تهب من المحيط . افتحوا قلب « الاطلسي » ، فسترون جذرا تعانق عليه غصن ونظرة . هذه النظرة تخاطب ميلادا جديدا للفضاء . والذكرى تحول ، عن طريق لعبة المواراة ، مدينة ماضينا الى حنين ابيض . والطرق تنطلق وتنتهي الى الملتقى نفسه ، والاحياء يصب بعضها في بعض كأنها متاهة معقدة من الاشكال والمساحات والالوان . صورتان اثنتان تنفصلان عن ذاكرتي الراحلة باستمرار ، صورتان خفيفتان ومتحركتان مثل هندسة الخطاف ، او مثل النداء المكتوم للشهوة : دخان « الكيف » ، والبحر يغني في اعماق بياض عيني : سـلام ! سلام ! سلام ! » (ص ٣٨) .

ورغم الكثافة الشعرية ، واللغة المجنحة ، والتلميحات المركزة لعوالم تبـدو شديدة الخصوصية ، فاننا نحس — او هذا على الاقل ما احسسته — ان الخطيبي لا يريد ان يصاحبنا في رحلة للبحث عن زمنه الضائع . انه ، على العكس ، ينسج الخيوط على مهل ساعيا الى المجابهة ، والمحاكمة ، وتحقيق الانعتاق الذاتي يؤكد هذه الحقيقة ،

التركيب العام لـ « الذاكرة الموشومة » : في الجزء الاول (حديث عن الطفولة والدراسة والمغامرات •••) وفي الجزء الثاني ، مناقشة للمعضلات الاساسية التي يواجهها من عاش في مجتمع مستعمر (الهوية ، التمييز •••) • وفي هذا القسم الاخير يمسرح الخطيبي الحركة لتصبح ذات ابعاد متصارعة ، تنغرس في الماضي البعيد باحثة عن الجذور ، ثم ترتد الى الحاضر متلمسة ارتكازا متوازنا • الموضوع اذن ، يتصل باشكالية الاصالة والانخراط في العصر • فما دخل « الشعر » في مجال يقتضي المفاهيم العقلانية ، والمناقشات الايديولوجية ؟

★ كيف تظن انك اسهمت في طرح المعضلات التي تواجهنا ؟ وهل استطعت ان تتجاوز المستوى المحدود لتجارب الرواية المغربية الاخرى ؟

— « الشيء المهم بالنسبة الي ، في هذه المحاولة ، هو مسالة الكتابة ككتابة • فقد لاحظت ان الادب عندنا اكتفى ، في معظم الاحيان ، باعادة نسج نماذج وانماط « تقليدية » ، اما عربية او غربية ، باستثناء نماذج قليلة • وما قصدت اليه ، هو ان اجعل الكتابة شيئا اساسيا دون التفرقة بين الشكل والمضمون ، اي ان اصير الكتابة مسعى يعبر عني ، ويترجم موقفي وعلائقي مع المجتمع والحضارة الحديثة » •

★ ولكن ، لماذا اخترت شكل السيرة الذاتية لطرق موضوع اساسي ومعقد مثل هـــــذا ؟

— « في البداية كان عندي مشروع اخر • حاولت سنة ١٩٦٤ ان احلل ذاتي من خلال مذكرات اسجل فيها المشكلات التي اعترضتني عند تكيفي من جديد مع الوسط المغربي بعد عودتي من اوروبا « مثقلا » بثقافتي ووعيي الجديدين ••• ولكنني تبينت ان ذلك وهم ، لانه يستحيل ، نفسانيا ، القيام بالتحليل الذاتي •• ومن ثم تحول المشروع لياخذ صيغة رواية • وفي هذه المرحلة ، واجهتني مشكلة الكتابة • انني مقتنع تماما بانه لا يمكن أن نكتب بكيفية « بريئة » ، او ان نغض ابصارنا عن التغيرات التي حدثت وتحدث حوالينا • لا يمكن اطلاقا ان نكتب روايات على طريقة القرن التاسع عشر ، بعدما كتبه جويس مثلا ، فكثير من الروائيين قد فجروا تلك الطرائق ، واثبتوا ضرورة البحث باستمرار عن اشكال جديدة • اذن ، الفكرة الاساسية التي انطلقت منها ، هي « اغتصاب » الكتابة واللغة والطرائق » •

هذا الاغتصاب يتجلى في اشياء عديدة ، وبالاخص في اللغة التي كتبت بها • فقد حاولت ان استعمل تراكيب مستمدة من ثقافتي العربية ، ومن ذاكرتي القرآنية ، ومن احساسي الخاص ، ومن كل ما يشكل تراثي القديم • كنت ، كما قلت في نهـاية الكتاب ، محاربا طبقيا وسط « قبيلة الكلمات » •

★ اعتقد ان هذا المفهوم للكتابة اصبح ، منذ بضع سنوات ، ظاهرة تنطبق على طلائع عديدة في العالم الثالث ، وفي اوربا نفسها •• فما هو وجه الالتقاء بينك وبين هــذه الحركات ؟

— « شخصيا ، احاول الالتقاء بهذه « الحركة العدوانية » في الادب ، عن طريق

التحاور مع ثقافات شعوب امريكا اللاتينية ، واسيا ، وافريقيا • انني معجب بروايات كتاب امريكا اللاتينية ، لان اصحابها يفكرون باستمرار في الحاضر والمستقبل من خلال طرائق باروقية تحمل خصوصيتهم وتميزهم ، على خلاف الكتـاب الفرنسيين الذين انجروا الى الاستبطان والتأمل ، وتشريح الكتابات وتنظيرها ••• »

★ **هناك شيء لم اطمئن اليه كثيرا في روايتك : اقصد مفهوم الزمن • يخيل الي انه مفهوم حلقي اكثر مما هو ديناميكي • اكاد اقول : مفهوم « بروستي » ، لا مفهوم اينشتايني على نحو ما حاول لورانس داريل في رباعيته •••**

ـ « لعل مصدر هذا الايحاء الذي ترسب في نفسك ، هو طغيان الطابع الشعري على روايتي •• ففي الواقع ، الزمن هو زمن طولي بحكم ارتباطه باحداث حياتي ، ولكنني حاولت ان اجعله حلقيا من خلال التلاعب « بالازمان » ، واقامة تعارض بين الماضي والحاضر ، لتكسير رتابة السرد • في البداية تبدو « الانا » واضحة ، الا انها سرعان ما تحول الى عدة اصوات وضمائر على الطريقة الموسيقية التي توحي لنا بلا نهائية الاصوات والنغمات •• هذا بالاضافة الى عدة رموز من شانها ان تنزع عن الزمن « حلقيته » ••

★ **مع ذلك ، لست مقتنعا كثيرا • اعجبت فعلا بالنغمة « الزمنية » في الجزء الاول حينما تحدثت عن اطياف طفولتك ، ولكنني افتقدت تطوير الزمن في الجزء الثاني•• ومن ثم احتفظت بظلال الحلقات المتداخلة لزمن قلما يتغير •••**

ـ « في الحقيقة زمن الرواية لا يتغير ، لانني اوقفت سيرتي الذاتية عند رجوعي الى المغرب بعد انهاء دراستي •• اي انني لم اكتب بعد مرحلة ما بعد الاستقلال ، وما طرأ على مجتمعنا من تغيرات • »

★ يظهر لي ان المحور الاساسي لروايتك هو تحقيق الانعتاق وهو في الوقت نفسه ، محور جوهري للمرحلة التاريخية الراهنة لامتنا •• هل يكفي الوعي ، ورفض ثقافة الغرب ، واعادة النظر في الموروثات ، لتحقيق هذا الانعتاق ؟

★ **يظهر لي ان المحور الاساسي لروايتك هو تحقيق الانعتاق وهو في الوقت نفسه ، محور جوهري للمرحلة التاريخية الراهنة لامتنا •• هل يكفي الوعي ، ورفض ثقافة الغرب ، واعادة النظر في الموروثات ، لتحقيق هذا الانعتاق ؟**

ـ « الوعي في حد ذاته ، غير كاف ، وان كان على جانب كبير من الاهمية ، خصوصا عندما تتجسد السيطرة الاستعمارية في اشكال اقتصادية وثقافية • وفي غالب الاحيان ، تصبح علائق الغيرية باطنية ، وتكتسي ردود فعلها اشكالا جد معقدة تتعدى الجوانب الظاهرة •• وهذا ما جعلني اؤكد بأن عملية الانعتاق الذاتي تهم كل الناس : المسيطرين ، والمسيطر عليهم • ذلك ان علاقة السيطرة تعتمد على الطرفين بحكم جدلية هذه العلاقة نفسها • و « الاخر » يتحتم عليه بدوره ان ينعتق ، لانه مستلب ، وان كان في وضع محظوظ •••

يبقى بعد ذلك ، ان كل تطور عندنا ، لا يمكن ان يكون الا نوعيا ، وان كان من الضروري الالتقاء والتساند مع الحركات المعادية للثقافة البورجوازية » ·

★ تحدثت كثيرا عن التطابق والتميز ·· كيف تفهمهما ؟

ـ « التطابق او الهوية ، ترتكز على عناصر مستمدة من الجذور ، وهي التي رمزت لها بالخط ، والصدى ، ثم العطر ·· اقصد بالخط القرآن ، وبالصدى المسافة الزمنية الفاصلة بيننا وبين عصر القرآن ، وبالعطر ، الحياة المتدفقة الرابطة بين هذه العناصر · وتوحيد هذه العناصر لا يمكن ان يتم من خلال التأمل او التعبد الهادىء ·· لا بد من العنف ، ولا بد من تحوير الاشكال الاولى ·· او كما عبرت عن ذلك : « التاريخ هو رغبتنا المشدودة ـ مثل جميع الرغائب ـ الى عنف الزمن · لنقسم رؤيانا الحالية للحاضر ، الى رموز صغيرة : ألا فليسعفني الوشم ـ وهو الرمز الاول ـ على التذكر ، وليفتح لي العطر ـ الرمز الثاني ـ ابواب الالغاز ، وليمهد لي الخط ـ الرمز الثالث ـ اكناف القرآن الذي يعوض طفولتي ·· وليهب من خلال هذه الرموز الثلاثة الصغيرة ، في شكل صدى ، العنف الشديد الاكبر ··· » (ص ١٨٦) ·

اما التميز ، فهو مجموع الظروف والخصائص النوعية التي ترافق وجودي ، وثقافتي ، وتجاربي ··

على انني افرق بين شيئين : بين الافتتان بالبحث عن الهوية « الحمقاء » ، والتميز « الوحشي » من جهة ، وبين الهوية والتميز الطبيعيين · واذا كنت ارفض الافتتان الاول ، فانني الح على ضرورة ان نعيش هويتنا وتميزنا · »

★ هل تظن انك قلت كل شيء في هذه الرواية ؟

ـ « هذه السيرة الذاتية مجرد لبنة اولى في عمل طويل استهدف من ورائه اغتصاب المحرمات وتحطيمها ، ثم الاسهام في خلق قيم جديدة ·· ومثل هذا المشروع يستوجب بحثا مستمرا · وما الكتابة الا وسيلة من بين وسائل اخرى ، لبلورة القيم التي نعمل على ايجادها · وفي العمق ، انا متفائل فيما يخص مستقبل بلادي ، بل ومستقبل شعوب العالم الثالث ، لانني اعرف نقائص وضعف الغرب جيدا ·· وهذا ما يدفعني الى القول : بامكاننا تغيير انفسنا ، وتغيير الغرب في الان نفسه · انني لا اشعر بالتخاذل او الانهزام امام المشكلات والاحداث التي نعيشها ، ولا اعتقد مطلقا ان العالم العربي يعيش في القرون الوسطى كما يظن البعض ·· على ان هذا الامل ، وهذا الايمان في المستقبل ، لا يعنيان عندي التوسل بقلب انظمة الحكم ، بل الاقتناع بضرورة تغيير القيم القائمة في كل المجالات ، والعمل على خلق قيم جديدة عميقة الاسس والمرتكزات ··· »

اود في ختام هذا الحديث ان انقل فقرة من الصفحات الاخيرة للذاكرة الموشومة ،

لانها صيحات تمرد عنيف تتصاعد لتقنعنا بأن مجموع اجـزاء الرواية كتبت من اجلـــها :

« عندما ارقص امامك ، ايها الغرب ، دون ان انفصل عن شعبي ، اعلم ان هذه الرقصة رغبة قاتلة ·· اعلم هذا ، انت يا من تصنع الدلالات الزائفة · هكذا سيكون الامر بالنسبة الي ، وبالنسبة لعشيرتي · ان الغرب يعتقد في قوته ·· لا بد ان تعلموا ذلك يا مدعوي النهار ، ولو ان فكركم هالك ·· يمكنه ان يعيش ، عيشوا ضد كابوسكم الى ابعد حد تستطيعونه ·· وقد يموت ، فلتكونوا حذرين الى حـد القسوة · كونوا يقظين ! قال الغرب : الكون هو سكننا · اجيبـوه لتتهدم جميع المساكن ، وليأت ، في شكل صدى غريب ، يوم العنف الاكبر · اضربوا وجها لوجه ·· والا فلتتماسك ايديكم ولتسقطوا · قولوا : اننا نحن قادة انفسنا · نحن الحركة الخاصة بنا · لقد قايضكم الغرب مقابل الا تنكروه · ارفضوا هذه الصدقة · ارفضوا كل الصدقات ! »

عبد الكبير الخطيبي ، محمد برادة
(باريس)

دفتر افكار

روز غريب

الحركة النسائية المعاصرة في الولايات المتحدة

اذكر مقالا تحدثت فيه صحفية اميركية عن زيارتها لباريس جاء فيه ان نظرة الاوروبي الى المرأة تختلف عن نظرة الاميركي اليها ٠ هذا يعاملها معاملة الند ولا يخشى مناداتها باسمها الاول : ماري او لويزا او مرغريت ، ولا تخشى هي مبادلته هذا الاسلوب في التخاطب ولو كان التعارف بينهما لم يحدث الا منذ بضع ساعات ٠ اما في اوروبا فالمرأة في نظر الرجل لا تزال امرأة ، اي مخلوقا مختلفا عنه ، يعاملها باسلوب فيه شيء من العطف والفروسية ، او قل بشيء من روح الرومنطيقية التي الهت المرأة وزعمت انها مخلوق غامض يثير العاطفة والخيال وكلاهما عند الرومنطقيين موضوع تقديس ٠

قد يكون في هذا الرأي تعميم يحتمل المناقشة ، الا ان الذين بحثوا الموضوع بحثا مجردا من الهوى يقولون ان المرأة الاميركية غير مكبلة بتقاليد الفروسية والصالونات التي تحتم على الاوروبي ان يراعي في معاملة المرأة قوانين اللياقة المصطنعة ويغدق عليها الالقاب التقليدية ويرى ان قيمتها تعتمد على انوثتها وجاذبيتها الجنسية ٠ فالاميركية من هذه الناحية اكثر حرية من الاوروبية ٠ لكن حريتها ما تزال نسبية ، وما حركة التحرير التي اطلقتها الاميركيات في المدة الاخيرة الا دليلا كافيا على بعد الشقة التي تفصلها عن التحرر الصحيح ٠

تقول سيمون دو بوفوار الكاتبة الفرنسية التي تعد بحق المع من كتب في موضوع المرأة في عصرنا الحاضر : ان المرأة الاميركية رغم تمتعها بنصيب وافر من الحرية ، لا تزال عاجزة عن الاستفادة من حريتها استفادة تضمن لها المساواة بالرجل ، فهي تشغل اوقات فراغها بالجمعيات والاندية التي لا فائدة منها ٠ ومع ان نصف ثروة

اميركا في ايدي النساء ، لا تعرف هؤلاء كيفية استثمار وضعهن الاقتصادي الفريد للحصول على مشاركة فعلية في ادارة البلاد وتوجيهها ·

ان حركة التحرير التي تثيرها اليوم نساء اميركا دليل على صحة ما تقوله سيمون دو بوفوار · فالمرأة الاميركية ، رغم ايمانها بأن المهنة ضرورية لكل امرأة ، ورغم حصولها على حق اختيار المهنة ومجاراة الرجل في العمل ، ما زالت تخضع لكثير من القيود التي تخضع لها سائر نســاء العالم العائشات في ظـل النظام البطريركي ، الذي يعطي الرجل حق الانفراد بالسيادة · لذلك نشأت مؤخرا في اميركا جمعيات ثورية تعمل لتحرير المرأة ، فروعها منتشرة في عواصم الولايات الكبرى ، وغرضها مكافحة كل تقليد يحول دون مساواتهن التامة بالرجل ·

ظهرت هذه الحركة في اميركا منذ طغت موجة التحرر الجنسي التي رأى فيها بعضهم برهانا على بلوغ المرأة ما تصبو اليه من مساواة بالرجل وتقول فيها الن ويليس ، وهي من قائدات الحركة ، ان التحرر الجنسي وجد لمصلحة الرجل دون المرأة ، لانه يعطيه فرصة اشباع غريزته مجانا من غير ان يتكلف نفقة ارتياد دور البغاء · اما المرأة فعليها ان تواظب على استعمال حبوب منع الحمل وتظل دائمة الخوف من عدم فعاليتها او من تعرض صحتها ووظائفها البيولوجية للاختلال · واذا اصبحت المرأة اما حرة ، اي غير مرتبطة بزواج ، لا تجد من الحكومة ولا من المجتمع مسعفا على القيام بنفقات الطفل وتأمين معاشــه ·

ان التحرر الجنسي في رأي هؤلاء الثائرات لم يبدل عقلية الرجل ولم يمنعه من تشييء المرأة واخضاعها لنزواته ـ انه طريق مسدود ·

تتعدد مطاليب زعيمات الحركة وتتنوع اتهاماتهن وشكاويهن · فواحدة تهاجم التوجيه الذي تلقاه الفتاة في المدرسة والجامعة حيث يشجعونها على درس تدبير المنزل ويخيفونها من درس الرياضيات والعلوم ·

واخرى تهاجم العادة الرومنطيقية التي تفرض على الرجل ان يتخلى للمرأة عن مكانه في حافلة اوتوبيس وان يعطيها اولية المرور امام مدخل بناية او مكان عام · كذلك تهاجم هؤلاء النسوة العادة التي تلزم الرجل بأن ينفرد بدفع ثمن الطعام الذي شاركته فيه امرأة في مطعم او مقهى · كما يهاجمن العادة التي تقضي على المرأة بأن تتبع زوجها الى مكان عمله وبأن تتخلى عن اسمها لتحمل اسمه ·

ومنهن الثائرة على عادة المغازلة التي تعد وجها من وجوه تشييء المرأة واعتبارها آلة متعة ، وهي في اي حال تقليد مصطنع ولون من الوان الرياء · ومن صنف التشييء ، الذي نحن بصدده دفع المرأة الى تجميل جسدها وجعله آلة اغراء ولفت نظر ·

وهناك التي تثور على تقييد المرأة بالبيت والاولاد تقييدا يحول دون نموها الفكري واثبات شخصيتها ، في حين يبقى الرجل حرا ، طليقا ، منصرفا الى عمله ، فهي تطالب بدور حضانة تنشئها الدولة وتقفها على رعاية الطفل نهارا وليـــلا وتحرير الام من اعبــائه ·

انصار هذه الثورة لا يقتصرون على النساء لكن بينهم ايضا رجالا نظير العالم الرياضي جيمس كلاب الذي وقف جميع نشاطه على العمل في حركة التحرير ، فلنسمع ما يقول : « اني معجب بالمرأة المستقلة ، مبغض للمرأة - الظل ، والمرأة - الدمية ، والمرأة المحدودة التفكير ، المعدومة الشخصية ، التي تعيش لاجل زوجها تعتنق مبادئه واقواله اعتناقا اهوج خاليا من التفكير ، تصبح له بوق دعاية وتحثه على البطولة والمغامرة في حين تقف هي وقفة المتفرج المحمس وتكتفي من البطولة بالتصفيق . هذه المرأة التي لا هم لها في الحياة سوى بيتها واولادها ، لا بد ان تشعر بتعاسة حين يتفرق عنها هؤلاء ويذهب كل في سبيله . ولا بد ان تتعذب من الوحدة والفراغ لانها لم تتعود الاستقلال باهتماماتها وهواياتها الذاتية - . »

ويضيف قائلا : « ان مساندة تحرير المرأة عمل انساني نظير مساندة تحرير الزنوج . ومن المؤسف ان يقف المجتمع موقفا معاديا لحرية المرأة . اذا رفعت صوتها مطالبة بالمساواة نسبوها الى الهستريا والجنون ، ولو عقل الرجل لرأى من مصلحته ان يساند حرية المرأة لانه بتحريرها يتحرر ويحرر المجتمع من التطفل والتبعية والتقاليد البلهاء . »

هذا عرض موجز لموقف الفئات الثورية ومن يؤيدها من دعاة تحرير المرأة . فلنلتفت الان الى ما يقوله الباحثون الذين يبنون رأيهم على التجربة والبرهان العلمي .

تقول مرغريت ميد ، اشهر باحثة انتروبولوجية في اميركا : « ان خروج المرأة للعمل خارج البيت امر طبيعي على اثر انكماش اعمالها المنزلية ، ومساواتها للرجل في العلم والثقافة تعزز بينهما شعور الرفاقة وتهيئها لان تكون للرجل افضل رفيقة وصديقة ، خلافا للعهود الماضية التي حصرت مجال صداقته في بني جنسه . »

وتشدد ديانا تريلنغ ، الكاتبة والصحفية ، على بسط الاضرار التي الحقتها نظريات فرويد بقضية المرأة ، حين قدم هذا الباحث دور الوراثة الحتمية على دور البيئة في تكوين شخصية الجنسين ، (وهذا بخلاف ما يقوله علماء اليوم) وزعم ان الرجل يتميز بالفاعلية في حين ان المرأة تقوم بدور سلبي انفعالي وان بين الجنسين خصومة وراثية وتنافسا طبيعيا لا مجال لاخفائه .

تقول ديانا تريلنغ ان نظريات فرويد افسحت في مجال العداوة بين الجنسين حتى زعم بعض الروائيين في اميركا ان تكاثر امراض القلب عند الرجال سببه استبداد النساء برجالهن .

وتقول الدكتورة استيل رامي ، الاختصاصية في علم الغدد الصماء : ان التجارب دلت على تفوق المرأة في ميدان الاعمال التي تستدعي الجلد والاحتمال ، وبينت انها اقل منه تعرضا لتصلب الشرايين واكثر مناعة ومقاومة للامراض الجرثومية .

ولكن يتساءل الناس لماذا تتخلف المرأة عن الرجل في ميدان الاعمال الفكرية رغم انفساح مجال العلم امامها ومضاهاتها للرجل بل تفوقها عليه احيانا في المدارس والجامعات ؟

تجيب الدكتورة استيل ان عجز المراة يعود الى التوجيه المختلف الذي تلقاه في المجتمع • فهي منذ ولادتها اكثر تعرضا للوقوع تحت سلطة الام واشد تاثرا من اخيها بتصرفات امها وميولها ، وهي بالتالي اكثر قبولا للتوجيهات التي يهمسها الناس في اذنها حين يؤكدون لها ان سعادتها تنحصر في رعاية المنزل والاولاد وان هدفها الاوحد في الحياة هو ايجاد الزوج ووظيفتها ان تلاحقه في الجامعة وفي دوائر العمل وان تسخر في هذا السبيل جميع طاقاتها •

وبما ان كل فرد منا هو صنيعة التوجيه الذي يلقاه في البيت والمجتمع فالمراة بطبيعة الحال منقادة لاحكام البيئة التي تضرب حولها نطاقا لا يمكنها اختراقه الا اذا اختارت الشذوذ والتمرد على الرأي العام ورضيت بمجابهة الحرمانات والتضحيات التي يجابهها المتمردون •

وتبحث غلوريا كفيتاس استاذة الانتروبولوجيا في جامعة روتجرز (نيودجرزي) موضوع سيادة الرجل في الماضي والحاضر ، فتعزوها اولا الى انفراد المراة دونه بأعباء الحمل والولادة ، « وبذلك منحته الطبيعة من حرية العمل والتنقل ما لم تمنحه المراة وجعلته اصلح منها فيزيولوجيا لاعمال الصيد والقنص في عهود الفطرة التي اكتسب فيها زعامة تقليدية ثبتت له على توالي العصور • وكانت الاحوال الاقتصادية عاملا اخر في الحط من منزلة المراة فان تكاثر عدد النساء في القبائل المعتمدة على الغزو مهد لرجال القبيلة سبيل التخلص منهن بالوأد • »

هناك عوامل اخرى اسهمت في ايجاد التفاوت بين الجنسين فقد اظهرت الدراسات الاجتماعية ان الرجل يميل الى اختيار الزوجة التي تخالفه شكلا ، اعني الصغيرة الحجم ، المستديرة التقاطيع ، البارزة الانوثة ، التي تستحضر في ذهنه صورة الطفل المحتاج الى حماية • وبذلك كان الرجل يسهم في الابقاء على النساء الطفيليات ويعرض عن المراة المسترجلة ، المناضلة ، الميالة الى الاستقلال والسيطرة •

وتزيد الصحفية روث غاي حول هذا الموضوع بالذات ، ان التربية الاتكالية التي تتلقاها المراة تقتل فيها شعور الطموح وقوة الخلق ، تضعف ثقتها بنفسها وثقـــة الناس بها ، فكل عمل تقوم به المراة يتعرض للغبن وتصدر بحقه الاحكام المجحفة لمجرد كونه عمل امراة •

وتقول ايضا ديانا تريلنغ : ان خصوم المراة ليسوا فقط الرجال بل هناك عداوة النساء بعضهن لبعض وعجزهن عن التكتل لمصلحتهن • لكن هذه العداوة مصدرها الرجل لان سيادة الذكور في مجتمعنا واعتماد المراة عليهم يضطرها الى تأليههم والانحياز الى جانبـــهم •

اما اولئك الذين يزعمون ان المراة لا تكتمل شخصيتها ولا تجد سعادتها الا في الزواج والمنزل فترد عليهم الدكتورة استيل رامي بقولها : في الدول التي ساوت المراة بالرجل في الاعمال ودفعتها الى مشاركته في المهن الزراعية والادارية والجندية ، تاركة لدور الحضانة رعاية اولادها ، تدل التجارب والدراسات على ان المراة تستطيع ان تجد اكتمالا في شخصيتها وسعادتها خارج المنزل ، وان الاعمال الجديدة التي تمارسها

لا تسيء الى انوثتها ولا تخلق في نفسها شعور نقص واختلال • في روسيا حيث يزيد عدد الطبيبات على عدد الاطباء ، تظهر المرأة مقدرة عملية بالغة وتضفي على البيئة الخشنة التي تعمل فيها مقدارا كبيرا من سحر الانوثة واشعاعها •

الخلاصة ان الحركة النسائية المعاصرة في اميركا وسواها من اقطار الغرب تضم المتطرفين والمعتدلين لكن لها هدفا رئيسيا واحدا هو توعية المجتمع ولفت انظاره الى الاضرار الناشئة من عزل المرأة عن شؤون الحياة وهدر مواهبها وطاقاتها الفكرية واضعاف شخصيتها بتطبيق ما يسمونه « القاعدة المزدوجة » التي تستهين بها وتفرض عليها الرضى بالغبن والتضحية •

هذه الحركة لا تستهدف تحويل المرأة الى رجل ولا تنفيرها من الزواج والامومة لكنها تلح على ابراز دور البيئة في الحط من منزلة المرأة وقتل طموحها بايهامها ان الرجل خلق لنفسه في حين ان المرأة خلقت للرجل لا لنفسها •

ان انصار الحركة يطالبون بان ينشأ بين الجنسين احترام متبادل غير مبني على المنفعة التي يجنيها احدهما من الاخر بل على ما يستطيع كل منهما تحقيقه من نمو واكتمال في شخصيته •

وبما ان هدف كل منا هو بلوغ اقصى حد ممكن من النمو ، فان الاوضاع التقليدية التي تستبد بعلاقات الجنسين لا توفر هذا النمو لاي منهما فيترتب علينا اعادة النظر فيها والتحرر منها بقدر المستطاع •

روز غريب
(بيروت)

الكاتب في العالم الثالث :
ان تكتب هو ان تفضح الحياة

(مقابلة مع عبد اللطيف اللعبي)

● **من المعروف ان لمجموعة « انفاس » التي تدير مجلتها والتي تحمل الاسم نفسه موقفا من السياسة والثقافة فما هو الخط الذي تنطلق منه ؟**

— اولا اريد ان اوضح شيئا هو ان « مجموعة انفاس » عدة اقلام انبثقت من قلب الاستلابات ، والمراوغات الثقافية والسياسية لاعادة النظر من جديد في عملية الخلق، ولازاحة الاقنعة عن الوجوه المستعارة ، ولتصعيد الكفاح ضد الاستعمار بكل اشكاله ولا سيما الثقافي منه ·

ولعل اهم دور تسعى له « مجموعة انفاس » هو احباط التزيف الثقافي ، المتمثل في الاشكال الجامدة والاساليب المحنطة التي يتلاعب بها كثير من (الكتبة) الشرقيين ثم فضح الفكر البرجوازي الغربي الذي اصبح مطمح الاغلبية الساحقة من المثقفين السذج · كما ان هدفنا الاساسي هو المشاركة في ايجاد ثقافة وطنية متحررة خلاقة تعبر عن وعي شعبنا لنخرج به من جحر الوصاية والهيمنة ·

وبناء على هذا فان تسخير الكاتب من طرف بعض المؤسسات الاحتكارية لا يخدم في الحقيقة سوى مصالح الرجعية العميلة والمثقفين الوصوليين الذين يمثلون مواقف ارهابية خسيسة ·

● **هل تعتقد ان بامكان الكاتب في العالم الثالث ان يوجه السياسة والثقافة ؟**

— اؤمن ان دور الكاتب متواضع جدا ، ذلك ان ما يجب ان يفعله هو ان يربط النضال بما يكتب فمثلا استطاع فرانز فانون وايميه سيزير ومصطفى الاشرف انيبينوا بطريقة علمية زيف المحاولات الاستعمارية التي ترمي الى مصـاهرة ثقافية لتدمير واجهاض المقومات الفكرية والثقافية الافريقية · وبتعبير دقيق ان دور الكاتب هـو الفضح ، فضح وضع معين ، فضح الحياة نفسها ·

● **كانت مجلة « انفاس » قد اصدرت عددا خاصا عن الثورة الفلسطينية ، وبعد ذلك اصدرت انت ترجمة بالفرنسية لاشعار كل من محمود درويش ، وسميح القاسم وغيرهما من شعراء الارض المحتلة ، فما رايك في المقاومة ، وهل تعتقد ان بامكانها ان تقضي على النظم الرجعية في الوطن العربي ؟**

— الثورة الفلسطينية تحتل مكانة الصدارة في كل ما نكتبه او نقوله · لماذا ؟

لانها احدثت تسريعا تاريخيا ، كما انها عرت كل التناقضات على المستوى الايديولوجي والثقافي ·

اما عن العدد الخاص بالثورة الذي اصدرته المجلة فهو مشاركة متواضعة تدخل في نطاق الالتحاق بالجبهات النضالية الثقافية التي اصبح على المثقفين الثوريين اليوم ان يلعبوها ، وكما قلنا في الافتتاحية : « باننا اردنا بهذا العدد الاسهام في توضيح المشكل الفلسطيني » · اما فيما يخص كتابي عن شعر المقاومة فقد جاء تلبية اكيدة لرسم الوجه الحقيقي لنضال شعب قوي يخوض معركة المصير ضد قوى الشر والطغيان · ولقد قلت في المحاضرة التي القيتها في الملتقى الشعري ببيروت بأن الشعراء الفلسطينيين اعادوا للشعر العربي وظيفة الاتصال بالجماهير ، هذه الوظيفة التي طالما هددها شعراء البلاطات والشعر الارستقراطي · والواقع ان هنالك كثيرا من المثقفين الغربيين يسمعون عن شعر المقاومة لكن لم تتح لهم فرصة قراءته ·

اما عن استطاعة المقاومة ان تطيح بالانظمة الرجعية في الوطن العربي ، فهذا ليس بامكانها الان ، لان هذه الانظمة متعاونة مع الامبريالية ويستحيل على المقاومة الاطاحة بها نهائيا ، غير ان دور المقاومة في المرحلة الراهنة هو فضح هذه الانظمة بشكل لا هوادة فيه ، وهو دور فعال حقــا ·

● هناك اليوم من يقول ان ادب المقاومة ليس ادبا انسانيا ، وانه بمجرد ان يتحرر الانسان والارض سينتهي نهائيا · ما مدى فعالية هذه القولة · وكيف تفهم الادب الانســــاني ؟

ـ مبدئيا اقول ان الادب الانساني في اعتقادي هو كل ادب ينـــاضل من اجـل سيادة الانسان ، وهو الذي يطيح بالخرافة ، والزيف ، ليخلق التحاما ايجابيا بين الانسان والحياة ، ويغوص في اعماق الذات معبرا عن مطامحها وفرحتها ، وحزنها · انه الادب الذي كتبه غوركي ، وجوته ، وديستويفسكي ، والشابي وغيرهم ·

بقي الشق الثاني من السؤال وهو هل ادب المقاومة الفلسطينية ادب انساني ؟ اسارع فاقول نعم لانه يعبر عن زحف الانسان وتطلعه للخير والحرية فلماذا لا يكون انســــانيا ؟

● اثار كتابك « العين والليل » ردود فعـــل كثيرة فماذا تريد ان تقول فيه بالـــتدقيق ؟

ـ حاولت في « العين والليل » ان اشارك في خلق مناخ جديد لكتابة الشعر في اطار الادب العربي والمغربي فيما يسمى (الرواية ـ الرحلة) كما انني حاولت ان انــــدد بالقمع ازاء عنف احتواء الواقع ، وان اصور المغرب والعالم العربي بعد الخامس من حزيـران ·

ان « العين والليل » ادانة لكل شيء في مجتمع متناقض ،روتيني ، احتكاري ·

● هناك تهريج في الحقل الادبي في المغرب فكيف تفسر ذلك ؟

– سؤالك هذا اعادني الى قولة احد المشاركين في الملتقى الثقافي الافريقي الذي انعقد بالجزائر سنة ١٩٦٩ حيث قال بالحرف الواحد « من اجل الثقافة اليوم يموت الرجال في غينيا ، وانغولا وفي كل مكان » • من هذه الرواية نجد ان التهريج الموجود الان في الحقل الادبي بالمغرب ناتج عن رغبة اكيدة في التزيف ، والخذلان • والغريب حقا ان هؤلاء الارهابيين من المثقفين الجبناء يتكلمون كثيرا على الثورة ويكتبون عنهـا ، ويدخلون في تركيبات ذهنية لها ، بدون اية ممارسة ثورية • هذا في الواقع تحريف من تحريفات الايديولوجية البرجوازية التي كانت تفصل ما بين الفكر والممارسـة

● الا ترى معي ان الادب المكتوب بالفرنسية هو « ادب منفى » حيث يستعمل الكاتب لغة مفصولة عن تراثه ، ومن هنا تصبح اللغة التي يستعملها في التعبير غير قادرة على نقله بجميع احاسيسه الى الذين يحدثهم عن مشكلات مجتمع اخر لا يهمهم كثيرا ان يتألموا من اجله ؟

– يبدو الحديث عن مشكلة اللغة عسيرا جدا ، ولا سيما حينما تطرح مشكلة الكتاب الذين يكتبون بلغات اجنبية كما هو الشأن بالنسبة للجزائر • ومع ذلك فـان الادب المكتوب بالفرنسية في رأيي ليس ادب منفى لان نقطة الحساسية تكمن في اداة التعبير وفي الافكار التي يروجها الكاتب ، وبمعنى اكثر دقة في القدرة على تسخير اللغة ، وكما قلت فيمقال لي حول هذا الموضوع، نشر فيالعدد ١٨٨ ، مارس – ابريل ٧٠ من مجلة « انفاس » ، بأن الاهتمام يجب ان ينصب على العمل الادبي لمحاسبته ، لا عـلى غيـره •

ادريس الزمراني
(الرباط – المغرب)

الكلام المكسور

« بحيرة المساء » لابراهيم أصلان مجموعة قصص قصيرة على قدر كبير من البساطة تبلغ حد التجريد ، مـع انها تدور في عالم نفسي معقد . فالكاتب لا يقصد تصوير هذا العالم بل يتركنا نفترض له خطوطاً متشابكة ومشوشة . وحتى حين يدخلنا اليه كما في « الجرح » و « المستأجر » لا يرينا غير ظلاله . وهو في أغلب القصص لاسيما « البحث عن عنوان » و « المطر » و « الملهى القديم » و « بحيرة المساء » يختار اقل قدر من الخطوط ؛ يقبض عند تقاطعها على لحظة انسانية . هذه الخطوط هي : الرصيف ، هذا المكان المتحرك أو المكان الموقت الذي يفصله عن الرصيف الآخر طريق أو نهر، أي اللا مكان أو المكان المبهم الذي لا يمكن ان تقوم بينه وبين العابر علاقة تجذر

بل علاقة مصادفة . خط آخر هو الزمـــان الفاصل ، وهو في القصص منتصف الليل او منتصف النهار ، بدء الصيف او بدء الشتاء ، وهذا الزمان هو زمان الانتقال والعبور واكاد اقول الزمان الموقت. في شبكة هذين الخطين الموقتين يعلق وجه متوحد وتحدث فضيحة موقتة بطلها الصدفة ، بمر انسان بلا اسم (وان ورد اسمه في القصة فلا يكون لذلك علاقة بتحديد هوية هذا الانسان) يبدو لنا كائناً عائماً لانه مسور بالصمت لم يستطع ان يمد جذوره في الآخر عبر حوار حقيقي ، ولم تفتح نوافذه في يوم من الايام. وهي وان كانت قد تركت مفتوحة تصرخ بالحنان كما في «المطر» فانها لم تصادف قبالتها نافذة مفتوحة للتواصل . عند تقاطع الخطين تقع معجزة حوار او تواصل موقت . يلتقي هذا المتوحد المجنون او الواقف على اهبة الجنون متوحداً آخر هو دوماً مجنون او طفل . يحاول الصامتان العائمان ان يتواصلا لكن خيط الحوار مـــا يكاد يتصل حتى يبتر وتعبر المعجزة تاركة المتحاورين لهاوية الخيبة. والكاتب يتجسس عبر لحظات الانفتاح هذه على انواع من العزلة الداخلية ، فيظهر لنـــا الجنون مرادفاً لفقدان اللغة المشتركة مع العالم الخارجي . بل ان هذا الجنون لا يبدو جنوناً الا عندما يسقط ضوء العالم اليومي على ابطاله الصامتين . وينقل لنا ابراهيم اصلان بكثير من التهيب واحترام الصمت الداخلي ،كلامهم المكسور الذي يتحرك وراء طبقة الكلام اليومي الصاخب . وفي الوقت نفسه يعكس الكاتب الاضاءة فيبدو العالم في ضوء المجانين باهتاً فارغاً وغير انساني. ولهذا فان جو القصص يبني حزناً حيياً دفيناً، انطلاقاً من الحوار ومحاولاته. وحين يغلق باب السجن في اعقاب التواصل او معجزة الحنان تنتهي القصة لكن لتبدأ، انما كما تبدأ صحارى بلا ملامح ولا انتهاء .

ويخلق الكاتب في بعض القصص مناخاً دَبِقاً مشوشاً يبدو فيـــه الانسان متحركاً بالعطالة تهجره أجزاؤه او قواه كمن يتحلل في فضاء مفرغ . في هذا المناخ نجـــد الجنون حاضراً لكنه ايضاً حضور يلمس بالظن لأنه الشفافية في مقابل كثافة العالم (العاقل) . واروع مثال يتجلى فيه حضور الجنون نجده في ختام قصة « التحرر من العطش » ، فبعد ان يستمع البطل الى « الفتاة » وهي تحكي حكاية مجنون طريف نحس بشكل مـــا انه قـد تعاطف او تضامن مع هذا المجنون ؛ وبالفعل يدخل الى الغرفة ويخرج ليتمدد على الاريكة عارياً تمامـــاً وبلا اي تعبير في ادهش تحية لذلك الجنون .

ويعمد الكاتب الى تقنية مناسبة جداً لهذا العـــالم الحزين الموقت الصامت عمقياً ؛ وهي تقنية المفاجأة. لكن يجب ان تفرغ تقنية المفاجأة هنا من كل ما تحمله من بهلوانيات التشويق او جماليات الادهاش. المفاجأة هنا تبنى خطوة،خطوة، كما في «البحث عن عنوان» مثلاً او «التحرر من العطش» حين يدفعنا الكاتب في طرق الاستنتاج العادي والمنطقي ؛ ولكننا نفاجأ بنتيجة تخالف كلياً ذلك المنطق المعترف به وندرك اننا أسأنا الفهم ، واننا دوماً نسيء الفهم ، وان علينا ان نعيد حكاية القصة بسياق مختلف هو سياق الكلام المكسور ، وان الحقيقة لا تقف ، بالضرورة ، في نهـــاية الطريق المنطقي، او ان طريق المصطلحات الاجتماعية والمنطق الشائع لا توصل الى الحقيقة الانسانية .

(بحيرة المساء ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧١)

خالدة سعيد

انور الغساني

ماتت «الام الشجاعة» وبقي مسرحها ورسالته

توفيت في برلين في السابع من شهر أيار الماضي هيلينا فايكل زوجة برتولت برشت ومفسرة أعماله ومديرة مسرحه (برلينر انسامبل) بعد وفاته عام ١٩٥٦ وافضل من أدى الادوار النسائية في أهم المسرحيات التي كتبها ٠ وقد اثارت وفاتها الحزن في جمهورية المانيا الديمقراطية ولدى الجمهور الذي ألف مشاهدتها على المسرح خلال اكثر من عشرين عاما خلت ٠ وقد توفيت بعد فترة قصيرة من عودتها من رحلة قام بها مسرح (برلينر انسامبل) الى باريس لمناسبة الذكرى المئوية لقيام كومونة باريس حيث مثلت فايكل لآخر مرة على المسرح ، رغم مرضها الخطير ، أحد أشهر ادوارها ، وهو دور الام بلاكيا فلاسوفا في مسرحية الام التي أعدها برشت للمسرح عن رواية مكسيم جوركي٠ هذا وحضر التشييع بالاضافة الى عدد من الشخصيات السياسية والفنية من المانيا الديمقراطية عدد من أشهر العاملين في المسرح الاوروبي من بينهم بيير ديبوش مدير المسرح الشعبي في نانتير بفرنسا حيث مثلت فايكل لآخر مرة مساء الثالث من نيسان الماضي ٠

أمضت هيلينا فايكل التي توفيت قبل ايام من يوم ميلادها الحادي والسبعين اكثر من اربعين عاما في العمل المسرحي بدأتها في سنوات العشرينات ضمن « فرقة الممثلين الشبان » ورافقت برشت في أعوام الازمة الاقتصادية العالمية (من ١٩٢٩ الى ١٩٣٢/٣٣) يوم لم تعد المسارح قادرة على فتح ابوابها بسبب الازمة الاقتصادية التي أتاحت لعدد من المسارح العمالية الصغيرة امكانية النشاط وجذب جمهور واسع ٠ وقد قامت يومئذ (١٩٣٢) بتمثيل أول دور كبير لها وهو دور الام في (الام الشجاعة) التي مهدت لشهرة برشت وهيلينا فايكل العالمية ٠

كانت هذه المسرحية بداية حقيقية لما عرف بعد ذلك بمسرح برشت ، أو (مسرح التوعية السياسية) او (المسرح البروميثيوسي حيث يمثل الانسان قدر الانسان) كما يصفه بعض نقاد المسرح ٠ وقد استطاعت فايكل

من خلال ادارتها لمسرح برشت منذ وفاته عام ١٩٥٦ ان ترسخ كل المعالم الاساسية التجديدية لمسرح برشت ٠ على أن هذا الترسيخ لم يكن تطويرا لمضمون المسرح واسلوب عمله في اتجاه جديد وانما تعميق الاتجاه نفسه الذي بدأه برشت وواصله مع فايكل خلال اعوام المنفى (١٩٣٣ – ١٩٤٨) في الدانمارك والسويد والولايات المتحدة بحيث يمكن ان نقول ان مسرح برشت أصبح في اوربا الآن ذلك المسرح المتمتع بالعنفوان والجدية ، المتحرر من أي ميل نحو ترويج مفاهيم انحطاطية ٠ انه بالفعل ، وببساطة ، مسرح حقيقي ، أو ما يمكن أن يكون عليه المسرح ٠

لقد اصبحت هيلينا فايكل بتمثيلها لدور الام الشجاعة ومنذ المرة الاولى شخصية اسطورية تركت تأثيرها العميق لدى الجماهير وجسدت على المسرح تلك المقولة البرشتية من أن هذا العالم الذي صنعه البشر ، قابل للتغيير ، وان الانسان يجب أن يخلق من هذا العالم المشحون بالتشويه والقبح عالما جديدا ، حيث الانسان بوجهه وحركاته وايماءاته وابتسامته يحاكي تلك الصورة التي طالما قدمها لنا مسرح (برلينر انسامبل) في عهد برشت وفي عهد هيلينا فايكل والتي سيواصل تقديمها واكتساب مؤيدين معالين من بين الجمهور يعملون ، وعلى اساس من الوعي الثابت ، على تحقيقها في الواقع الموضوعي نفسه ٠

كانت فايكل ، سواء بتمثيل دور تيريزا كارار في (بنادق السيدة كارار) ام دور الام في (الام الشجاعة) او (الام) المقتبسة عن جوركي أو أي دور آخر ، تحاول دائما تصوير شخصيات من الطبقات البسيطة بطاقاتها وسلوكها وعلى أساس من مفهوم مضاد لفهوم المسرح الارسطي القائم على استغراق الممثل في الشخصية ٠ كان من الضروري ان يدرك المتفرج بأن ما يقدم له انما هو تمثيل ، وان الشخصية تعيش مأساتها في الغالب دون وعي منها بحقيقة هذه المأساة ، بينما يتألف لدى المتفرج ادراك كامل لكل جوانب المأساة ٠

وقدمت لنا فايكل في (الام الشجاعة) شخصية بائعة متجولة في فترة حرب الثلاثينات (١٦١٨ – ١٦٤٨) ترافق الجيش المحارب هي وعربتها وابناؤها ، وبينما تفقد الام ابناءها في القتال يزداد من الناحية الاخرى ربحها من المبيعات ، وتظل تعاني من هذا التناقض : الكسب المادي والمأساة الذاتية ٠ وفي نهاية المسرحية وحين تمر العربة على المسرحية لتختفي خلف الكواليس يدرك المتفرج مأساة الام وسخف الحرب وبشاعتها بينما تظل هي غير مدركة للسبب الاساسي الذي يؤلف مأساتها ٠

مثلت فايكل دائما بهدوء واتزان ودقة دون ان تسمح لنفسها بالاستغراق

في تصعيد غير ضروري ، وهذا يفسر حرصها الشديد على تحقيق اعلى مستوى من الدقة في رسم تفاصيل الشخصية التي تمثلها ، وخاصة ما يتعلق باختيار ملابس الشخصية والحاجيات التي تستعملها بحيث تتناسب مع المرحلة التاريخية ومع نمط الشخصية التي تقوم بتأدية دورها • وبهذا المعنى كتب برشت قصيدته الشهيرة « لوازم السيدة فايكل » التي تحدث فيها عن هذا الحرص المدهش على انتقاء الافضل من اللوازم التي كانت تستخدمها لتمثيل ادوارها •

ان هيلينا فايكل تنتمي الى ذلك الجيل من المسرحيين الذي منح المسرح الالماني شحنة تجديد واقام مسرحا ملتزما لا يهدف الى تقديم ساعات من التسلية على الطريقة البرجوازية وطرح نماذج يمارس المتفرج من خلالها عملية تحقيق ذاته ولعبة مطابقة واقتران هي في حد ذاتها عملية تخدير ، وانما هو مسرح ، يمارس تنبيها مركزا على وعي المتفرج قاطعا عليه الطريق الى تحقيق ذاته من خلال الشخصية • يقول الناقد الفرنسي جيل سانديه في مجلة (بوليتيك هيبدو) معلقا على تمثيل فايكل الاخير في باريس « ان صورة هيلينا فايكل في دور الام تحولت خلال الاعوام العشرين الماضية ••• الى صورة من ذلك النمط الذي يترك اثاره في حياة المتفرج • » ويكون مسرح برشت بذلك مسرحا عقليا بالدرجة الاولى دون أن يعني ذلك شطب دور التعامل العاطفي • وقد اسهمت فايكل بتمثيلها في طرح شرائح من الواقع الانساني ، مكثفة ، مشروحة ، ومحددة بقوة وثقة ، موجهة الى المتفرج خلاصة « صادقة » تثير في ذهنه عددا من التساؤلات التي تدفعه في النهاية الى استنتاجات ترفعه الى مستوى اعلى من الوعي الذاتي والاجتماعي • وفي دورها هذا وفي دورها كمديرة لكل النشاط المسرحي في مسرح برشت (برلينر انسامبل) بعد وفاة برشت تكمن اهميتها ، وتتضح مدى جسامة الخسارة التي حلت بالمسرح في المانيا الديمقراطية بوفاتها •

ولعل في قصيدة برشت نفسه عن فايكل ما يضيء الكثير من جوانب فنها وشخصيتها • وفيما يلي نقدم ترجمة لها ، وهي بعنوان « لوازم السيدة فايكل » :

مثلما ينتقي زارع الذرة لحقله التجريبي أفضل الحبوب ، والشاعر أنسب الكلمات لقصيدته ، كذلك تنتقي هي الاشياء التي سترافق شخصيتها على المسرح •

ملعقة الصفيح التي تضعها الام الشجاعة في عروة سترتها المنغولية ،

وبطاقة عضوية الحزب لفلاسوفا الطيبـــة (١) ، وشبكة صيد الام الاخرى ... الاسبانية ، او وعاء المعدن الذي تجمع به انتيغونا الغبار

وحقيبة اليد المميزة لمنشورات الابن ومحفظة نقود البائعة الضاجة !
كل قطعة من لوازمها يجري اختيارها ،
مشبك الحزام والسير الجلدي ، علب الصفيح ، وحقيبة الرصاص
وتختار أيضا الديك المسمن والعصا
لتربطها في نهاية حبل سحب عربة البيع
ولوح الخشب الباسكي لتخبز عليه الارغفة
ولوح العار العائد لليونانية ، حيث فتحات لحصر الاكف ،
ووعاء شحم الخنزير العائد للروسية ، الضئيل في كف الشرطي
منتقاة كلها وفق العمر والغرض وجمال الشكل
بعينين عارفتين
وبيدي الخبيرة العاجنة الخبز ، الناشرة الشباك ، الطابخة الحساء ،
الخبيرة بالواقع .

انور الغساني
(لايبزك)

(١) فلاسوفا : الام في رواية (الام) لمكسيم جوركي .